جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

العقيدة خاص (٤)

IAQD3073

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2009

المحتويات

الدرس الأول :	آيات وعلامات صدق الرسل في دعواهم	٧-٢٣
الدرس الثاني :	شواهد عبر التاريخ تثبت نبوة محمد ﷺ	٢٥-٣٩
الدرس الثالث :	عالمية رسالة محمد ﷺ وختم النبوة به	٤١-٥٥
الدرس الرابع :	من دلائل صدق نبوة محمد ﷺ	٥٧-٧١
الدرس الخامس :	من وسائل حفظُ الدين إقامة: الإمامة، والخلافة، والجماعة	٧٣-٨٢
الدرس السادس :	أفضلية الخلفاء الأربعة بحسب ترتيبهم، والأدلة على ذلك	٨٣-٩٤
الدرس السابع :	فضل الصحابة، والتوسط فيهم بين الإفراط والتفريط	٩٥-١٠٧
الدرس الثامن :	مذهب أهل السنة والجماعة في تنصيب الإمام	١٠٩-١٢٢
الدرس التاسع :	الإمامة في الإسلام: حقوق، وواجبات	١٢٣-١٣٦
الدرس العاشر :	عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين بين الإقرار والإنكار	١٣٧-١٤٩
الدرس الحادي عشر :	تتمة الحديث عن عذاب القبر، ومسائل أخرى في الحياة البرزخية	١٥١-١٦٦
الدرس الثاني عشر :	أشراط الساعة وأماراتها (١)	١٦٧-١٧٧
الدرس الثالث عشر :	أشراط الساعة وأماراتها (٢)	١٧٩-١٩٢
الدرس الرابع عشر :	أشراط الساعة وأماراتها (٣)	١٩٣-٢١٢

الدرس الخامس عشر	:	مباحث متعلقة باليوم الآخر (١)	٢١٣-٢٢٥
الدرس السادس عشر	:	مباحث متعلقة باليوم الآخر (٢)	٢٢٧-٢٤٠
الدرس السابع عشر	:	مباحث متعلقة باليوم الآخر (٣)	٢٤١-٢٥٣
الدرس الثامن عشر	:	مباحث متعلقة باليوم الآخر (٤)	٢٥٥-٢٦٨
الدرس التاسع عشر	:	مباحث متعلقة باليوم الآخر (٥)	٢٦٩-٢٨٣
الدرس العشرون	:	الأصول والقواعد التي تبيِّن منهج السلف	٢٨٥-٣٠٨
الدرس الحادي والعشرون	:	مقارنة تفصيلية بين منهج أهل السنة والمناهج الأخرى	٣٠٩-٣٢١
قائمة المراجع العامة	:		٣٢٣-٣٢٧

آيات وعلامات صدق الرسل في دعواهم

عناصر الدرس

العنصر الأول : تنوّع الدلائل على صدق الرسل في دعواهم ٩

العنصر الثاني : بيان ما تضمنته الكتب السابقة من ذكر نبوة محمد ﷺ ١٥

تنوّع الدلائل على صدق الرسل في دعواهم

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن من أركان الإيمان: الإيمان بالرسل جميعًا كما نص عليهم الله تعالى في كتابه، ونصَّ عليهم رسولُ الله ﷺ في سنَّتِهِ، وأفضل الرسل، وأشرفهم عند الله على الإطلاق نبينا محمد ﷺ اختصه الله بفضائل ومزايا لم يعطها نبيٌّ قبله.

فهو أفْضَلَ المرسلين وأكرمُ العباد، أرْسَلَه الله بِالهُدَى ودِين الحقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه ولو كَرِه أهل الشِّرْكِ والعِناد، ورَفَع له ذِكْرَه فلاَ يُذْكَرُ إلا ذُكِر معه كما في الأذَانِ والتشهدِ والخطب.

وكَبَت مُحادّه وأهْلَكَ مُشاقَّه، وكَفَاه المستَهْزِئِيْنَ، وبَتَرَ شَانِئَهُ، ولَعَنَ مُؤْذِيَه في الدنيا والآخرَةِ، وجعَل هَوانه وذله دائمًا عليه، واخْتَصَّه على إخوانِه المرسلين بخَصائِصَ لا تُعد ولا تحصى، فَلَهُ الوسِيلةُ والفَضِيلةُ والمقَامُ المحمودُ، وَجُعِلَ لَهُ لِواءُ الحمْدِ -صلى الله عليه وعلى آله أفضَلَ الصَّلَواتِ وأعلاها، وأكملها وأنْماها.

اعلم: أن الله تعالى هدَانَا بنبيِّه محمدٍ ﷺ وأخْرَجَنا به من الظلماتِ إلى النور، وآتانا ببركةِ رسالتِهِ، ويُمنِ سفَارته خيرَ الدنيا والآخرة، وكان من ربِّه بالمنزلةِ العُليا التي تقاصَرتِ العقولُ والألسِنَةُ عن معرفتِها ونَعْتِها، وصارت غايتُها من ذلك -بعد التناهي في العلم والبيان- الرجوعَ إليها وعدم مخالفتها، فله من الحق علينا، بَلْهَ ما أوجب اللهُ من تعزيره، ونصرِه بكل طريق، وإيثارِهِ بالنفسِ، والمالِ في كلِّ موطنٍ، وحفظِهِ وحمايتِهِ من كل مُوذٍ، وإن كان اللهُ قد أغنَى رسولَه عن

نصرِ الخَلْق، ولكن لِيَبْلُوَ بعْضَكُم ببعض، وليَعْلَم اللهُ مَنْ يَنْصُرهُ ورسلَه بالغيب؛ لِيُحِقَّ الجزاءَ على الأعمالِ، كما سبقَ في أُمِّ الكتاب- أن نبين ما جاء من أدلة تترى في الدلالة على نبوة محمد ﷺ وتَوابعَ ذلك ذِكرًا يتضمَّنُ الحكمَ والدليلَ، ونقلَ ما أمكَنَ من النصوص والآثار، مع ذكر وجه الاستدلال التعليل، وبيانَ ما يجبُ أن يكونَ عليه التعويل.

لقد بعث الله أنبياءه ورسله رحمة للناس مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق؛ ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، فعرضوا دعوتهم على الناس، وأخبروهم أنهم مرسلون من عند الله، وعليهم أن يصدقوهم فيما أخبروا به، كما يجب عليهم أن يُطيعوهم فيما يأمرونُهم به، وترك ما ينهونهم عنه، وقد أخبر الله في أن نوحًا خاطب قومه قائلًا: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٦- ١٠٨]. وبهذا القول نفسه خاطب رسل الله: هود، وصالح، ولوط، وشعيب، أقوامهم، بل هي مقالة ودعوة كل رسول لقومه.

فإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أن يقيم الله الدلائلَ والحجج والبراهين المبينة صدقَ الرسل في دعواهم، أنهم رسل الله كي تقوم الحجة على الناس، ولا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: بالدلائل والآيات البينات التي تدلُّ على صدقهم.

تنوّع الدلائل:

إفراد الأدلة الدالة على صدق كل رسول كثيرة متنوعة، وقد عدّ الذين ألّفوا في دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ أدلة صدقه، فنافت على الألف عند بعضهم، ومجملها يرجع إلى خمسة أمور:

الأول: الآيات والمعجزات التي يجريها الله تصديقًا لرسوله ﷺ:

ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من أمور خارقة للسنن الكونية المعتادة التي لا قدرةَ للبشر على الإتيان بمثلها، كتحويل العصا إلى أفعى تتحرك وتسعى، فتكون هذه الآية الخارقة للسنة الكونية المعتادة دليلًا غير قابلٍ للنقض والإبطال، يدلُّ على صدقهم فيما جاءوا به. وقد يُطلق عليها اسم "الآية" كما جاء بذلك القرآن الكريم، وهو اسم شامل لكل ما أعطاه الله لأنبيائه للدلالة على صدقهم سواءً أقصد به التحدي أم لم يقصد.

وهي في الجملة تندرج تحت ثلاثة أمور: العلم والقدرة والملك، وهي لا ينبغي أن تكون على وجه الكمال إلاّ لله تعالى؛ ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بالبراءة من دعوى هذه الأمور: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

أجرى الله على يد نبينا محمد ﷺ معجزات باهرات، وآيات مبصرات، إذا نظر فيها مريدُ الحقّ، دلّته على أنها شهادة صادقة من الله لرسوله ﷺ.

وأعظم الآيات التي أعطيها رسولنا ﷺ الكتاب المبين، وهو آيةٌ باقيةٌ دائمة إلى يوم الدين، لا يطرأ عليها التغيير ولا التبديل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

ومن الآيات البينات والمعجزات الخارقات إسراء الله بنبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث جمع الله له الأنبياء فصلّى بهم إمامًا ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: ١].

ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر، فقد سأل أهلُ مكة الرسولَ ﷺ آية، فانشقّ القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما، وقد كان القمر عند انشقاقه بدرًا.

وقد سجّل الله ذكر هذه الآية في كتابه، قال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢]. وكذلك تكثيره الطعام ﷺ وتكثيره الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة، وكفّ الأعداء عنه، وإجابة دعوته، وإبراء المرضى، و إخباره بالأمور الغيبية، كما تواترت بذلك النصوص، وغير ذلك مما لا يكاد يحصره العد.

الثاني: النظر في أحوال الأنبياء:

إذا شئت أن تسبر غور إنسان، وتتعرف على صدقِهِ وأمانته، فإنّك تنظر في قسمات وجهِهِ، وتحصي عليه أفعاله وأقواله، وتراقب حركاته وسكناته، والذين يستغلقعليك أن تصل في شأنهم إلى اليقين هم أولئك الذين لا تقابلهم إلا مقابلة سريعة، أو أولئك الذين يخفون أنفسهم، ويتكلفون في أقوالهم وأفعالهم؛ فلا يظهرون على طبيعتهم.

والأنبياء والرسل كانوا يخالطون أقوامهم، ويجالسونهم ويعاشرونهم، ويعاملونهم في أمورٍ شتى، وبذلك يتثنى للناس أن يدرسوهم عن كثب، ويتعرفوا إليهم عن قرب، ولقد كانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل بعثته بالأمين، وذلك لصدقه وأمانته، وعندما قال لهم الرسول ﷺ في مطلع الدعوة: ((لو أخبرتكم أنّ وراء هذا الوادي خيلًا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا)).

بعض الناس لم يحتج إلى برهانٍ ودليل؛ ليستدل بذلك على صدق الرسول ﷺ لأنّ شخصه وحياته وسيرته هي أعظم دليل، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق، فإنّ الرسول ﷺ عندما دَعَاه لم يتردد.

ونظر عبد الله بن سلام في وجه الرسول ﷺ نظرة واحدةً، ولكنَّها كانت كافية لتدلّه على أنّ هذا وجه صادق ليس بكاذب، قدم الرسول ﷺ المدينةَ، وخرج عبد الله ابن سلام عِالَم اليهود مع الخارجين ينظر في وجه الرسول ﷺ قال: "فلما رأيت وجهه؛ علمت أن وجهه ليس بوجه كذّاب".

وخديجة التي عرفت الرسول ﷺ زوجًا وخالطته عن قرب قبل أن تعرفه نبيًا رسولًا، لم تتردد في أنّ الله لن يخزيه أبدًا، ولن يصيبه ضير، ذلك أنّ سنة الله في أمثال الرسول ﷺ أن يكرّموا ويشرّفوا، ولذلك قالت له عندما جاءها قائلًا: ((لقد خشيت على نفسي)) وذلك بعد أن فاجئه الوحي في غار حراء قالت: ((كلاّ واللهِ لا يخزيك الله أبدًا، إنّك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)).

الثالث: النظر في دعوة الرسل:

النظر في دعوة الرسل مجال خصب يدلنا على مدى صدقهم، فقد جاءت الرسل بمنهجٍ متكامل لإصلاح الإنسان، ولإصلاح المجتمع الإنساني، ودين كهذا يقول الذين جاءوا به: إنّه منزل من عند الله، لا بدّ أن يكون في غاية الكمال، خاليًا من النقائص والعيوب، لا يتعارض مع فطرة الإنسان، وسُنَنِ الكون، وقد وجَّهنا القرآن إلى هذا النوع من الاستدلال، فقال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. فكونه وحدة متكاملة يصدق بعضه بعضًا، لا تناقض فيه ولا اختلاف دليل واضح على صدق الذي جاء به.

والنظر في المقاصد التي تدعو إليها الرسل، والفضائل والقيم التي يُنادون بها كلُّ ذلك من أعظم الأدلة على صدقهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

الرابع: نصر الله وتأييده لهم:

ومما يدلنا على صدق الأنبياء والمرسلين نصرة الله لهم وحفظه إيَّاهم، فإنّه يستحيل على الله تعالى أن يتقول عليه متقول، فيدعي أنّه مرسل من عند الله وهو كاذب في دعواه، ثمّ بعد ذلك يؤيده الله وينصره، ويرسل الملائكة لتثبيته وحمايته، لو فعل هذا ملك من ملوك الأرض، فادَّعى مدّع أنّه مرسل من قبله كذبًا وزورًا، وعلم بذلك الملك المفترى عليه، فإنّه سيلاحقه، وإذا ظفر به فسيوقع به أشدَّ العذاب، فكيف يليق بخالق الكون العليم الحكيم أن يرى ويسمع رجلًا يكذب عليه، ويزعم أنّه رسوله، ويحلل باسمه ويحرم، ويشرع الشرائع، ويضرب الرقاب، ويزعم أنه يفعل ذلك بأمر الله وبرضاه ومشيئته، ثم يؤيده الله وينصره، ولا يوقِعُ به عقابه وعذابه؟ هذا لا يكون أبدًا، وإن وقع مثل هذا من كاذبٍ مارقٍ وظهر أمره، وقويت شوكته يومًا، فلن يطول ذلك، ولا بدَّ أن يكشف الله أمرَه، ويهتك ستره، ويسلط عليه من يقهره، ويجعله عبرة لغيره، كما فعل الله بمسيلمة وسجاح، والأسود العنسي من قبل.

وقد أشار الله تعالى لهذا النوع من الاستدلال فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] فحكم عليهم بعدم الفلاح، وقال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]

والمعنى: أنّ الرسول ﷺ لو تقوَّل على الله ما لم يقُلْه الله لأهلكه الله.

وهذا الدليل ذو تأثيرٍ كبير على نفوسِ الناس، فإن العرب لّما رأت انتصار الإسلام صدقت وآمنت، ودخلت في دين الله أفواجًا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر: ١-٢].

بيان ما تضمنته الكتب السابقة من ذكر نبوة محمد ﷺ

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، فالآية تبين أنَّ من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به – علم بني إسرائيل بذلك، وهو علم مسجلٌ محفوظ مكتوب في كتبهم التي يتداولونها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

والقرآن يخبرنا أن ذكر محمد وأمته موجود في الكتب السماوية السابقة، وأنَّ الأنبياء السابقين بشَّروا به، وقد فهم جمعٌ من المفسرين من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] أنّ الله أخذ العهد والميثاق على كلّ نبي، لئن بُعث محمد ﷺ في حياته ليؤمننَّ به، ويترك شرعه لشرعه، وعلى ذلك فإن ذكره موجود عند كل الأنبياء السابقين.

من ذلك دعوة إبراهيم:

عن العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: ((إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإنَّ آدم لمنجدلٌ في طينتِهِ، وسأخبركُم بأول أمري، دعوةُ إبراهيم، وبشارةُ عيسى، ورؤْيَا أمي التي رأت حين وضعتني، أنه خرجَ لَهَا نورٌ أضاءت لَهَا مِنْهُ قُصورُ الشام)) رواه في شرح السنة.

وقد أخبرنا الله: أنَّ خليلَ الرحمنِ إبراهيم، وابنُهُ إسماعيل كان يبنيان البيت الحرام ويدعوان، ومن دعائهما ما قصَّه علينا في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

وقد استجابَ الله دعاء خليله إبراهيم، وابنه نبيّ الله إسماعيل -عليهما الصلاة والسلام- وكان محمد ﷺ هو تأويل تلك الاستجابة. ولا تزال التوراة الموجودة اليوم –على الرغم مما أصابها من تحريف– تحمل شيئًا من هذه البشارة، فنجد فيها: "أنَّ الله استجاب دعاء إبراهيم في إسماعيل، فقد ورد في التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السابع عشر فقرة (٢٠): "وأمّا إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه، ها أنا أباركُهُ وأثمره، وأكثره كثيرًا جدًّا، اثني عشر رئيسًا يلد، وأجعله أمّة عظيمة كبيرة".

وهذا النصُّ ورد في التوراة السامرية بألفاظٍ قريبة جدًّا مما أثبتناه هنا، والترجمة الحرفية للتوراة العبرانية لهذا النص: "وأمّا إسماعيل، فقد سمعتُ لك فيه، ها أنا أباركه وأكثره "بمأد مأد". وقد ذكر ابن القيم: أنَّ بعض نسخ التوراة القديمة أوردت النص كما أثبتناه هنا.

ودلالة هذه البشارة على نبينا محمد ﷺ من وجوه:

الأول: أنَّ الأمةَ العظيمةَ عند الله لا بدَّ أن تكون مسلمة، ولم توجد هذه الأمّة من نسل إسماعيل إلاّ بعد بعثةِ الرسول ﷺ وانتشار المسلمين في المشارق والمغارب.

الثاني: النصّ العبراني "مأد مأد" صريحٌ في اسم الرسول ﷺ فالمترجمون ترجموه "جدًّا جدًّا أو كثيرًا كثيرًا" والصواب هو: محمد؛ لأنها تلفظ بالعبراني "مؤد مؤد" واللفظ العبراني قريبٌ من العربي.

الثالث: قوله: "اثني عشر رئيسًا يلد"، هذا موافق لأخبارِ الرسول ﷺ: ((أنه سيلي أمرَ هذِهِ الأمة اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش)).

ومن ذلك بشارة موسى عليه السلام:

لقد جاء بني إسرائيل الخبرُ اليقين الأميّ، على يد نبي الله موسى # منذُ أمدٍ بعيد، جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، ونهج رسالته، وبخصائص ملته، فهو النبي الأمي، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، يضع عن من يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستُفْرَضُ عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبيُّ الأمي حين يؤمنون به.

وأتباع هذا النبي يتقون ربهم، ويخرجون زكاة أموالهم ويؤمنون بآيات الله.. وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي، ويعظمُونَهُ ويوقرونه وينصرونه ويؤيدونه ويتبعون النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

قال تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

وقد بقيت من هذه البشارة بقية في التوراة، ففي سفر التثنية، الإصحاح (١٨) فقرة ١٨-١٩ قال الله لموسى: "أقيم لهم -أي: لبني إسرائيل- نبيًّا من وسط

إخوتهم مثلَكَ، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه".

ودلالةُ هذه البشارة على رسولنا ﷺ بيِّنة، ذلك أنّه من بني إسماعيل وهم إخوة بني إسرائيل، فجدُّهُم هو إسحاق، وإسماعيل وإسحاق أخوان، ثم هو أوسط العرب نسبًا، وقوله: "مثلَك"، أي: صاحب شريعة مثل موسى، ومحمد ﷺ هو الذي جعل الله كلامه في فمه؛ حيث كان أميًّا لا يقرأ من الصحف، ولكنَّ الله يوحي إليه كلامه، فيحفظه ويرتله، وهو الرسول المرسل إلى الناس كافة، وبنو إسرائيل مطالبون باتباعه وترك شريعتهم لشريعته، ومن لم يفعل؛ فإنَّ اللهَ مُعَذِّبُهُ "ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه".

ومما يعرفنا أنَّ هذه البشارة هي بقيةُ البشارة العظيمة التي أوحى الله بها إلى موسى، وأخبرنا بها القرآن الكريم، أن هذه البشارة وردت في موقف معين، فعندما اختار موسى من قومه سبعين رجلًا لميقات الله أخذتهم الرجفة، وذلك بسبب طلبهم رؤية الله -جلَّ وعلا- فدعا موسى ربَّه وتوسل إليه، فبعثهم الله من بعد موتهم، قال الله بعد توسل موسى ودعائه ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

وإذا رجعت إلى التوراة في سفر الخروج تجد أنَّ هذه البشارة إنما أوحى الله بها إلى موسى بعد ذهابه لميقات الله، وتتحدث التوراة عن شيء قريب من الرجفة "وكل الشعب سمع الأصوات، وصوت البوق، ونظروا الشهب والجبل دخانًا، ونظر كل القوم، وتشردوا، ووقفوا من بعده.." سفر الخروج، الإصحاح (٢٠) فقرة: ١٨. "وكان جميعُ الشعب يرون الرعود والبروق، وصوت البوق والجبل يدخن، ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد..".

بشارة عيسى:

وأخبرنا الله سبحانه أن عيسى بَشَّر برسولنا محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وأحمد من أسماء نبينا محمد ﷺ كما ثبت في (صحيح البخاري) عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)).

وضرب الله ﷻ في التوراة والإنجيل مثلين لرسولنا محمد ﷺ ولأصحابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد جدّ النصارى ومن قبلهم إخوانهم من اليهود في حذف هذه البشارات من كتبهم، أو صرفها عن وجهِها، ويزعمون: أنه لا يوجد في كتبهم إشارة إلى النبي ﷺ وإن وجِدَ شيء صرفه النصارى إلى عيسى بن مريم وصرفه اليهود إلى المسيح الذي ينتظرونه، وهي في الواقع لا تنطبق إلاّ على نبيٍّ هذه الأمة، سيدنا محمدٍ ﷺ وأمته، وقد بقي من هذه البشارات -كما تقدم- الشيء الكثير مع تحريفهم لكتبهم.

وقد عدّ منها رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحقّ) ثماني عشرة بشارة، منها إحدى عشرة بشارة في العهد القديم، وسبع بشارات في العهد الجديد.

فهذه بعضها إضافة ما سبق: ورد في سفر التثنية (١٨/١٧): "قال لي الربّ: قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون: أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي فيكلهم بكل ما أوصيه به، ويكون: أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه".

وقد تقدم هذا النص فيما سبق، ولا بأس من زيادة بعض الإيضاح فيه، ولا شك: أن هذا النص في النبي محمد ﷺ كما تقدم؛ لأنه قال: "من وسط إخوتهم"، وإخوتهم هو أبناء إسماعيل # لأنه أخو إسحاق # الذي ينتسب إليه بنوا إسرائيل حيث هما ابنا إبراهيم الخليل # .

وأيضًا قال: "مثلك"، ومعلوم: أن اليهود يرون أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى، حيث نصوا على هذا الأمر في (سفر التثنية) الإصحاح (٣٤) فقرة (١٠): "ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى، الذي عرفه الربّ وجهًا لوجه".

وفي النسخة السامرية من التوراة هكذا: "ولا يقوم أيضًا نبي في إسرائيل مثل موسى الذي ناجاه الله شِفَاهًا". واليهود يزعمون أن هذه البشارة لنبي لم يأت بعهد، وإن زعم بعضهم أن المراد بها يوشع بن نون، فهذا غير صحيح؛ لأنه ليس مثل موسى، ويزعم النصارى أن المراد بها عيسى # وهي في الواقع لا تصدق عليه بوجه؛ لأنه:

أولًا: من بني إسرائيل، وليس من إخوتهم.

ثانيًا: هو ليس مثل موسى # فإنه تابع له، كما أنه عند النصارى إله، وابن إله كما زعموا، فلو أقروا أنه مثل موسى لهدموا ديانتهم، وما هم عليه.

أما النبي محمد ﷺ فتصدق عليه من جميع الوجوه ؛ فإنه من إخوتهم، وهو مثل موسى # نبي رسول، وأتى بشريعة جديدة، وحارب المشركين، كما فعل موسى # .

ثم إنه قال : "أجعل كلامي في فمه"، فهذاكناية عن القرآن المحفوظ في الصدور الذي تلقاه النبي محمد ﷺ مشافهة من جبريل # وحفظه في قلبه، وتلاه من بعد لأمته من فمه ﷺ حيث كان أميًّا لا يقرأ، ولا يكتب ﷺ ثم إن الله -جل وعلا- أتمّ وعده للنبي ﷺ أن الذين لا يطيعونه ؛ فإن الله سيطالبهم، وقد طالبهم، فانتقم من أعدائه المشركين واليهود، ثم ممن عداهم من الأمم.

وهذا لم يكن لنبيٍّ غيره ﷺ، وعيسى # لم ينتقم الله من أعدائه، بل كان أعداؤه في مكان المنتصر، فأرادوا قتله إلاّ أن الله -جل وعلا- أنجاه منهم، وفي زعم النصارى : أنهم قبضوا عليه وأهانوه وصلبوه.

ومن تلك البشارات أيضًا : ما جاء في سفْرِ التثنية (١/٣٣) : "وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم".

فمجيء الربّ من سيناء معناه : إعطاء موسى # التوراة. وقوله : "أشرق من سعير"، التبشير بالمسيح # ؛ لأن (سعير) جبل في أرض يهوذا في فلسطين.

وقوله : "وتلألأ من جبل فاران"، المراد به : التبشير بالنبي محمد ﷺ لأن فاران جبل من جبال مكة، وقد سموه بكتابهم بهذا الاسم، فقالوا عن إسماعيل # في سفر التكوين (٢١/٢١) : "سكن برية فاران، وأخذت له أمه امرأةً من أرض مصر" وإسماعيل # لم يسكن إلا مكة.

ومن البشارات أيضًا: ما جاء في سفر حُجَى، وهو أحدُ أنبيائِهِم، من العهد القديم (٧/٢) أن حَجَاي أخبر بني إسرائيل بعد تدمير الهيكل، وسبيهم إلى بابل، وعودتهم مرة أخرى بما قال الله له معزيًّا لهم: "لأنه هكذا قال رب الجنود: هي مرةٌ بعد قليل، فأزلزل السماوات، والأرض، والبحر، واليابسة، وأزلزل كل الأمم، ويأتي مشتهي كل الأمم، فأملأ هذا البيت مجدًا. يقول ربّ الجنود: مجد هذا البيت الأخير، يكون أعظم من مجد الأول. قال رب الجنود: وفي هذا المكان أعطي السلام، يقول رب الجنود".

فقوله هنا: "مشتهى كل الأمم"، ترجمة بالمعنى لكلمة "حمدًا" بالعبري، كما يقول البروفيسور عبد الأحد داود، والتي لا زالت مكتوبةً بالعبري بهذا اللفظ، والتي تعني المشتهى، والشهية، والشائق، وأن هذه الكلمة "حمدًا" بالعبري، يوازيها بالعربي: (أحمد)، فتكون نصًّا صريحًا.

وكذلك قوله بعد: "وفي هذا المكان أعطي السلام" والسلام والإسلام شيء واحد، وقد جاء السلام إلى بيتِ المقدسِ برحلةِ النبي ﷺ إليه في الإسراء، ثم بفتحه في عهد عمر > .

ثم إن ما تعلق بعد ذلك من الأحداث بمجيء "حمدًا" لا تنطبق إلا على نبي الإسلام محمد ﷺ فبعد خراب بيت المقدس ما عاد له المجد أعظم مما كان إلاّ على يدِ المسلمين، وما أحدثه الإسلام في الأرض بأن زلزل الدول، وأهلك الله -جلا وعلا- بالمسلمين أهل الذهب القياصرة، وأهل الفضة الفرس، وصارت أموالهم تُنْفَقُ في سبيل الله، كل هذا لم يفعله أحد من اليهود، ولم يفعله المسيح # ولم يتحقق إلا على يد نبي الإسلام محمد ﷺ وأصحابه { .

ومن البشارات أيضًا: ما ورد في "إنجيل يوحنا" (٧/١٦): "لكني أقول لكم الحقّ أنه من الخير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إن ذهبت

أرسله لكم، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية، وعلى برّ، وعلى دينونة.."، ثم قال: "إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحقّ، فهو يرشدِكُم إلى جميع الحقّ؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني؛ لأنه يأخذ مما لي ويخبركم".

فقوله: "المُعَزِّي" المراد به: الذي أجد به عزاء، وهذا لا ينطبق إلاّ على النبي ﷺ حيث هو الذي يجد عيسى # به العزاء؛ لأنه يبين الحقّ فيه، ويظهر الله على يديه الدين الذي لم يتمكن المسيح # من إظهاره، ثم إن الذي ذُكِرَ مكان هذه اللفظة، وهي (المعزى) في الترجمات الأخرى هي لفظة (الفارقليط)، وقد بدَّلَه المترجمون في النسخ العربية إلى (المُعَزِّي)؛ لأن معنى (الفارقليط) هو (المُعَزِّي)، ولكن الذي بينه الشيخ رحمة الله الهندي، وغيره أن "الفارقليط" هو تحريف لكلمة (بيركليت) التي تعنى (محمد، أو أحمد).

ولحسد النصارى، وبغيهم حرَّفُوا هذه الكلمة التي هي نصٌّ في اسمِ النبي محمد ﷺ في لغةِ اليونَانِ، مع العلم: أن النص اليوناني لإنجيل يوحنا أقلُّ ما يقال فيه: إنه ترجمة لما نطق به المسيح؛ لأن المسيح # كان لا يتكلم الآرامية، وليس اليونانية، كما أن الواقع أن (المعزي) لا ينطبق إلاّ على النبي محمد ﷺ لأنه لا معزى بعد المسيح إلاّ النبي محمد ﷺ.

وبهذا يتضح: أن الله أقام الحجة على اليهود والنصارى بما بين أيديهم، ويقرءونه، ويرونه لو كانوا يبصرون.

شواهد عبر التاريخ تثبت نبوة محمد ﷺ

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول :	أخبار قبل البعثة تثبت نبوةَ محمد ﷺ	٢٧
العنـــصر الثـــاني :	قصة إسلام سلمان الفارسي الباحث عن الحق <	٣٣

أخبار قبل البعثة تثبت نبوةَ محمد ﷺ

فمن الدلائل أيضًا المثبتةِ نبوةَ محمد ﷺ ما جاء من الشواهد عبر التاريخ، من شخصيات مختلفة أخبر بذلك من عاصرهم.

ولقد كانت هذه البشارات منتشرةً قبل البعثة النبوية، فلم يكُن أهل الكتاب يكتمونها في ذلك الوقت، بل كانوا يذيعونها، ويزعمون أنهم سيتابعون صاحبها عندما يُبعث، وقد حفظ لنا المسلمون بعض هذه البشارات، ونقل لنا الأنصار من أهل المدينة أحاديث اليهود قبل البعثة عن هذه البشارات، وقد تعرف بعض أهل الكتاب على الرسول ﷺ في صغرِهِ، وانتفع بعض أهل الكتاب بهذه البشارات وآمنوا.

خبر ابن الهيبان: ومما حفظته لنا كتب السنة عن علماء اليهود قبل الإسلام: أن رجلًا من اليهود كان يدعى ابن الهيبان، قدم المدينة، ونزل في يهود بني قريظة قبل الإسلام بسنين، قال راوي القصة: ما رأينا رجلًا قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا إذا قحط عنا المطر، قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسقِ لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين مخرجِكُم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعًا من تمر، أو مُدّين من شعير، قال: فنخرجها ثمَّ يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا، فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي، وقد فعل ذلك غير مرة، ولا مرتين، ولا ثلاثًا.

قال: ثُمَّ حضرته الوفاة عندنا، فلمّا عرف أنّه ميت قال: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: الله أعلم.

قال: فإني إنّما قدمت هذه البلدة أتوكف خروجَ نبيٍّ قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن يبعثه الله، وقد أظلّكم زمانُه، فلا تسبقنَّ إليه يا معشر يهود، فإنّه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري، فيمن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه، وقد انتفع بوصيةِ ابن الهيبان مجموعةٌ من شباب يهود بني قريظة، وهم ثعلبة بن سعيد، وأسيد بن سعيه، وأسد بن عبيد، فإنّ الرسول ﷺ -لما حاصر بني قريظة- قال: هؤلاء الفتية، وكانوا شبابًا أحداثًا: يا بني قريظة، والله إنّه للنبي الذي عهد إليكم ابن الهيبان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى، إنّه لهو صفتُه، فنزلوا، فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم ورحالهم.

خبر عبد الله بن سلام: وقد كان عبد الله بن سلام سيد اليهود وأعلمهم وابن سيدهم وأعلمهم، قال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف له، "نتوكف: أي: ننتظر" فكنت بقباء مسرًّا صامتًا عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلمّا قدم نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأسِ نخلةٍ لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت، قال: قلت له: أي عمّة، والله هو أخو موسى بن عمران، وعلى دينِهِ بُعث بما بعثَ به. قال: فقالت: يا ابن أخي أهو الذي كنّا نخبر أنّه يبعث مع الساعة؟ قال: قلت: نعم، قالت: فذاك إذًا.

وقد ذكر البخاري قصة مجيء عبد الله بن سلام إلى الرسول ﷺ وإسلامه، وطلبه من الرسول ﷺ أن يرسل إلى اليهود ويسألهم عنه بل أن يعلموا بإسلامه، فلما جاءوا قال لهم الرسول ﷺ: ((يا معشر يهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنّكم لتعلمون أنّي رسول الله حقًّا، وأنّي جئتكم بحقٍّ، فأسلموا.

قالوا: ما نعلمه، قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرات قال: فأيُّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم، قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، سألهم ذلك ثلاثًا، ويرددون عليه بالجواب نفسه قال: يا ابن سلام، اخرج عليهم، فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو، إنّكم لتعلمون أنّه رسول الله، وأنّه جاء بحق. فقالوا: كذبت. فأخرجهم رسول الله ﷺ)).

شهادة غلام يهودي: وروى أنس بن مالك: أنَّ غلامًا يهوديًّا كان يخدم النبيَّ ﷺ فمرض، فأتاه رسول الله ﷺ يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراةَ، فقال له رسول الله ﷺ: ((يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي؟ قال: لا. قال الفتى: بلى والله يا رسول الله، إنّا لنجد في التوراة نعتك ومخرجك، وإنّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله)) رواه البيهقي بإسناد صحيح.

فراسة راهب: وقد تَعرَّف على الرسول ﷺ أحد الرهبان وهو صغير، عندما كان في تجارةٍ مع عمّه أبي طالب إلى الشام، روى أبو موسى قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبيُّ ﷺ في أشياخٍ من قريش، فلمّا أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلّوا رحالهم، فخرجَ إليهم، وكانوا قبل ذلك يمرُّون به فلا يخرج إليهم، قال: فهم يحلّون رحالهم، فجعل يتخلَّلهم الراهب، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال: هذا سيّد العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: ما علمُك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبقَ شجرٌ ولا حجر إلاّ خرّ ساجدًا، ولا يسجدان إلاّ لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروفِ كتفه مثل التفاحة، ثمَّ رجع فصنَعَ لهم طعامًا، فلمّا أتاهم به، وكان هو في رعيةِ الإبل، فقال: أرسلوا إليه، فأقبل عليه

غمامة تظلّه، فلما دنا القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلمّا جلس مال في فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

معرفة علماء اليهود بموعد خروج النبي ﷺ: عندما اقترب موعدُ خروج المصطفى ﷺ علم أهل الكتاب بذلك بأماراتٍ كانت عندهم، فقد روى أبو زرعة بإسنادٍ صحيحٍ عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة: أن الرسول ﷺ التقى بزيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثةِ، وكان مِمَّا أُخْبِر به زيد الرسول ﷺ أنه رحل في طلبِ الدينِ الحق -دين التوحيد- فقال له حبرٌ في الشام: إنك لتسأل عن دينٍ ما نعلم عليه أحدًا يعبد الله به إلاّ شيخًا بالجزيرة. قال فخرجت: فقدمت عليه، فأخبرته بالذي خرجت له، فقال: إن كلّ من رأيت في ضلالة، ممنّ أنت؟ قلت: أنا من أهل بيت الله، ومن أهل الشوك والقرظ. فقال: إنه قد خرج في بلدك نبيّ، أو خارج، قد خرج نجمه، فارجع فصدقه واتبعه، فرجعتُ فلم أحسّ شيئًا بعد.

كان زيد يحدّث بهذا الرسول ﷺ قبل بعثته، ولم يكن يعلم أنَّ الذي يحدثه هو الرسول ﷺ الذي ظهر نَجْمُهُ، ومات زيد قبل البعثة بسنوات. وقد سبق ذكر خبر ابن الهيبان، الذي خرج من الشام إلى المدينة، فقد قال لليهود عندما حضرته الوفاة: "إنّما أخرجني توقع خروج نبيّ قد أظلّ زمانه، هذه البلاد مهاجره".

وفي (صحيح البخاري): ((كان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل سُقُفًا على نصارى الشام، يحدِّثُ أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يومًا خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزّاءً ينظرُ في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيتُ الليلة حين نظرت في النجوم ملكَ الختانِ قد ظهر)) وقال هرقل في آخر كلامه: ((هذا ملك هذه الأمة قد ظهر)) يعني العرب.

ومن الأخبار أيضًا: أنه وفي ليلة مولده ﷺ قام يهودي على أطمة بيثرب، يصرخ بأعلى صوته: يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلك، مالك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به. رواه ابن إسحاق بسندٍ صحيحٍ.

استفتاح اليهود على أهل المدينة بالنبي ﷺ:

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام -مع رحمة الله تعالى وهداه لنا- لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهلَ شركٍ أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعضَ ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارَبَ زمان نبيٍّ يبعث الآن؛ نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وروى ابن إسحاق عن سلمة بن سلامة بن وقش -وكان من أهل بدر- قال: كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يومًا من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل.

قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سنًّا، عليّ فروة لي مضجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث، والحساب والميزان، والجنة والنار. قال: فقال ذلك لقومٍ أهلِ شرك، أصحاب أوثان لا يرون أن بعثًا كائنًا بعد الموت. فقالوا له:

ويحك يا فلان! أو ترى هذا كائنًا؛ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟! قال: نعم؛ والذي يُحْلَف به، ويودّ أن له بحظّه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه، ثم يدخلونه إيَّاه فيقدمونه عليه، وأن ينجو من تلك النار غدًا.

قالوا له: ويحك يا فلان! فما آيةُ ذلك؟

قال: نبي مبعوثٌ من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو (مكة) واليمن.

قالوا: ومتى تراه؟

قال: فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سنًّا، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فوالله؛ ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدًا رسول الله ﷺ وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغيًا وحسدًا.

قال: فقلنا له: ويحك يا فلان! ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟

قال: بلى، ولكن ليس به!

رواه أحمد عن يعقوب عن أبيه عن إسحاق. ورواه البيهقي عن الحاكم بإسناده من طريق يونس بن بكير.

وروى أبو نعيم في (الدلائل) عن محمد بن سلمة قال: لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهوديٌّ واحد يقال له: يوشع، فسمعته يقول وإني لغلام في إزار: قد أظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت -ثم أشار بيده إلى بيت الله- فمن أدركه فليصدقه. فبُعث رسول الله ﷺ فأسلمنا، وهو بين أظهرنا لم يسلم حسدًا وبغيًّا.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة عن شيخٍ من بني قريظة قال لي: هل تدري عمَّ كان إسلام ثعلبة بن سعبة، وأسيد بن سعيد، وأسد بن

عبيد؟ - نفر من بني هدل إخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتِهم، ثم كانوا ساداتهم في الإسلام، قال: فقلت: لا والله. قال: فإن رجلًا من اليهود، من أرض الشام يقال له: ابن الهيبان قَدِمَ علينا قبل الإسلام بسنين، فحَلَّ بين أظهرنا، لا والله؛ ما رأينا رجلًا قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحَّطَ عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان! فاستسقِ لنا. إلى آخر الخبر الذي ذكرناه آنفًا.

قصة إسلام سلمان الفارسي الباحث عن الحق >

وقد ذكر ابن إسحاق - رحمه الله إسلام الفارسي > من حديث عبد الله بن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي - من فِيهِ - قال: كُنْتُ رَجُلًا فارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا: "جَيٌّ" وكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ، وكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ. وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ الَّذِي يُوقِدُهَا لَا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً.

قَالَ: وَكَانَتْ لأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ، فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانٍ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَاذْهَبْ فَاطَّلِعْهَا وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ، ثم قال لي: ولا تحتبس عني؛ فإنك إن احتسبت عني كنتَ أهمَّ إليّ من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ، وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ، دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَنِي صَلَاتُهُمْ، وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، وَقُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْ الدِّينِ الَّذِي

نَحْنُ عَلَيْهِ. فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي فَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: بِالشَّامِ. فَرَجَعْتُ إِلَى أَبِي، وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي وَشَغَلْتُهُ عَنْ أَمْرِهِ كُلِّهِ. فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! أَيْنَ كُنْتَ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتِ مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللَّهِ؛ مَازِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ.

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ.

قَالَ: قُلْتُ: كَلَّا وَاللَّهِ؛ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا.

قَالَ: فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رِجْلَيَّ قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ.

قَالَ: وَبَعَثَتْ إِلَيَّ النَّصَارَى. فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنْ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنْ النَّصَارَى، فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ، قَالَ: فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنْ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنْ النَّصَارَى، فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ، وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَآذِنُونِي بِهِمْ.

قَالَ: فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ عِلْمًا؟ قَالُوا: الْأَسْقُفُّ فِي الْكَنِيسَةِ.

قَالَ: فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ له: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ. وأَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ، وَأُصَلِّي مَعَكَ، قَالَ: ادْخُلْ.

فَدَخَلْتُ مَعَهُ، قَالَ: فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ؛ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا؛ فَإِذَا جَمَعُوا إليه مِنْهَا أَشْيَاءَ كَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ.

قَالَ: وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ. ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعَتْ إليه النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا، فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا كَنَزَهَا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا.

قَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ، قَالُوا: فَدُلَّنَا. قَالَ: فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، قَالَ فَاسْتَخْرَجُوا سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا، قَالَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَصَلَبُوهُ، ورَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ.

وجَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَوَضَعُوهُ مَكَانَ. قَالَ سَلْمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لَا يُصَلِّي الْخَمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَدْأَبُ لَيْلًا وَنَهَارًا (مِنْهُ).

قَالَ: فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّ شيئًا قَبْلَهُ مِثْلَهُ.

قَالَ: فَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا، ثُمَّحَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي قَدْ كُنْتُ مَعَكَ وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ شيئًا قَبْلَكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تعالى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وبِمَ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ أَحَدًا عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا، وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ؛ إِلَّا رَجُلًا بِـ"الْمَوْصِلِ"، وَهُوَ فُلَانٌ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقْ بِهِ.

قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ "الْمَوْصِلِ"، فَقُلْتُ: يَا فُلَانُ! إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ. فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي.

فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ، وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ اللَّهِ مَا تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَبِمَ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: يَا

بُنيَّ! واللَّهِ؛ مَا أَعلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا بِـ"نَصِيبِينَ"، وَهُوَ فُلَانٌ، فَالْحَقْ بِهِ.

فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ "نَصِيبِينَ" فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي. فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَيْهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللَّهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وبِمَ تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: يَا بُنَيَّ! وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا بِـ(عَمُّورِيَّةَ) فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فائتِهِ؛ فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا.

قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ "عَمُّورِيَّةَ"، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ عِنْدَ خير رجلٍ على هدي أَصْحَابِهِ.

قَالَ: وَاكْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ.

قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ! إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ فَأَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَبِمَ تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللَّهِ؛ مَا أَعْلَمُ أَصْبَحَ أحدٌ عَلَى مثل مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ. مُهَاجِره إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَى: يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ. فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ، فَافْعَلْ.

قَالَ: ثُمَّ مَاتَ، وَغيَّبَ، ومكَثْتُ بِـ"عَمُّورِيَّةَ" مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَمْكُثَ.

ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّار، فَقُلْتُ لَهُمْ: احمِلُونِي إلى أَرْضِ الْعَرَبِ، وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وغُنَيْمَتِي هَذِهِ. قَالُوا: نَعَمْ، فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا، وَحَمَلُونِي معهم، حَتَّى إِذَا بلغوا وَادِي الْقُرَى ظَلَمُونِي؛ فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُود عَبْدًا فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخلَ، فَرَجَوْتُ أَنْ يكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي وَلَمْ يَحِقْ فِي نَفْسِي.

فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاحْتَمَلَنِي إلى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ؛ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا، فَعرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي لها، فَأَقَمْتُ بِهَا.

وَبُعِثَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَقَامَ بِـ"مكة" مَا أَقَامَ، لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إلى الْمَدِينَةِ.

فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تحتي، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يا فُلَانُ قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللَّهِ؛ إِنَّهُمْ لَمُجْتَمِعُونَ الْآنَ بِـ(قُبَاءَ) عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ مِنْ (مَكَّةَ) الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الرِّعْدَةُ، حَتَّى ظَنَنْتُ ساقِطٌ عَلَى سَيِّدِي، فَنَزَلْتُ عَنْ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ: ذَلِكَ مَاذَا تَقُولُ؟ مَاذَا تَقُولُ؟

قَالَ: فَغَضِبَ سَيِّدِي، فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ وَلِهَذَا؟! أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ. قَالَ: فقُلْتُ: لَا شَيْءَ؛ إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَ عَمَّا قَالَ.

قَالَ: وكَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِـ(قُبَاءَ)، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ،

وَمَعكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ.

قَالَ: فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كلوا، وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ)).

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُه فَقُلْتُ له: إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا. قَالَ: ((فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا معَهُ)). قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَاتَانِ اثْنَتَانِ.

قال: ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِـ(بَقِيعِ الْغَرْقَدِ) قَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ، وعَلَيْهِ شَمْلَتَانِ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدَبَرْتُه أَنْظُرُ إلى ظَهْرِهِ؛ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي؟ فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَدبَرْتُهُ؛ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي، فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إلى الْخَاتَمِ، فَعَرَفْتُهُ فَاكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُه وَأَبْكِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((تَحَوَّلْ))، فَتَحَوَّلْتُ بين يديه، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ. ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (بَدْرٌ) وَ(أُحُدٌ).

قَالَ سلمان: ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ!)).

فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلَاثِ مِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ، وَأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: ((أَعِينُوا أَخَاكُمْ)). فَأَعَانُونِي فِي النَّخْلِ: الرَّجُلُ بِثَلَاثِينَ وَدِيةً، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ ودية، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ ودية، وَالرَّجُلُ بِعَشْرَةٍ، يعين الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُمِائَةِ وَدِيَّةٍ، فَقَالَ لِي

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ! فَفَقِّرْ لَهَا ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي ، أَكُنْ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ)).

قال : فَفَقَّرْتُ ، وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي ، حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعِي إِلَيْهَا ، فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الْوَدِيَّ ، وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ، حتى إذا فرغنا ، فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ ؛ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ.

فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ المعادن ، فَقَالَ : ((مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ؟)). قَالَ : فَدُعِيتُ لَهُ ، قَالَ : ((خُذْ هَذِهِ ؛ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ)).

فَقُلْتُ : وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ مِمَّا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : ((خُذْهَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ)).

قَالَ : فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا -وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ- أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً ، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ. وَعُتِقَ سلمان. فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ "الْخَنْدَقَ" ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ.

وروى البخاري في (صحيحه) من حديث أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي :

أنه تداوله بضعة عشر ؛ من ربّ إلى ربّ. أي : من معلم إلى معلم ، ومُرَبّ إلى مثله.

عالمية رسالة محمد ﷺ وختم النبوة به

عناصر الدرس

العنصر الأول : عموم بعثة محمد ﷺ وعالمية دعوته ٤٣
العنصر الثاني : إقامة الأدلة على أن محمدًا ﷺ خاتم المرسلين ٥٠
العنصر الثالث : حكم من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ ٥٤

عموم بعثة محمد ﷺ وعالمية دعوته

فمن الأمور المعلومة من دين الإسلام بالضرورة عموم رسالة خاتم النبيّين محمدٍ ﷺ الذي أرسله الله مبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وقد شملت بعثته أهل الكتاب: اليهود والنصارى، وغيرهم من أهل الملل، وسائرَ الأمم من العرب والعجم جميعًا من الفرس والروم، والترك والهند والصين، والبربر، والحبشة والناس أجمعين، بل كل الثقلين من الجنِّ والإنس.

وهذا من الأمور الظاهرة في الشريعة الإسلامية، وقد تواترت بها نصوص الكتاب والسنة، واتفقت عليها كلمة هذه الأمة.

قال محمد الطاهر بن عاشور في (مقاصد الشريعة الإسلامية): "معلوم بالضرورة من الدين أن شريعة الإسلام جاءت شريعةً عامةً داعيةً جميع البشر إلى اتباعها؛ لأنها لما كانت خاتمة الشرائع، استلزم ذلك عمومها لا محالة سائر أقطار المعمور، وفي سائر أزمنة هذا العالم. والأدلة على ذلك كثيرة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة؛ بحيث بلغت مبلغ التواتر المعنوي". انتهى كلامه.

ومن النصوص الدالة على ذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

قال ابن جرير في تفسيره: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرسل، مرسلًا إلى بعض الناس دون بعض، فمن كان منهم

أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم. وقـــال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

قال ابن عطية في (التحرير والتنوير): هذا إعلامٌ من اللهِ تعالى بأنه بعث محمدًا ﷺ إلى جميع العالم، والكافَّة: الجمع الأكمل من الناس، وكافةً: نصب على الحال، وقدمها للاهتمام، وهذه إحدى الخصال التي خصَّ بها محمد ﷺ من بين الأنبياء".

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. قال ابن كثير في تفسيره: يخبر تعالى أن الله جعل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمةً لهم كلهم، فمن قَبِلَ الرحمة وشكر هذه النعمة سُعِدَ في الدنيا والآخرة، ومن ردَّها وجحدها خسر الدنيا والآخرة. وقال سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

قال ابن عطية في (التحرير والتنوير) قوله: ﴿ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ عام في كل إنسيّ وجنيّ، عاصره أو جاء بعده، وهو متأيِّد من غير ما موضع من الحديث المتواتر، وظاهر الآيات".

ومن الأحاديث الواردة في هذا المعنى ما رواه البخاري ومسلم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((أُعْطِيتُ خمسًا لم يعطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا؛ فأيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فلْيُصلِّ، وأحلت لي المغانم، ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيتُ الشفاعَة، وكان النبي يبعث إلى قومِهِ خاصة، وبعثت إلى الناس عامة)). وفي رواية لمسلم: ((وأرسلت إلى الخَلْقِ كافَّة)). قال ابن رجب في (فتح الباري): وقوله: ((إلَى الخَلْقِ كَافَّة)) يدخل فيه الجنّ بلا ريب".

ويؤيد ما قاله قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ٢،١] وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٩: ٣١] وظاهر هذه النصوص صريح في كون النبي ﷺ أرسل إلى الجن والإنس معًا.

قال ابن القيم في (طريق الهجرتين): "فأما شريعتُنا فأجمع المسلمون على أن محمدًا ﷺ بعث إلى الجن والإنس، وأنه يجب على الجن طاعته، كما يجب على الإنس".

والجنُّ ليس فيهم أنبياء ولا رسل كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وأما قوله ﷻ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: أحدهما.

قال ابن القيم في (طريق الهجرتين): "وذهب شُذّاذٌ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء. وهذا قولٌ شاذٌّ لا يلتفتُ إليه، ولا يعرف بِهِ سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام".

وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: ((والذي نفس محمدٍ بيدِهِ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحابِ النَّارِ)).

ومصداقه في كتاب الله تعالى وهو قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١] وقوله:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧].

قال ابن كثير في تفسيره: "قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت هاهنا للتأكيد والحثّ على أتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم، ونعته، واسمه وأمره، وأمته فحذرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرَهُم أن يذكروا نعمةَ اللهِ عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحمِلُهُم ذلك الحسد على مخالفتِهِ، وتكذيبِهِ والحيد عن موافقته -صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين".

قال النووي في (شرح صحيح مسلم): وقوله ﷺ: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة)) أي: ممن هو موجودٌ في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعتِهِ، وإنما ذكر اليهودي والنصراني؛ تنبيهًا على من سواهما؛ وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب؛ فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا، فغيرهُم ممن لا كتاب لهم أولى. والله أعلم".

ومن قال بخروج نوح عن هذا العموم لا يقوم ما استدل به بمعارضة هذا النصّ الصريح، الدالّ على اختصاص رسول الله ﷺ بهذه الأمور المذكورة؛ لاحتمال أنه لم يكن في الأرض عند إرسال نوحٍ ﷺ إلَّا قومُهُ، فبعثته خاصة لكونها إلى قومِهِ فقط، وهي عامة في الصورة لعدم وجود غيرهم، ويؤيّد هذا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: ١] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤] فدلَّت الآيات المذكورة: أن

رسالته كانت إلى قومه، وليس لغيرهم ذكر في سياق ما ذُكِرَ في القرآن من خبرِ نوح مع قومه.

ومن زعم من اليهود والنصارى أن رسالة محمد ﷺ خاصةً بالعرب فقط، أو بمن ليس له كتابٌ، فحجتهم باطلة، ودعواهم داحضة عاطلة. والنصوص السالفة الذكر واضحة صريحة لا تقبل التأويل، وغيرها كثير مما ورد في دعوة أهل الكتاب خاصة إلى الإسلام، والدخول في عموم طاعة نبينا محمد ﷺ وذلك لا يكاد يحصى كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧].

وقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥] وقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩]، وقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]. ورسائله ووفوده ﷺ إلى ملوكهم، ودعوتهم إلى الإسلام متواترة معلومة.

وقد حكم الله في القرآن بكفر من لم يسلم منهم، وأوجب علينا جهادهم، حتى يسلموا، أو يعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهو صاغرونَ؛ فإن هم أقروا بجزء البعثة، وأنه نبي كيفما كان لزمهم الإقرارُ بكلها، وأن ما أخبر عن الله حق؛ لأن إقرارهم الجزئي متضمن للإقرار بصدقها، وأنها من عند الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الجواب الصحيح) في جواب من قال من أهل الكتاب: إن محمدًا رسول أرسل إلى عرب الجاهلية دون أهل الكتاب، قال: إنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله، وبالنقل المتواتر الذي هو أعظم تواترًا مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما، وبالقرآن المتواتر عنه، وسنته المتواترة عنه، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، أنه ﷺ ذكر أنه أرسل إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى، كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين رسولًا، بعد ذكر أنه أُرسل إلى جميع بني آدم: عربهم وعجمهم من الروم، والفرس، والترك، والهند، والبربر، والحبشة، وسائر الأمم، بل إنه أرسل إلى الثَّقلين الجن والإنس، وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه، التي اتفق على نقلها عنه أصحابه -مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم.

وقد صحبه عشرات ألوف لا يحصي عددهم على الحقيقة إلا الله تعالى، ونقل ذلك عنهم التابعون، وهم أضعاف الصحابة عددًا، ثم ذلك منقول قرنًا بعد قرن إلى زمانِنا مع كثرة المسلمين، وانتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها، كما أخبر بذلك قبل أن يكون، فقال في الحديث الصحيح: ((زُوِيَتْ إِلَيّ الأرضُ، فرأيتُ مشارِقَهَا ومَغَارِبِهَا، وسيبلغ مُلك أمتي مَا زُوِيَ لي منها))، وكان ما أخبر، فبلغ ملك أمته طرفي العمارة مشرقًا ومغربًا.

والمقصود: أن محمدًا دَعَا أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به وبمَا جاء به، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم، وهو أخبر عن الله -تبارك

وتعالى- بكُفْرِ من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم، وبأنهم يصلون جهنم، وساءت مصيرًا، وهو الذي أمر بجهادِهِم، ودعاهُم بنفسه ونوابه، وحينئذٍ فقولهم في الكتاب لم يأت إلينا، بل إلى الجاهلية من العرب، سواء أرادوا به أن الله بعثه إلى العرب، ولم يبعثه إلينا، أو أرادوا أنه ادَّعَى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا، فإنه قد علم جميع الطوائف أن محمدًا دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وذكر أن الله أرسله إليهم، وأمرهُ بجهاد من لم يؤمن به منهم، فإذا قيل مع هذا: إنه قال: لم أبعث إلا إلى العرب، كان كذبًا ظاهرًا عليه، سواءٌ صدَّقَهُ الإنسان أو كذَّبه؛ فإن المقصود هنا أنه نفسه دعا جميع أهل الأرض إلى الإيمان به". انتهى كلامه.

هذا بالنسبة لمن بلغته الرسالة كما في الحديث السابق: ((لا يسمع بي أحدٌ من هذه الملة))، مفهومه أن من لم يسمع به لا يشمله ذلك الحكم.

ولهذا قال القرطبي في (المفهم): "وفيه دليلٌ على أن من لم تبلغه دعوة رسول الله ﷺ ولا أمره لا عقاب عليه، ولا مؤاخذة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ومن لم تبلغه دعوة الرسول، ولا معجزته؛ فكأنه لم يُبعث إليهِ رسول.

وحكمهم في الآخرة: أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسَلُ إليهم هناك رسول، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، كما في حديث الأسود بن سَرِيع عند أحمد في (المسند) أن النبي ﷺ قال: ((أربعة يوم القيامة: رجل أصمّ لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة؛ فأما الأصم فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهَرِم فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام، وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في الفترة، فيقول: ربِّ ما أتاني لك

رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار. قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها؛ لكانت عليهم بردًا وسلامًا)).

وقال ابن القيم في كتاب (الروح): "هذا حديث ثابت مشهور مستفيض، صححه جماعة من الحفاظ، ولا نعلم أحدًا من أئمة الحديث طعن فيه، بل رَوَوه في كتبهم، وتلقوه بالقبول، وجعلوه أصلًا من صول الدين، في عذاب القبر ونعيمه، ومساءلة منكر ونكير، وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدي الله، ثم رجوعها إلى القبر". انتهى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا؛ فإنه يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة. وقد زعم بعضهم: أن هذا يخالف دينَ المسلمين؛ فإن الآخرة لا تكليف فيها، وليس كما قال: إنما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار، وإلا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتونون، يقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وذلك في عرصات القيامة يقال: ليتبعْ كلُّ قومٍ ما كانوا يعبدون؛ فدلَّ ذلك على أن المحنة إنما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء، وأما قبل دار الجزاء فامتحان وابتلاء.

إقامة الأدلة على أن محمدًا ﷺ خاتم المرسلين

لقد ختم الله ﷻ النبوة بنبوة محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال رسول الله ﷺ: ((سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ)). رواه أحمد وأبو داود، وروى مسلمٌ بعضه؛ وذلك يستلزمُ ختم المرسلين؛ إذ ختم

الأعمِّ يستلزمُ ختمَ الأخص. ومعنى ختم النبوة بنبوته ﷺ: أنه لا تبدأ نبوةٌ ولا تشرع شريعةٌ بعد نبوتِهِ وشرعتِهِ.

وأما نزول عيسى في آخر الزمان: فلا ينافي ذلك؛ لأن عيسى # إذا نزل إنما يتعبد بشريعة نبينا محمد ﷺ دون شريعته المتقدمة؛ لأنها منسوخةٌ، فلا يُتعبَّد إلا بهذه الشريعة أصولًا وفروعًا، فيكون خليفةً لنبينا ﷺ في شريعتِهِ، وحاكمًا من حُكَّامِ ملَّتِهِ بين أمتِهِ.

فهذا النبي الخاتم للأنبياء ﷺ قد بُعث بخيرِ كتابٍ، وأتم شريعةٍ، وأفضل ملةٍ، وأكمل دين، جاء بشريعة كافية لحاجة الخليقة في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وكمل به عقد النبيين؛ فلا نبي بعده.

وفي (الصحيحين) وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله } عن النبي ﷺ: أنه قال: ((مَثلي ومَثل الأنبياء من بعدي كمثل رجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها؛ إلا موضعُ لبنةٍ، فجعل الناس يدخلون ويعجبون منها، ويقولون: لولا موضع لبنة)). زاد مسلم: ((فجئت فختمْتُ الأنبياء)).

وفي (الصحيحين) أيضًا من حديث أبي هريرة > : أن رسول ﷺ قال: ((إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه، وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)).

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نبيّ)). رواه البخاري ومسلم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ)). رواه مسلم.

وقال ﷺ: ((كانتْ بنو إسرائيل تسوسُهُم الأنبياء، كلما هلك نبي؛ خَلَفَهُ نبي، وإنه لا نبيَّ بعدي، وسيكون خلفاءُ فيكثرون)). رواه البخاري ومسلم.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: "فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمدٍ ﷺ إليهم، ثم من تشريفِهِ لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمَالُ الدين الحنيف له، وقد أخبر الله -تبارك وتعالى- في كتابه ورسوله ﷺ في السُّنَّةِ المتواترة عنه أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادَّعَى هذا المقام بعدَهُ؛ فهو كذابٌ أفاكٌ دجَّالُ ضالٌّ مضل، ولو تخرف وشعبذ، وأتى بأنواع السحر، والطلاسم، والنيرنجيات؛ فكلها محال وضلال عند أولي الألباب.

ما أجرى الله تعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة، والأقوال الباردة ما علم كل ذي لُبٍّ وفهم وحِجًى أنهما كاذبان ضالان -لعنهما الله. وكذلك كل مدعٍ لذلك إلى يوم القيامة، حتى يختموا بالمسيح الدجال؛ فكلُّ واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمورِ ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، وهذا من تمامِ لُطْفِ الله تعالى بخلقِهِ؛ فإنهم بضرورة الواقع -أي: الكذابون- لا يأمرون بمعروفٍ، ولا ينهون عن منكرٍ إلا على سبيلِ الاتِّقاءِ، أو لِمَا لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكونون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]

وهذا بخلاف حال الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فإنهم في غايةِ الصدقِ والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه، ويأمرون به، وينهون عنه، مع ما

يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائمًا مستمرًّا ما دامت الأرض والسماوات". انتهى كلامه.

وليس الناس بحاجة إلى بعثة نبي بعد محمد ﷺ لكمال شريعته ووفائها بحاجة البشرية. وماذا عسى أن يقتضي بعثة نبي جديد بعد محمد ﷺ؟ وإن قيل: إن الأمة قد فسدت؛ فالعمل على إصلاحها يحتاج إلى بعثة نبي جديد.

قلنا: هل بعث نبي في الدنيا لمجرد الإصلاح حتى يبعث في هذا الزمان لمجرد هذا الغرض؟! إن النبي لا يبعث إلا ليوحى إليه، ولا تكون الحاجة إلى الوحي إلا لتبليغ رسالةٍ جديدة، أو إكمال رسالة متقدمة، أو لتطهيرها من شوائب التحريف والتبديل، فلما قضت كل هذه الحاجات إلى الوحي بحفظ القرآن، وسنة محمد ﷺ وإكمال الدين على يده ﷺ لم تبقَ الحاجة الآن إلى الأنبياء، وإنما هي إلى المصلحين.

وقد أعلن الله ختم النبوات والرسالات بنبوة محمد ﷺ في قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.

ومن البديهي الذي لا يقبل الاعتراض أن استمرار بقاءِ القرآن الحاوي بشرائعه وأحكامه أسس مطالب البشر التشريعية كلها محفوظًا، كما أنزل على محمد ﷺ مع استمرارِ بقاء سيرة الرسول ﷺ وسنته المبينة لمعاني القرآن صحيحة ثابتة هو بمثابة استمرار وجود الرسول ﷺ فينا على قيد الحياة قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد وفاته هو الرد إلى سنته.

وبذلك فقد أصبح العالم بغنية عن بعث أنبياء وإرسال رسل، وتجديد شرائع للناس بعد محمد ﷺ لأنه لو بعث الله رسلًا وأنبياء؛ فلن يُحدثوا شيئًا، ولن

يزيدوا على ما جاء به الرسول محمد ﷺ من أسسٍ في العقيدة أو في التشريع ؛ فقد أكمل الله الدينَ وأتمَّ الشريعة ؛ حيث يقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وإن كان الغرض من إرسال الرسل هو نشر هذه الرسالة ودعوة الناس إليها ؛ فهذه وظيفة علماء المسلمين ؛ فعليهم أن يقوموا بتبليغ هذه الدعوة للناس.

حكم من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ

من ادعى عدم ختم النبوة بعد محمد ﷺ أو صدق من يدعي ذلك ؛ فهو مرتدٌّ عن دين الإسلام. ولهذا حكم الصحابة على من ادَّعى النبوة بعد محمد ﷺ بالردة ، وقاتلوه هو وأتباعه ، وسموهم بالمرتدين ، وهذا ما أجمع عليه علماء المسلمين سلفًا وخلفًا.

فمن ادعى النبوة كاذبًا فهو من أكفر خلق الله ، وأظلمهم ، وشرهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥ ﴾ [الزمر ٣٢]، وقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومن كان كذلك كان الله يمقتُه ويبغضُه ، ولا يدوم أمره ، بل هو كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة : ((إن الله يملي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفلته))

ثـم قـرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود ١٠٢]، وقال أيضًا في الحديث الصحيح عن أبي موسى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مثل المؤمن كمثل الخامَةِ من الزرع، تفيؤها الرياح تقيمها تارة، وتميلها أخرى، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز، لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انعجافها مرة واحدة)).

فالكاذب الفاجر وإن عظمت دولته فلا بد من زوالها بالكلية، وبقاء ذمة ولسان السوء له في العالم، وهو يظهر سريعًا، ويزول سريعًا كدولة الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، والحارث الدمشقي، وبابك الخُرَّمِي ونحوهم.

فالكذب أصل للشر، وأعظمه الكذب على الله ﷻ والصدق أصل للخير وأعظمه الصدق على الله -تبارك وتعالى. وفي (الصحيحين) عن عبد الله بن مسعود > عن النبي ﷺ أنه قال: ((عليكم بالصدق؛ فإن الصدقَ يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا)).

ولما كان هذا من أعلى الدرجات، وهذا من أسفل الدركات كان بينهُمَا من الفروق والدلائل والبراهين التي تدل على صدقِ أحدهما، وكذب الآخر ما يظهر لكل من عرف حالهما، ولهذا كانت دلائل الأنبياء، وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة.

من دلائل صدق نبوة محمد ﷺ

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	الفرق بين أدلة صدق الأنبياء، وأكاذيب مدعي النبوة	٥٩
العنصر الثاني	:	شهادة النجاشي وهرقل بنبوة محمد ﷺ	٦١
العنصر الثالث	:	القرآن الكريم أعظم الآيات لإثبات نبوة محمد ﷺ	٦٤

الفرق بين أدلة صدق الأنبياء، وأكاذيب مدعي النبوة

لا ريب أن المعجزات دليلٌ صحيحٌ على النبوة، ووسيلة لإثباتها وتقريرها، لكنَّ الدليل غير محصور فيها، كما قرره أئمة أهل السنة، خلافًا لمن ذهب إلى غير ذلك من أهل الكلام.

فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلَّا على أجهل الجاهلين، بل قرائِنُ أحوالِهِمَا تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرقٌ كثيرة، فيما دون دعوى النبوة؛ فكيف بدعوى النبوة، وما أحسن ما قال حسان < :

لو لم يكن فيه آياتٌ مبينةٌ ❖ كانت بديهتُهُ تأتيكَ بالخَبَرِ

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلاّ وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور، واستحواذ الشيطان عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز؛ فان الرسول ﷺ لا بد أن يُخبر الناس بأمور، ويأمرهم بأمور، ولا بد أن يفعل أمورًا يُبيّن بها صدقه، والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به، ويخبر عنه، وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوهٍ كثيرة، والصادق ضدّه، بل كل شخصين ادَّعَيَا أمرًا، أحدهما: صادق، والآخر: كاذب لا بد أن يظهر صدق هذا، وكذب هذا، ولو بعد مدّة؛ إذ الصدق مستلزمٌ للبر، والكذب مستلزم للفجور.

كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عن الله صديقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عن الله كذابًا))

ولهذا قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٦].

فالكهان ونحوهم وان كانوا أحيانًا يخبرون بشيء من المغيبات، ويكون صدقًا فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن مَلَكٍ، وليسوا بأنبياء؛ ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد: ((قد خبأت لك خبأ فقال: هو الدُّخ، قال له النبي ﷺ: اخسأ؛ فلن تعدوا قدرك)) يعني: إنما أنت كاهن. وقد قال للنبي ﷺ يأتي صادق وكاذب وقال أرى عرشا على الماء وذلك هو عرش الشيطان، وبَيَّنَ أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي الذي يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضرًّا له في العاقبة.

فمن عرف الرسول وصدقه، ووفاءه، ومطابقة قوله لعمله علم علمًا يقينًا أنه ليس بشاعرٍ ولا كاهن.

والناس يميزون بينَ الصادقِ، والكاذبِ بأنواعٍ من الأدلة حتى في المدعي للصناعات، والمقالات كمن يدعي الفلاحةَ والنساجةَ، والكتابة، وعلم النحو والطب، والفقه، وغير ذلك.

والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم، وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب، ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري، كما يعرف الرجل رضا الرجل، وحبه وبغضه، وفرحه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه بأمورٍ تظهر على وجهه، قد لا يمكن التعبير عنها كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾، ثم قال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠].

وقد قيل: ما أسر أحد سريرةً إلا أظهرها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. فإذا كان صدقُ المخبر وكذبه يُعْلَمُ بما يقترن من القرائن، فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله، كيف يخفى صدق هذا من كذبه، وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة؟.

هذا سياقُ ما نتكلم عنه ويتم ذلك من خلال عنصرين.

شهادة النجاشي وهرقل بنبوة محمد ﷺ

ولهذا لما كانت خديجة > تعَلَمُ من النبي ﷺ أنه الصادق البارّ، قال لها لما جاءه الوحي: ((إني قد خشيتُ على نفسي)) فقالت: "كلا، والله لا يخزيك الله؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُقْرِي الضيف، وتكسبُ المعدومَ، وتعينُ على نوائب الحق" فهو لم يَخَفْ من تعمد الكذب؛ فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارضُ سوءٍ، وهو المقام الثاني؛ فذكرت خديجة ما ينفي هذا، وهو ما كان مجبولًا عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيم وقد عُلِمَ من سنة الله أن من جَبَلَه على الأخلاق المحمودة، ونزهه عن الأخلاق المذمومة، فإنه لا يخزيه.

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن، فقرءوا عليه: "إن هذا والذي جاء به موسى # ليخرج من مشكاة واحدة".

وكذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النبي ﷺ بما رآه وكان ورقة قد تنصر، وكان يكتب الإنجيل بالعربية، فقالت له خديجة: "أي عم اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبي ﷺ بما رأى فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى".

وكذلك هرقل ملك الروم؛ فإن النبي ﷺ لما كتب إليه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قد قَدِمَ في طائفةٍ من قريشٍ في تجارةٍ إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبي ﷺ فسأل أبا سفيان، وأمر الباقينَ إن كذبَ أن يُكذبوهُ فصاروا بسكوتهم، موافقين له في الأخبار، سألهم هل كان في آبائه من ملك؟ فقالوا: لا، قال: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فقالوا: لا، وسألهم أهو ذو نسب فيكم؟ فقالوا: نعم. وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا: لا، ما جَرَّبْنَا عليه كذبًا، وسألهم هل اتبعه ضعفاءُ الناس أم أشرافهم؟ فذكروا: أن الضعفاء اتبعوه، وسألهم هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا أنهم يزيدون، وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطةً له بعد أن يدخل فيه؟ فقالوا: لا، وسألهم هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم، وسألهم عن الحرب بينهم وبينه؟ فقالوا: يُدال علينا مرة، وندال عليه أخرى، وسألهم هل يغدر؟ فذكروا: أنه لا يغدر، وسألهم بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبدَ اللهَ وحدَهُ، ولا نشركُ به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة، وهذه أكثر من عشر مسائل.

ثم بَيَّنَ لهم ما في هذه المسائل من الأدلة، فقال: سألتكم هل كان في آبائه من ملك؟ فقلتم: لا، قلت: لو كانَ في آبائه من ملكٍ لقلتُ رجلٌ يطلب ملك أبيه، وسألتكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبله؟ فقلتم: لا، فقلتُ: لو قال هذا القول أحدٌ قبله؛ لقلتُ رجل ائتم بقولٍ قيل قبله، وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلتم: لا، فقلت: قد علمتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله تعالى، وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه، أم أشرافهم؟ فقلتم: ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، يعني: في أول

أمرهم، ثم قال: وسألتكم هل يزيدون، أم ينقصون؟، فقلتم: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتكم هل يرتدّ أحد منهم عن دينِهِ سخطةً له بعد أن يدخل فيه؟ فقلتم: لا، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه؟ فقلتم: إنها دول، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها، قال: وسألتكم هل يغدر؟ فقلتم: لا، وكذلك الرسل لا تغدر وهو لما كان عنده من علمِهِ بعادة الرسل، وسنة الله فيهم أنه تارةً ينصرهم وتارة يبتليهم، وأنهم لا يغدرون؛ علم أن هذه علامات الرسل، وأن سنةَ الله في الأنبياء، والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء، والضراء؛ لينالوا درجةَ الشكرِ والصبر.

كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((والذي نفسي بيده؛ لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلَّا كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراءُ شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر؛ فكان خيرًا له)). والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته في خلقه وحكمته التي بهرت العقول.

قال: وسألتكم عما يأمر به؟ فذكرتم: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، وهذه صفة نبي، وقد كنت أعلم أن نبيًّا يبعَثُ، ولم أكن أظنُّهُ مِنْكُم، ولوددت أني أخْلُص إليه، ولولا ما أنا فيه من المُلْكِ؛ لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وكان المخاطَبُ بذلك أبو سفيان بن

حرب، وهو حينئذٍ كافرٌ من أشدِّ الناس بغضًا، وعداوةً للنبي ﷺ قال أبو سفيان بن حرب: فقلت لأصحابي، ونحن خروج: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنه ليعظمه ملك بني الأصفر، وما زلت موقنًا بأن أمر النبي ﷺ سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلامِ وأنا كارِه.

ومما ينبغي أن يُعْرَف أن ما يحصل في القلب بمجموع أمور قد لا يستقِلُّ بعضها به، بل ما يحصل للإنسان من شبعٍ وريٍّ وشكر وفرحٍ وغمٍّ فأمور مجتمعة لا يحصل بعضها، لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر.

وكذلك العلم بخبر من الأخبار؛ فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن ثم الآخر يقويه إلى أن ينتهي إلى العلم حتى يتزايد ويقوى، وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك.

القرآن الكريم أعظم الآيات لإثبات نبوة محمد ﷺ

اعلم: أن أعظم الآيات التي أعطيها رسولنا ﷺ بل أعظم آياتِ الرسل كلّهم القرآن الكريم، والكتاب المبين، وهو آيةٌ تُخاطب النفوسَ والعقول، آيةٌ باقيةٌ دائمةٌ إلى يوم الدين، لا يطرأ عليها التغيير ولا التبديل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

لقد جعل الله تعالى لكل نبي معجزته مناسبة لحال قومه؛ فلما كان السحر فاشيًا في قوم فرعون؛ جاء موسى بالعَصَا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا، فاحتاروا، وعجبوا من أمرها وعلموا أن ما جاء به موسى هو الحق وليس

من السحر؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٧- ٤٨] ولم يقع ذلك بعينه لغير موسى # .

ولما كان الزمن الذي نشأ فيه عيسى # قد فَشَا فيه الطِبُّ؛ جاء المسيح بما حَيَّرَ الأطباءَ من إحياء الموتى، وإبراءِ الأكمه، والأبرص من الداء العضال القبيح، وخلق من الطين كهيئة الطير، فنفخ فيه فكان طيرًا بإذن الله، فطاشت عقول الأطباء، وأذعنوا أن ذلك من عند الله ﷻ.

ولما كانت العرب أربابَ الفصاحة والبلاغة، وفرسان الكلام والخطابة؛ جعل الله سبحانه معجزةَ نبينا ﷺ هي القرآن الكريم، الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾، وهي المعجزة الباقية الخالدة على مر العصور.

وقد تحدّى الله بهذا الكتاب فصحاءَ العرب، حيث كانت الفصاحةُ والبلاغةُ، وجودةُ القول هي بضاعة العرب التي نبغت بها، وقد عادى العرب دعوة الإسلام، وصاحب هذه الدعوة، وكان مقتلُ هذه الدعوة أن يعارض فصحاؤهم هذا الكتاب، ويأتوا بشيءٍ من مثله، ولكنهم عجزوا عن ذلك: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣- ٢٤].

شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ نمطًا مخالفًا لمعجزات الرسل، وكان الله قادرًا على أن يجعل معجزاتِ الرسول ﷺ قاصرة على الجانب الحِسِيِّ فقط كسائر إخوته من الأنبياء تُذهل من يراها: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤]. فلو شاء الله تعالى؛ لأنزل من السماء آيةً قاهرةً لا

يملكون معها جدالًا، ولا انصرافًا عن الإيمان، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤] ملوية محنية، حتى لكأنَّ هذه هيئة لهم لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون. ولكنه سبحانه شاء أن يجعل معجزةَ هذه الرسالة الأخيرة آيةً غير قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة، معجزًا في كلِّ ناحية.

معجزًا في بنائه التعبيري، وأسلوبه وسياقه، باستقامتِهِ على خصائصَ واحدة، في مستوًى واحدٍ، لا يختلف، ولا يتفاوت، ولا تتخلف خصائصه، كما هي الحال في أعمال البشر، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عملِ الفرد الواحد، المتغيرِ الحالات، بينما تستقيمُ خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسقٍ واحدٍ، ومستوى واحد، ثابت لا يتخلف، يدلُّ على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال.

معجزًا في بنائه الداخلي، وتناسق أجزائه وتكاملها، فلا فلتة فيه، ولا مصادفة، كل توجيهاتِهِ وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل، وتحيط بالحياة البشرية، وتستوعبها، وتلبيها وتدفعها، دون أن تتعارض جزئيةٌ واحدةٌ من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئيةٍ أخْرَى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية؛ إذ تقصر عن تلبيتها، وكلها مشدودةٌ إلى محورٍ واحَد، في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة، ولا بد أن يكون هناك علم مطلق، غير مقيد بقيد الزمان والمكان، هو الذي أحاط به هذه الإحاطة، ونظمه هذا التنظيم.

معجزًا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، واستجاشته مواضع التأثر، والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في

بساطة ويسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيدٍ ولا التواءٍ ولا مغالطة.

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزةَ هذه الرسالة، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرةً ماديةً تلوي الأعناق، وتخضعها، وتضطرها إلى التسليم، ذلك أنّ هذه الرسالة الأخيرة، رسالة مفتوحة إلى الأمم كلّها، وللأجيال كلها، وليست رسالةً مغلقة على أهل زمانٍ وأهل مكان، فناسب أن تكون معجزتُهَا مفتوحةً كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل، والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى، لا واقعًا يشهد.

فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كتابٌ مفتوح ومنهج مرسوم، يستمدُّ منه أهل هذا الزمان ما يقوِّمُ حياتهم، لو هُدُوا إلى اتخاذه إمامهم، ويلبِّي حاجاتهم كاملة، ويقودهُم بعدها إلى عالم أفضل، وأفق أعلى، ومصير أمثل، وسيجد فيه من بعدنا كثيرًا مما لم نجده نحن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته، ويبقى رصيده لا ينفد، بل يتجدد. وقد أبهتَ طالبي الآيات الحسية ليردهم إليه، فأخرس في نفوسهم الكلامَ بإقامة التوجيه نحو القرآن وحده.

وقد حكى عنهم قولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت ٥٠، ٥١] ولم يكن التحدي من القرآن إلا لمن لم يقبل كونه كلام الله، فحين يكون كلامًا لأحد من البشر يتصور عدم انفراد قائله بمثله، ولم يكن لأحد أبدًا أن يحوز ميزة في كلام لم يبلغه في درجته سابق أو لاحق. وها هو القرآن عبر القرون جميعًا يمد تحديه شامخًا ما نال منه أحد أبدًا.

وقد تحدَّى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور منه، أو بسورة منه؛

فما استطاع أحد منهم منذ بعثة محمد ﷺ إلى عصرنا هذا، وإلى الأبد أن يأتي أحدٌ بكتابٍ مثله، أو بمثلِ سورةٍ منه، على الرغم من وجود أعداء كثيرين للرسول ﷺ ولدين الإسلام في عصور التاريخ.

قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢- ٢٣] فالتحدي لا يزال قائمًا إلى قيام الساعة في قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾. وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وهذا التحدي كان بمكة؛ فإن سورة يونس وهود والطور من المكي، ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة، فقال في سورة البقرة -وهي مدنية-: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾؛ فذكر أمرين:

أحدهما: قوله: ﴿ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾؛ يقول: إذا لم تفعلوا؛ فقد علمتم أنه حق؛ فخافوا الله أن تكذبوه، فيحيق بكم العذاب الذي وعده للمكذبين.

والثاني: قوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾، ولن لنفي المستقبل، فثبت أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله؛ كما أخبر بذلك.

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول في سورة سبحان وهي مكية افتتحها بذكر الإسراء، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر-: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ

وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] أمره أن يخبر بالخبر جميع الخلق؛ معجزًا لهم، قاطعًا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا عليه، وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدّي لجميع الخلق، وقد سمعه كل من سمع القرآن، وعرفهُ الخاصُّ والعام، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه، ولا أتوا بسورةٍ من مثله.

ومن حين بُعِثَ النبي ﷺ إلى اليوم والأمر على ذلك، مع ما علم من أن الخلق كانوا كلهم كفارًا قبل أن يُبعث، ولما بُعث إنما تبعه قليل، وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله، مجتهدين بكل طريقٍ ممكن؛ تارة يذهبون إلى أهل الكتاب، فيسألونهم عن أمور الغيب حتى يسألوه عنها؛ كما سألوه عن قصة يوسف، وأهل الكهف، وذي القرنين، ويجتمعون في مجمع بعد مجمع؛ ليتفقوا على ما يقولونه فيه، وصاروا يضربون له الأمثال، فيشبهونه بمن ليس بمثله مع ظهور الفرق؛ فتارةً يقولون: مجنون، وتارة: ساحر، وكاهن، وشاعر إلى أمثال ذلكَ من الأقوالِ التي يعلمون هم، وغيرهم من كل عاقل يسمعها أنها افتراء عليه.

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة، وهي تبطل دعواهم؛ فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها؛ لفعلوها؛ فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة؛ وجب وجود المقدور، ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض؛ فهذا يوجب علمًا مبينًا لكلِّ أحدٍ بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلةٍ وبغير حيلة. وهذا أبلغ من الآيات التي تكرر جنسها؛ كإحياء الموتى؛ فإن هذا لم يأتِ أحد بنظيره.

فإقدامه ﷺ في أول الأمر على هذا التحدي وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبرًا يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله في ذلك العصر، وفي سائر الأعصار المتأخرة لا يكون إلا مع جزمِهِ بذلك، وتيقنه له، وإلا؛ فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبُهُ، فينفضح فيرجع الناس عن تصديقه، وإذا كان جازمًا بذلك متيقنًا له؛ لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله تعالى له بذلك، وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر، والعلم بهذا يستلزم كونه معجزًا..".

والقرآن الكريم معجزةٌ من وجوه متعددة؛ من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغةِ في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أمر بها، ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وملائكته، وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب المستقبل، وعن الغيب الماضي، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل الكونية الخلقية، والبراهين اليقينية.

ومع كل هذا عاند من عاند، واستهزئوا فقالوا: سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: أساطير الأولين، وما كل هذا إلا من العجز التحير، شأن كل عجيب خارق للعادة. حتى قال الوليد بن المغيرة: حين قال له أبو جهل: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًاليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قِبَلَه -لما عنده من مال- قال الوليد: قد علمت قريش أني أكثرهم مالًا، قال: فقل قولًا يبلغ قومك أنك كارهٌ له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعرِ مِنِّي، ولا برجزه، ولا بقصيدِهِ، ولا بأشعارِ الجنِّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من

هذا، ووالله، إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفلُه، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه، وإنه ليحطم ما تحته.

قال -أي: أبو جهل-: لن يرضى عنك قومُكَ حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، أي: ينقله عن غيره.

وقد كان كفار قريش يتواعدون فيما بينهم ألا يحضروا لسماع القرآن لئلا يتأثروا به لما له من سلطان على النفوس، ولئلا يفتتن بهم الناس فيؤمنوا بهذا القرآن، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [فصلت: ٢٦- ٢٧].

فهذه براهين قاطعة، ودلائل ساطعة على أن الكفار كانوا، وما زالوا يقرون في أنفسهم أنه من عند الله تعالى، ولكن منعهم عنادهم واستكبارهم من الإيمان؛ ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

من وسائل حفظُ الدين إقامة: الإمامة، والخلافة، والجماعة

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول	:	بيان حقيقة: الإمامة، والخلافة، والجماعة	٧٥
العنـــــصر الثـــاني	:	مراعاة الإطلاق الصحيح للفظ الخلافة	٧٧
العنـــــصر الثالـــث	:	بيان حقيقة الجماعة	٧٩

بيان حقيقة: الإمامة، والخلافة، والجماعة

من المقاصد العظمى، بل أعظم المقاصد حفظُ الدين؛ فإنَّه أولى الضروريات الخمس التي يجب مراعاتُهَا وحفظها، وقد نصب الله تعالى وسائل لحفظ الدين، واستقامةِ مصالحِ العباد، ومن أهمِّ هذه الوسائل نصب الإمام والخليفة على الناس، وكانت هذه سنَّةً جاريةً بعد رسول الله ﷺ حيث جرت الخلافةُ بعده في خلفائه الراشدين، فصاروا دليلًا عمليًّا لأصل الإمامة، وتفصيل أحوالها وأحكامها، ليكونوا قدوة يقتدي بهم من بعدهم.

والإسلام قد جاء بنظام كاملٍ شاملٍ للحكم، صالح لكل أمة وحال، ولكل زمان ومكان؛ فالإسلام هو الرسالة الأخيرة، الباقية إلى قيام الساعة، التي لا تصلح الأحوال والأمم إلا بها.

ومن سنن الله ﷻ في خلقه أن جعل أمور الناس لا تستقيمُ إلا بالإمامة والولايةِ والخلافةِ؛ فلا بد من حاكم ومحكوم، وسائس ومسوس: حاكم يرعى مصالح العباد، ويحكمهم بشرع ربّ العباد، ويسير بهم على الطريقةِ التي تحقق العدل، وتستقيم بها الأمور، ومحكوم يمتثّل ما يوجه إليه من أوامر في غير معصية الله ﷻ. وبهذا ضمن الإسلام للناس صلاح معاشهم ومعادهم. وفيما يلي معالم في الإمامة والخلافة.

بيان حقيقة الخلافة:

خلف، وخلفت فلانًا على أهله وماله، خلافة، صرت خليفته، وخلفته جئت بعده، واستخلفته جعلته خليفة، فخليفة يكون بمعنى فاعل، وبمعنى مفعول. وأما الخليفة بمعنى السلطان الأعظم؛ فيجوز أن يكون فاعلًا؛ لأنه خلف من قبله؛ لأنه جاء بعده. ويجوز أن يكون مفعولًا؛ لأن الله تعالى جعله خليفَةً، أو

لأنه جاء به بعد غيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٥] والخلافة: هي النيابة عن الغير. والخليفة السلطان الأعظم.

قال ابن جرير: "والخليفة الفعيلة، من قولك: خلف فلانٌ فلانًا في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال - جلّ ثناؤُهُ -: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] يعني بذلك: أنه أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاء بعدهُم؛ ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة؛ لأنه خَلَفَ الذي كان قبله، فقام بالأمرِ مقامه، فكان منه خلفًا، يقال منه: خلف الخليفة يخلف خليفةً خليفًا". انتهى كلامه.

وقد أخبر النبي ﷺ: أن الخلافة بعده ثلاثون، فقال: ((خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك -أو ملكه- من يشاء)). رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن. وقال الطحاوي: "وحديث سفينة الذي ذكرنا حصر خلافة النبوة بمدة عقلنا بها أن لها أهلًا إلى انقضائها، وهم هؤلاء الأربعة }".

وهذه الخلافة التي اختصَّ بها الخلفاءُ الراشدون الأربعة، هي التي على شاكلة النبوةِ، وهي الخلافةُ المحضة غير المشوبة بالمُلْكِ، وهذا لا يستلزم القدح فيمن بعدهم. وقد يطلق لفظ الخلافة على غيرهم باعتبار المعنى العام لها.

فكان هؤلاء الأربعة الخلفاء الراشدين، والذين نصر الله بهم الدين، وقهر بمكانهم الملحدين، وقوى بمكانهم الإسلام، ورفع في أيامهم للحق الأعلام، ونور بضيائهم ونورهم وبهائهم الظلام، وحقّقَ بخلافتهم وعدهم السابق في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ الآية [النور: ٥٥]. وفي قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]. انتهى كلامه.

بيان حقيقة الإمامة:

وأما الإمامة فمن أَمَّهم وبهم تقدمهم، والإمام: ما ائْتُم به من رئيس وغيره. وقال الفيومي: "والإمام الخليفة، والإمام العالم المقتدى به، والإمام من يؤتم به في الصلاة. ويطلق على الذكر والأنثى..وجمع الإمام: أئمة، والأصل أَأْمِمَة وزان أمثلة، فأدغمت الميم في الميم بعد نقل حركتها إلى الهمزة..وأُتَمّ به اقتدى به. واسم الفاعل مُؤْتَمّ، واسم المفعول مُؤْتَمّ به، فالصلة فارقة". وقال أبو البقاء الكفوي: "والإمامة مصدر أَمَمْت الرجل أي: جعلته أمامي، أي: قُدَّامِي، ثم جعلت عبارة عن رياسة عامة تتضمن حفظ مصالح العباد في الدارين".

وسبق إلى نحو هذا التعريف الجويني فقال: "الإمامة: رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا". وقال الماوردي: "الإمامة موضوعةٌ لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقْدُهَا لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع".

مراعاة الإطلاق الصحيح للفظ الخلافة

وهناك تنبيهٌ لا بد منه، بعدما علمنا أن الخلافةَ والإمامةَ لفظان يعبران عن معنىً واحد، إلا أن إطلاق لفظَ الخلافة ينبغي إجراؤُهُ على المعنى الصحيح الذي يؤدي هذا المقصد، فمِمَّا جاء في القاموس: الخليفة السلطان الأعظم كالخليف، أي: يقال بالتذكير والتأنيث، والخليف والخليفة، والجمع خلائف وخلفاء.

هكذا عرَّفَهُ في القاموس، لكن ابن الأثير نبَّه إلى نكتةٍ بديعة في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر)، فقد ذكر أثرًا يقول: جاءَ أعرابيٌّ فقال لأبي بكر: أنت خليفة رسول الله ﷺ؟ فقال: لا. قال: فما أنت إذا؟ كنت تقول لستَ خليفة

رسول الله ﷺ؟ قال: أنا الخالفة بعده، أي: الذي يأتي بعده، أما أن يكون خليفة فلا، وذلك لأن لفظ الخليفة فيه معنى دقيق، فأبو بكر لم يرض لنفسه أن يقول: إنه خليفة رسول الله ﷺ وإنما قال: أنا الخالفة بعده، أي: جاء من بعده فقط، يوضح ذلك ابن الأثير فيقول: الخليفة من يقوم مقام الذاهب ويسدُّ مسدَّه، والهاء فيه للمبالغة، وجمعه الخلفاء إلى آخره.

فالرسول ﷺ وهو بشرٌ لم يَرْضَ أبو بكر الصديق أن يقول: إنه خليفته؛ لأن معنى الخلافة بهذه اللفظة: أنه ينوب مناب الذي خلف ومضى، وهو الرسول ﷺ ولا يمكن لأبي بكر مهما سما وعلا أن يداني كماله ﷺ.

ومن هنا نعرف بأنه لا ينبغي من باب أولى أن يقال: الإنسان هو خليفة الله في الأرض؛ لأن البون أكبر من أن يذكر بين الخالق والمخلوق، فإذا كان أبو بكر لم يرض أن يقول عن نفسه: إنه خليفة الرسول، فنحن لا نرضى أن نقول: إن الإنسان خليفة الله في الأرض.

وأما قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٦]. فقد جاء في تفسير هذه الآية أو هذه اللفظة بخصوص هذه الآية أقوال للعلماء، أقربُها القول الذي جنح إليه ابن كثير، وهو في ذلك تابع لابن جرير، يقول ابن كثير في تفسير الآية نفسها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: ليس المراد هنا الخليفة آدم # فقط، كما يقول طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى فلانٍ وفلانٍ، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في (تفسيره) وغيره.

والظاهر: أنه لم يرد آدم عينًا، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك إلخ.

ثم قال ابن كثير: قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرنٍ بعد قرن، قال: والخليفة الفعيلة من قولك: خلَفَ فلانٌ فلانًا في هذا الأثر، إذا قام مقامَهُ فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤] ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة؛ لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر، فكان منه خلفًا.

هذا هو معنى الخلافة، فلا ينبغي إطلاق ذلك إلا فيما وضع له من المعاني الصحيحة، لاسيما إذا كان الأمر متعلقا بالله ﷻ فلا يقال: خليفة الله في الأرض؛ لأن الذي يريد أن يخلف غيره يجب أن يكون أقل ما يكون قريبًا منه، فإذا كان أبو بكر أبى أن يقال له ذلك للبون بينه وبين رسول الله ﷺ فما الذي يجب أن يقال بالنسبة للخالق والمخلوق، فالله تبارك تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

وقد أشارت السنة إلى هذه الحقيقة؛ حيث جاء في الحديث الصحيح: ((أن النبي ﷺ كان إذا سافر سفرًا دعا قائلًا: اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل))، وفي رواية: ((في الحضر)). فإذا غاب الرجل عن أهله، فالله تعالى هو أحسن من يخلفه، فله الكمال المطلق في الاستخلاف. وأما العبد العاجز الجاهل، مهما كان قويًّا وعالمًا، فلن يكون خليفة عن الله ﷻ في الأرض، فهذا تعبير بعيد لغةً وشرعًا!!.

بيـــان حقيقـــة الجماعـــة

وأما الجماعة: فيقال: جمعت الشيء جمعًا، وجمَّعته بالتثقيل مبالغة، والجمْعُ أيضًا الجماعة سُمي بالمصدر، ويجمع على جموع، مثل فلْس، وفلوس، والجماعة من كل شيء يطلقعلى القليل والكثير، واجتمع القوم واستجمعوا، بمعنى: تجمعوا، واستجمعت شرائط الإمامة، واجتمعت، بمعنى حصلت، فالفعلان على اللزوم.

وتُطلق الجماعة على الطائفة أو الفرق أو الأمة الذين يرتبطون بمنهج واحد وهدف واحد، ولم يتفرقوا في الاعتقاد والسلوك، وتطلق تسمية أهل السنة والجماعة -وهو المراد- على السلف الصالح من الصحابة، وأتباعهم إلى يوم الدين -كما تقدم- وأطلقها بعضهم على أهل الحديث، ولا ريب أن اقتران اسم أهل السنة بالجماعة يفيد مزيةً خاصة لأهل السنة؛ إذ هم الجماعةُ التي حثَّ النبي ﷺ على الانضمام إليهم والسير في منهجهم، حينما أخبر ﷺ عن هلاك الطوائف إلا واحدة وهي الجماعة، وهذا هو الحق والاعتقاد، مهما كان من الخلاف.

ولفظ الجماعة مأخوذٌ من قوله ﷺ في بيان الفرقة الناجية في حديث الافتراق: هي الجماعة، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة)). رواه ابن ماجه، وصححه الأئمة.

وجاءت نصوص الكتاب والسنة بالأمر بلزوم الجماعة، والنهي عن الفرقة، وذلك كقوله ﷻ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ومن السنة قوله ﷺ لحذيفة بن اليمان < : ((تلزم جماعة المسلمين وإمامهم))، وقوله ﷺ: ((من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية))، والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقد اختلف أهل العلم في المراد بالجماعة التي ورد الأمر بلزومها على أقوال نذكرها باختصار:

الأول: أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام، يدل له رواية: "كلها في النار إلا السواد الأعظم".

الثاني: أنها جماعة العلماء المجتهدين؛ لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تبعٌ لهم في أمر الدين. وهذا قول غيرِ واحد من الأئمة، منهم الإمام البخاري حيث قال في صحيحه: باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم".

وقال الإمام الترمذي: "وتفسير الجماعة عند أهل هم: أهل الفقه والعلم والحديث". وروي عن ابن المبارك أنه: قيل له من الجماعة؟ فقال: أبو بكر وعمر. وقيل له: قد مات أبو بكر وعمر، قال: فلان، وفلان. قيل له: قد مات فلان، وفلان، قال: أبو حمزة السكري جماعة.

الثالث: أن الجماعة هي: الصحابة على الخصوص، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين، وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلا. يدل لهذا القول في رواية: ((ما أنا عليه وأصحابي)). ويشهد لمعنى هذه الرواية نصوص الكتاب والسنة العامة.

الرابع: أن الجماعةَ هي جماعةُ أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمرٍ فواجب على غيرهم من أهل الملل اتّباعهم. قال الإمام الشاطبي عقب هذا القول: "وكأن هذا القول يرجع إلى الثاني، أو يرجع إلى القول الأول، وهو الأظهر".

الخامس: أن الجماعة جماعة المسلمين، إذا اجتمعوا على أمير، فأمر النبي ﷺ بلزومه، ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم، فمن نكث بيعته خرج من الجماعة، وهو اختيار الإمام الطبري.

السادس: أن المراد بالجماعة موافقة الحق ولزومه. كما قال ابن مسعود > : "الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك"، وفي رواية: "إنما الجماعة ما وافق طاعة الله، وإن كنت وحدك".

قال أبو شامة: "وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك بالحق قليلًا، والمخالف كثير؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه } ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم".

وكل هذه المعاني متلازمةٌ في الدلالة، متقاربةٌ في المعنى، ويرجع الاختلاف فيها إلى التنوع لا إلى التضاد.

فالتزام الحق والعمل به هو الذي يجب أن تكون عليه الجماعة، كما أمر الله بذلك حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] وبيَّنَ النبي ﷺ أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله، فهذه هي الحقيقةُ الشرعيةُ لِمَا يَجِبُ أن تكون عليه الجماعة.

وما سار عليه الصحابة الكرام، وجاء عليه هديهم من الاعتقادات والأقوال والأفعال، هو الحق لا ريب فيه؛ فهم خير القرون، وأفضل الناس بعد الأنبياء والرسل، والاهتداء بمنهجهم حق لازم: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] ((فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)).

ومن اقتدى بهم من العلماء، واتبعهم بإحسان فهو في حكمهم. ولا يتم لهذه الأمة أمر، ولا يتحقق لها تمكينٌ ولا نصر إلا إذا اجتمعوا على إمام، يقيم فيهم حكمَ الله تعالى، ويسوسُهُم بالعدل، فتنتظم شؤونهم الدينية والدنيوية تحت لوائه، وينفي الله عنهم الميتةَ الجاهلية، وتنالهُم البركة والخيرية، والنعمة بالجماعة.

أفضلية الخلفاء الأربعة بحسب ترتيبهم، والأدلة على ذلك

عناصر الدرس

العنصر الأول : بيان ترتيب الخلفاء الأربعة الراشدين في الأفضلية والخلافة ٨٥

العنصر الثاني : فضل أبي بكر وعمر } وخلافتهما ٨٧

العنصر الثالث : فضل عثمان وعلي } وخلافتهما ٩٢

بيان ترتيب الخلفاء الأربعة الراشدين في الأفضلية والخلافة

إن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي } حق، وإمامتهم دين وصدق، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وهذا مما أجمع عليه السلف الصالح من هذه الأمة وأئمتها.

ومما دلَّ على ذلك من كتاب الله تعالى قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

قال الآجري في (الشريعة): "فقد والله أنجَزَ اللهُ الكريمُ لَهُم ما وعدَهُم به، جعلهم الخلفاء من بعد الرسول ﷺ، ومكنهم في البلاد، وفتحوا الفتوح، وغنموا الأموال، وسبوا ذراري الكفار، وأسلم في خلافتهم خلقٌ كثير، وقاتلوا من ارتدَّ عن الإسلام حتى أجلوهم، وراجع بعضهم، كذلك فعل أبو بكر الصديق > فكان سيفُهُ فيهم سيف حق إلى أن تقوم الساعة، كذلك الخليفة الرابع: وهو علي بن أبي طالب > كان سيفُهُ في الخوارج سيف حق إلى أن تقوم الساعة، فأعزَّ الله دينه بخلافتهم، وأذلّوا الأعداء، وظهر أمرُ الله، ولو كره المشركون، وسنُّوا للمسلمين السنن الشريفة، وكانوا بركةً على جميع أمة محمد ﷺ من أهل السنة والجماعة.

وأما ما جاء عن النبي ﷺ فقد روى سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((الخلافة ثلاثون سنة)) ثم قال: أمسك أبو بكر سنتين، وعمر عشر، وعثمان ثنتا عشرة، وعلي ست، وكذا ولوها. وكذا روى أبو بكرة عن النبي ﷺ شبيهًا بهذا.

وقال ﷺ: ((الأئمة من قريش)). وقول النبي ﷺ: ((عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ)). انتهى.

وللإمام أبي عثمان الصابوني كلام نفيسٌ في بيانِ ترتيب الخلافة بين الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي { آثرت أن أنقله كاملًا لأهميته، قال -رحمه الله- في (عقيدة السلف): "ويشهدون -أي: أهل السنة- ويعتقدون أن أفضل أصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وأنهم الخلفاء الراشدون الذين ذكَرَ رسول الله ﷺ خلافتهم بقوله: -فيما رواه سعيد بن جهمان، عن سفينة-: ((الخلافة بعدي ثلاثون سنة))". وبعد انقضاء أيامهم عاد الأمر إلى الملك العضوض على ما أخبر عنه الرسول ﷺ.

ويُثبت أصحاب الحديث خلافة أبي بكر > بعد وفاة رسول الله ﷺ وباختيار الصحابة واتفاقهم عليه، وقولهم قاطبة: "رضيه رسول الله ﷺ لديننا فرضيناه لدنيانا" يعني: أنه استخلفه في إقامة الصلوات المفروضات بالناس أيام مرضه، وهي دين، فرضيناه خليفةً للرسولِ ﷺ علينا في أمورِ دُنْيَانَا.

وقولهم: "قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا الذي يؤخرك؟". وأرادوا أنه ﷺ قدمك في الصلاة بنا أيام مرضه فصلينا وراءك بأمره فمن ذا الذي يؤخرك بعد تقديمه إياك.

وكان رسول الله ﷺ يتكلم في شأن أبي بكر في حال حياته بما يبين للصحابة أنه أحق الناس بالخلافة بعده؛ فلذلك اتفقوا عليه واجتمعوا، فانتفعوا بمكانه والله، وارتفعوا به وارتفقوا، حتى قال أبو هريرة > : "والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف لما عُبِدَ الله، ولما قيل له: مه يا أبا هريرة، قام بحجة صحة قوله، فصدقوه فيه وأقروا به.

ثم خلافةُ عمر بن الخطاب > باستخلاف أبي بكر إياه، واتفاق الصحابة عليه بعده، وإنجاز الله سبحانه بمكانه في إعلاء الإسلام وإعظام شأنه وعده.

ثم خلافة عثمان > بإجماع أهل الشورى، وإجماع الأصحاب كافة، ورضاهم به، حتى جُعِلَ الأمر إليه، ثم خلافة علي > ببيعة الصحابة إياه، عرفه ورآه كل منهم } أحق الخلق وأولاهم في ذلك الوقت بالخلافة، ولم يستجيزوا عصيانه وخلافه.

فكان هؤلاء الأربعة الخلفاء الراشدين، والذين نصر الله بهم الدين، وقهر وقسر بمكانهم الملحدين، وقوى بمكانهم الإسلام، ورفع في أيامهم للحق الأعلام، ونور بضيائهم ونورهم وبهائهم الظلام، وحقق بخلافتهم وعده السابق في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾ [النور: ٥٥] الآية. وفي قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾. وهذه بعض التفاصيل لفضائل هؤلاء الخلفاء الأربعة.

فضل أبي بكر وعمر } وخلافتهما

أولًا: أبو بكر الصديق >:

وأفضل الصحابة } وأشرفهم أبو بكر الصديق > وقد دلَّ على فضله الكتاب والسنة وإجماع السلف. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

قال أبو المظفر السمعاني في تفسيره: "وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أي: لأبي بكر > باتفاق أهل العلم".

وقد روى البخاري، ومسلم عن أنس عن أبي بكر > قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: ((لو أن أحدهم أبصر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنُّكَ يا أبا بكر، باثنين الله ثالثهما؟)). وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧- ٢١].

قال ابن كثير في التفسير: "وقد ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق > حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخلٌ فيها وأولى الأمة بعمومها؛ فإن لفظها لفظُ العموم، ثم قال: ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقًا تقيًّا كريمًا جوادًا بذَّالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ فكم من دراهم ودنانير بذلَهَا ابتغاء وجه ربه الكريم".

والأحاديث في فضائل الصديق كثيرة جدًّا استقصى جملة منها البخاري ومسلم في (صحيحيهما).

ومما ورد في ذلك ما رواه البخاري ومسلم: أن أبا سعيد الخدري > قال: ((خطبَ رسول الله ﷺ الناس، وقال: إن الله خيَّرَ عبدًا بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختَارَ ذلك العبد ما عند الله. قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائِهِ؛ أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خير، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّرُ، وكان أبو بكر أعلمنا. فقال رسول الله ﷺ: إن أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبتِهِ وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي؛ لأتخذت أبا بكر، ولكن أخوةُ الإسلام ومودتُهُ، لا يبقينَّ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا بابَ أبي بكر)).

وقد اختلف أهل السنة في خلافة الصديق > ، هل كانت بالنص أو بالاختيار، والصحيح: أنها كانت بالإشارة والنص الخفي، والأدلة على ذلك كثيرة: من ذلك ما رواه البخاري عن جبير بن مطعم، قال: ((أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت، قال: إن لم تجديني فأتي أبا بكر)).

وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: ((اقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي أبي بكر وعمر)). رواه أهل السنن.

وعن عائشة < قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدئ فيه، فقال: ((ادعي لي أباك وأخاك، حتى أكتب لأبي بكر كتابًا، ثم قال: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر)). وفي رواية: ((فلا يطمع في هذا الأمر طامع)). وفي رواية قال: ((ادعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر لأكتب لأبي بكر كتابًا لا يختلف عليه، ثم قال: معاذَ اللهِ أن يختلف المؤمنونَ في أبي بكر)). رواه البخاري.

وأحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة، وهو يقول: ((مروا أبا بكر فليصل بالناس)). وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة، فصلى بهم مدة مرض النبي ﷺ.

قال السيوطي في (تاريخ الخلفاء): قال العلماء: هذا الحديث، أي: حديث تقديمه في الصلاة، أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة على الإطلاق، وأحقهم بالخلافة، وأولاهم بالإمامة.

فالنبي ﷺ لم ينص على خلافة أبي بكر > نصًّا، ولم يكتب في ذلك عهدًا، بل كانت مجردَ إشارةٍ منه ﷺ إلى ذلك كما قال ابن عمر، عن أبيه { أنه قال: "إن أستخلف، فقد استخلف من هو خير مني، يعني: أبا بكر، وإن لا أستخلف، فلم يستخلف من هو خير مني، يعني: رسول الله ﷺ.

قال عبد الله: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف. رواه البخاري ومسلم. وعن عائشة < : أنها سُئِلَت من كان رسول الله مستخلفًا لو استخلف؟ فقالت: أبو بكر. رواه مسلم.

قال ابن أبي العز في (شرح العقيدة الطحاوية): والظاهر -والله أعلم- أنه لم يستخلف بعهد مكتوب، ولو كتب عهدًا لكتبه لأبي بكر، بل أراد كتابته ثم تركه، وقال: ((يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر)). فكان هذا أبلغ من مجرد العهد؛ فإن النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبي بكر، وأرشدهم إليه بأمور متعددة، من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبارَ راضٍ بذلك، حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهدًا، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه، فترك الكتاب اكتفاءً بذلك، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس، ثم لما حصل لبعضهم شك، هل ذلك القولُ من جهة المرض؟ أو هو قول يجب اتباعه؟ ترك الكتابة، اكتفاءً بما علم أن الله يختاره، والمؤمنون من خلافة أبي بكر.

فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه بيانًا قاطعًا للعذر، لكن لَمَّا دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر المتعين، وفهموا ذلك، حصل المقصود. ولهذا قال عمر < في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: أنت خيرُنَا وسيدُنَا، وأقربنا، وأحبُنَا إلى رسول الله ﷺ ولم يُنكر ذلك منهم أحد، ولا قال أحد من الصحابة: إن غير أبي بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منه، ولم ينازع أحد في خلافتِهِ إلا بعض الأنصار، طمع في أن يكون من الأنصار أمير، ومن المهاجرين أمير، وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ بطلانه.

ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر، إلا سعد بن عبادة؛ لكونه هو الذي كان يطلب الولاية، ولم يَقُلْ أحدٌ من الصحابة قط أن النبي ﷺ نص على غير أبي بكر، ولا

علي ولا العباس، ولا غيرهُمَا، كما قد قال أهل البدع. وروى ابن بطة بإسناده: أن عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبير الحنظلي إلى الحسن، فقال: أوفي شك صاحبك؟ نعم، والله الذي لا إله إلا هو استخلَفَهُ، لهو كان أتقى لله من أن يتثوب عليها.

ثانيًا: عمر بن الخطاب > :

ويلي أبا بكر في الفضل والخلافة عمر بن الخطاب } وهذا مما أجمع عليه السلف الصالح من هذه الأمة وأئمتها. وتمَّ ذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، واتفاق الأمة بعده عليه.

وفضائله كثيرة جدًّا؛ فهي أشهر من أن تنكر، وأظهر من أن تُذْكَر، وقد تواتر عن محمد بن الحنفية أنه قال: قلت لأبي: من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: يا بني، أو ما تعرف؟ فقلت: لا. قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر. وخشيت أن يقول: ثم عثمان! فقلت: ثم أنت؟ فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. رواه البخاري وغيره.

وعن ابن عباس } قال: وُضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع، وأنا فيهم، فلم يرُعْني إلا برجلٍ قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفتُّ إليه، فإذا هو عليّ، فترحم على عمر، وقال: ما خلّفتُ أحدًا أن ألقى الله بمثلِ عملِهِ منك، وأيم الله، إن كنتُ لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنتُ كثيرًا ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: ((جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو، أو لأظن أن يجعلك الله معهما)). صحيح رواه ابن أبي عاصم.

ومن الأحاديث الواردة في فضائِلِه ما أخرجه أبو البخاري ومسلم عن أبي هريرة < قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال: ((بينَا أَنَا نائمٌ رأيتُنِي في الجنةِ، فإذا امرأةٌ تتوضأُ إلى جَانِبِ قصرٍ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القصرُ؟ قالوا: لعمر، فذكرتُ غيرَتَك فوليت مدبرًا، فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟)).

وعن عبد الله بن عمر } قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: ((بينا أنا نائم، أوتيت بقدحِ لبن، فشربتُ حتى إني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب. قال: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم)).أخرجه البخاري، ومسلم.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ((بينا أنا نائمٌ، رأيت الناسَ يُعرضون علي وعليهم قمص، منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، وعرض علي عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: الدين)).

فضل عثمان وعلي } وخلافتهما

ثالثًا: عثمان بن عفان < :

ويلي عمرَ في الفضل والخلافة عثمانُ بنُ عفان } . وهو ممن أجمع السلف الصالح على فضله وشرفه، وقد وردَ في ذلك نصوص منها ما أخرجه مسلم: عن سعيد بن العاص أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه: ((أن أبا بكر استأذنَ على رسول الله ﷺ وهو مضطجَعٌ على فراشه لابسٌ مرط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذنَ عمر؛ فَأَذِنَ له، وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم

استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: اجمعي عليك ثيابك، فقضت إلي حاجتي، ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، مالي لا أراك فزعت لأبي بكر وعمر } كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنتُ له على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته)).

وفي رواية أخرى لمسلم: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة أن النبي ﷺ قال: ((ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة)).

ومن فضائله > أيضًا أن النبي ﷺ قال: ((مَن يحفر بئر رومة وله الجنة، فحفَرَهَا عثمان))، وقال: ((من جَهَّزَ جيشَ العسرة، وله الجنةُ، فجهَّزَهُ عثمان)). رواه البخاري (فتح الباري) تعليقًا، وأخرجه الترمذي وقال: "حديث حسن صحيح غريب".

رابعًا: علي بن أبي طالب > :

ويلي عثمانَ في الفضل عليٌّ بنُ أبي طالب > وفضائله أيضًا كثيرة، منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص: ((أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليًّا، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء، قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي)).

قال القاضي عياض في (إكمال المُعْلِم): "مما تعلقت به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة، وبعض المعتزلة في أن الخلافة كانت حقًّا لعلي، واستخلاف النبي ﷺ له لذلك بهذا الحديث، وأشباهه مما احتجوا به، وهذا الحديث بكل حال لا حجة فيه لأحدٍ منهم، بل فيه من فضائل علي ومنزلته ما لا يحطُّ من منزلة غيره، وليس في قوله هذا دليل على استخلافِهِ بعده؛ لأنه إنما قال له حين استخلفه على

المدينة في غزوة تبوك، فقال له ذلك لاستخلافه بعده، بدليل أن هارون الذي يستشهد به لم يكن خليفةً بعد موسى، وإنما مات في حياتِهِ، وقبل موتِ موسى بنحوِ أربعين سنةٍ على ما قال أهل الخبر، إنما استخْلَفَهُ موسى حين ذهب لمناجاة ربه، فقال له: ﴿ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٢] كما نص الله تعالى".

وقال القرطبي في (المُفهم): "وعلى الجملة؛ فلا حجة لأحد منهم في هذا الحديث، فإن النبي ﷺ إنما استنابه في أمر خاص، كما استناب موسى هارون - عليهما السلام- في وقت خاصٍّ، فلما رجع موسى # من مناجاته، عاد هارونُ إلى أول حالاته، على أنه قد كان هارونُ شارك مع موسى في أصل الرسالة، فلا تكون لهم فيما راموه دلالة".

ومما ورد في فضائل علي > أيضًا ما أخرجه البخاري ومسلم أيضًا عن سلمة بن الأكوع، قال: كان علي قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان به رمد، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟ فخرج عليٌّ فلحق بالنبي ﷺ فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها، قال رسول الله ﷺ: ((لأعطينَّ الراية - أو ليأخذنّ الرايةَ- غدًا رجلًا يحبه الله ورسوله -أو قال: يحب الله ورسوله- يفتحُ الله عليه، فإذا نحن بعلي وما نرجوه، فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه)).

فضل الصحابة، والتوسط فيهم بين الإفراط والتفريط

عناصر الدرس

العنصر الأول:	ذكر فضل الصحابة ومنزلتهم عمومًا	٩٧
العنصر الثاني:	ذكر قول الخوارج في الصحابة	٩٩
العنصر الثالث:	ذكر قول الروافض في الصحابة	١٠٠
العنصر الرابع:	أهل السنة وسط في الصحابة بين الإفراط والتفريط	١٠٥

ذكر فضل الصحابة ومنزلتهم عمومًا

بعد ذكر ما يتعلق بفضائل الصحابة } وترتيبهم في الخلافة، لا بد من بيان شبه المخالفين، والردّ عليهم، ووسطية أهل السنة في ذلك:

إن أشرف الناس بعد الأنبياء والرسل، وأفضلهم منزلة صحابة رسول الله ﷺ الذين اجتباهم الله لصحبة نبيه ﷺ واصطفاهم له من بين سائر خلقه.

قال الإمام الطحاوي في عقيدته المشهورة شرح ابن أبي العز: "ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيان".

وقال ابن أبي زمنين في (أصول السنة) ومن قول أهل السنة: أن يعتقد المرء المحبة لأصحاب النبي ﷺ وأن ينشر محاسنَهُم وفضائلهم، ويمسك عن الخوضِ فيما دار بينهم، وقد أثنى الله ﷻ في غير موضع من كتابه ثناءً أوجب التشريف إليهم بمحبتهم، والدعاء لهم فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله: ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ١٠]. انتهى.

ومن الآيات الواردة في ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]. وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ)). رواه البخاري ومسلم.

وقد توسع الحافظ العلائي في ذكر النصوص من الكتاب والسنة الدالة على فضل الصحابة وعدالتهم في كتابه: (تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة). وقال في مستهلّ خطبة كتابه: "إن الله ﷻ اختصّ نبيه ﷺ بصحابةٍ جعلهم خير أمته، والسابقين إلى تصديقه وتبعيته، والمجاهدين بين يديه، والباذلين نفوسهم تقربًا إليه، والناقلِينَ لسنته وقضاياه، والمقتدين به في أفعاله ومزاياه، فلا خير إلا وقد سبقوا إليه من بعدهم، ولا فضل إلا وقد استفرغوا فيه جهدهم، فجميع هذا الدين راجع إلى نقلهم وتعليمهم، ومتعلق من جهتهم بإبلاغهم وتفهيمهم، فلهم مثلُ أجور من اهتدى بشيء من ذلك على مَرِّ الأزمان، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء بالطول والإحسان".

وقد عني السلف عنايةً فائقةً بشأن الصحابة الكرام؛ فألَّفوا في فضائلهم كتبًا، منها (فضائل الصحابة) للإمام أحمد، و(فضائل الصحابة) لخيثمة بن سليمان، و(فضائل الصحابة) للدارقطني، ، وكثير منها مطبوع موجود بين يدي المسلمين.

ذكر قول الخوارج في الصحابة

من مقالات الخوارج التكفير بالذنوب الكبائر، وبعضهم يتعدى ذلك إلى الصغائر، ويرون الخروج على من اقترف شيئًا من ذلك من الحكام.

ولهذا اعتبروا الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب > مذنبًا حيث حكَّم الحَكَمَين بينه وبين معاوية > ، وطالبوه بالتوبة من ذلك الذنب الذي ارتكبه بزعمهم، وقالوا: "لا حكم إلا لله..تُبْ من خطيئتك وارجع عن قضيتك". فلما لم يجبهم صرحوا بكفره، واستحلوا الخروج عليه وقتاله. بل أجمعوا على كفره، وكفر الحكمين، ومن رضي بالتحكيم وقبله، وفيهم عدد كبير من الصحابة { .

ثم قالوا: عثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم في زعمهم حكموا بغير ما أنزل الله. فضلوا في مقامين:

أحدهما: أنهم قالوا بأن من خالف القرآن بعملٍ أو برأيٍ أخطأ فيه فهو كافر.

والثاني: أن عثمانَ وعليًّا، ومن والاهما خالفوا القرآن؛ فهم بذلك كفار على حد زعمهم وافترائهم.

فجمعوا بين الجهل والإعراض عن فهم السلف، ولهذا قال النبي ﷺ فيهم: ((يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينَ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)) الحديث.

وتكاد كتب الفِرَق والمقالات تُجْمِعُ على قولِ الخوارج بتكفير علي وعثمان } ثم الحكمين، ومن رضي بالتحكيم. ومنه يتبين موقف الخوارج المنحرف من

أصحاب رسول الله ﷺ وتفريطهم وجفاؤهم في طائفة من خيار الصحابة، الذين قد شهد لبعضهم رسول الله ﷺ بالجنة، وأكثرهم يدخل فيمن } بنصِّ القرآن الكريم، ولكنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ذكر قول الروافض في الصحابة

وأما الشيعة الروافض: فقد جمعوا بين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والإجحاف في أصحاب رسول الله ﷺ و } . فلهم في بعض الصحابة كعليٍّ والحسين } غلوٌّ وإفراط، حتى وصل الحد ببعضهم القول بألوهية علي، وقال بعضهم بنبوّتِه. وأدنى ضلالتهم تقديمه على من هو أفضل منه من الصحابة.

ولهم في البعض الآخر من الصحابة تفريط وإجحاف وتقصير، أعظمه القول بكفرهم ولعنهم، وأدناه القول: بتأخيرهم عن مرتبتهم، والتخلُّف بهم عن مكانَتِهم، ولهم بين ذلك ضلالات وافتراءات تتراوح بين الغلوّ والتقصير، ما لهم بذلك من علم، إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

فطعنهم في أبي بكر وعمر وعثمان } وسبَّهم ولعنهم، بل وتكفيرهم أمر معلوم لدى القاصي والداني، وكتبهم حافلة بذلك قديمًا وحديثًا، حتى ولو أخفوا ذلك أحيانًا باسم التقية، إلا أنهم لشدةِ حقدهِم وبغضهم، وعمق الغِلِّ الذي في قلوبهم للصحابة } لا يستمر ذلك معهم طويلًا؛ لاسيما إذا هم شمُّوا رائحة الغلبة والتمكن، ثم يرجعون إلى ما جروا عليه من الضلال وسوء الاعتقاد.

قال الشهرستاني: "ويجمعهم -أي: الشيعة الراوفض- والقول بالتولِّي والتبري قولًا وفعلًا وعقدًا؛ إلا في حال التقية". وفي الجملة؛ فإن الشيعة الروافض يكفّرون

ويتبرءون من معظم الصحابة، إلا جماعة قليلة ونادرة منهم. وجعلوا إمامة علي بعد رسول الله ﷺ من تمام الدين، ومن أنكر ذلك عندهم فهو في عداد الكافرين.

وقالوا: إن عليًّا هو الخليفة بعد رسول الله ﷺ دون غيره بالنص. وزعموا أن إمامة علي وبنيه من أركان الدين. ولا حجة لهم في شيء من ذلك إلا الكذب والزور.

فالذي يميّز الشيعي الرافضي من غيرِهِ تفضيلهم عليًّا على سائر الصحابة، ثم زاد على ذلك القول بتقديمه في الإمامة على غيره من الخلفاء، حيث زعموا أن النبي ﷺ نصَّ على ذلك، وهم يعلمون أنها مجرد دعوى كاذبة، مخالفة للنصوص الصحيحة، مناقضة لإجماع المسلمين عامة.

ولقد مات رسول الله ﷺ ولم ينص بالخلافة لأحد لا لأبي بكر ولا لغيره، على أنه ﷺ كان يشير لأبي بكر > إشارة، وقد دَلَّتِ النصوصُ الصحيحةُ الصريحةُ على صحةِ إمامةِ وخلافةِ الصديق، وثبوت انعقادها بمبايعة المسلمين له، واختيارهم إيَّاه، واجتماعهم عليه، مما علموا من تفضيل الله ورسوله ﷺ له. وقد سبق بيان شيء من هذا سابقًا، وما ورد في خلافته مما أغنى عن إعادته هنا.

والمقصود لدينا في هذا المقام إثبات الحجة، وإقامة البرهان الذي يقبل الشك والنكران على أن النبي ﷺ مات ولم يعهد بالخلافة نصًّا لأحد، والأدلة على هذا كثيرة؛ منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن طلحة بن مصرف قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى } : هل كان النبي ﷺ أوصى؟ فقال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية؟ -أو أُمروا بالوصية- قال: أوصى بكتاب الله.

قال الحافظ في الفتح: "هكذا أطلق الجواب، وكأنه فَهِمَ أن السؤال وقع عن وصية خاصة؛ فلذلك ساغ نفيها، لا أنه أراد نفي الوصية مطلقًا؛ لأنه أثبت بعد

ذلك أنه أوصى بكتاب الله" ثم قال: "ويحتمل أن يكون المنفيّ وصيته إلى علي بالخلافة كما وقع التصريح به في حديث عائشة الذي بعده. ويؤيّده ما وقع في رواية الدارمي عن محمد بن يوسف شيخ البخاري فيه، وكذلك عند ابن ماجه، وأبي عوانة في آخر حديث الباب؛ قال طلحة: فقال هزيل بن شرحبيل: "أبو بكر كان يتأمَّرُ على وصيّ رسول الله، ودَّ أبو بكر أنه كان وجد عهدًا من رسول الله ﷺ فخزم أنفه بخزام".

وهزيل هذا؛ بالزاي مصغرا، أحد كبار التابعين، ومن صغار أهل الكوفة؛ فدلَّ هذا على أنه كان في الحديث قرينة تشعر بتخصيص السؤال بالوصية بالخلافة ونحو ذلك، لا مطلق الوصية".

وأخرج البخاري ومسلم عن إبراهيم بن الأسود قال: ذكروا عند عائشة أن عليًّا { كان وصيًّا، فقالت: متى أوصى إليه؟ فقد كنت مسندته إلى صدري -أو قالت: حجري- فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري، وما شعرت أنه مات، فمتى أوصى إليه؟!

وأخرج مسلم عن عائشة أيضًا قالت: ((ما تركَ رسول الله ﷺ دينارًا، ولا درهمًا، ولا شاةً، ولا بعيرًا، ولا أوصى بشيء)).

قال القرطبي في (المفهم): "وأما قول عائشة > : ما أوصى رسول الله ﷺ بشيء. فإنها أرادت في شيء من أمر الخلافة؛ بدليل الحديث المذكور، ثانيًا: أنهم لما ذكروا أن عليًّا كان وصيًّا، قالت: ومتى أوصى إليه؟! وذكرت الحديث.

وقد أكثرت الشيعة والروافض من الأحاديث الباطلة الكاذبة، واخترعوا نصوصًا على استخلاف النبي ﷺ عليًّا، وادّعوا أنها تواترت عندهم. وهذا كله كذبٌ مركبٌ. ولو كان شيء من ذلك صحيحًا، أو معروفًا عند الصحابة يوم السقيفة

لذكروه، ولرجعُوا إليه، ولذكره علي محتجًّا لنفسِهِ، ولما حل أن يسكت عن مثل ذلك بوجه؛ فإنه حق الله، وحق نبيه ﷺ وحقه، وحق المسلمين.

ثم ما يعلم من عظيم علم علي > وصلابته في الدين، وشجاعته يقتضي ألا يتقي أحدًا في دين الله، كما لم يتقّ معاوية، وأهل الشام حين خالفوه، ثم إنه لما قُتِلَ عثمان ولّى المسلمون باجتهادهم عليًّا، ولم يذكر هو، ولا أحد منهم نصًّا في ذلك. فعلم قطعًا كذب من ادعاه. وما التوفيق إلا من عند الله".

وقال أبو نعيم في الإمامة "ففي هذه الأخبار الثابتة إبطال لما ادَّعاه من اختصاص علي > بوصيتِهِ، وعهده من دون المسلمين كافة. ولقد سُئِلَ علي > فيما رواه عنه أبو جحيفة وغيره: هل خصَّك رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: ما هو إلا كتابُ الله، أو فهم يؤتيه الله من شاء في الكتاب". انتهى. أخرجه البخاري، وغيره.

وأخرج البخاري أيضًا عن عبد الله بن عباس أن عليًّا بن أبي طالب > خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبحَ رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئًا، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب، فقال له: أنت والله بعد ثلاثٍ عبد العصا، وإني والله لأرى رسولَ الله ﷺ سوف يتوفَّى من وجعه هذا؛ إني لأعرف وجوهَ بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك. وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ.

وقوله "وأنت والله بعد ثلاث عبد العصا" هو كناية عمن يكون تابعًا لغيره، والمعنى أنه يموت بعد ثلاث، وتصير أنت مأمورًا عليك. وهذا من قوة فراسة العباس > الفتح.

ومن الأدلة التي احتجوا بها على دعواهم هذه قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، وبحديث: ((اللهمَّ وَالِ من والاه، وعادِ من عَادَاه))، وبقوله ﷺ لعلي < : ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى)).

واالجواب:

أولًا: أنه لا يوجد في شيءٍ من هذه النصوص ما يدل على الإمامة، فضلًا عن تقديم علي < على غيره فيها، بل كلام أكثر المفسرين على أنها لم تنزل في علي < بل ما روي في ذلك من قصةالتصدق بالخاتم ضعيف.

ثانيًا: أن الإمامة على اعتبارها ركنًا من أركان الدين، وأنها بمنزلة الشهادتين عندهم، بحيث أن من لم يقمها يعتبر كافرًا، ومع هذا لا يوجد لها ذكر في القرآن الكريم، كماذكرت الصلاة والزكاة والصوم والحج. فإذا كانت الإمامة من أركان الدين فلماذا لم يذكرها الله في كتابه؟ ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

ثالثًا: وفي هذا المقام يلزم الشيعة الروافض حالان، إما أن يقرُّوا بأنه لا وجود لأمر الإمامة المزعومة لديهم في القرآن الكريم، أو يعترفون بأن القرآن محرَّف، حُذفت منه النصوص الدالة على إمامة علي، وهذا قول أئمتهم كما هو معلوم مشهور عنهم.

رابعًا: يقال أيضًا: إذا كان علي < فهم من النصوص التي يوردونها أنها دالة على الإمامة، فلماذا لم يُطَالب بها؟! وهو من هو في شجاعته وصدعه بالحق؛ لاسيما أن الإمامة مما لا يسع تركه والتغاضي عنه مثلها مثل سائر الأركان

كالصلاة والزكاة، والصوم والحج كما يزعم الشيعةُ الروافض، فإن هو علم بالنص، ولم يعمل به، يكون قد ترك ركنًا من أركان الدين، فيكون كافرًا على أصولهم. وأما إذا ادعيتم أنه كان جاهلًا بالنص، فلا يجوز أن يقود الأمة جاهل؛ لاسيما فيما تعلق بركن من أركان الدين على حدِّ زعمكم.

فإن زعمتم أنه ترك ذلك خشية الفتنة، وسكت عن ركن من أركان الدين فلا أقلَّ من أن يكون منافقًا مداهنًا محابيًا في الحق، فكيف يؤتمن على سائر أركان الدين؟!

وعلي > كان مع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه مدة أربع وعشرين سنة، ولم تحدّثه نفسه قط بأن يستولي على الحكم إبان خلافتهم مع أنه كان يستخلف على المدينة أحيانًا عند غيابهم.

أهل السنة وسط في الصحابة بين الإفراط والتفريط

عرفنا فيما تقدم موقف الخوارج والشيعة الروافض من الصحابة الكرام } وتبيَّن لنا مدى بُعْدِهِم عن الاعتدال في هذا الباب، وجنوحهم إلى طرفي الإفراط والتفريط.

وعليه فمن رام الاعتدال، وقصد الحقَّ فعليه بمن أثنى الله تعالى على دينهم وعلمهم، وجعلهم خيرَ الناسِ عبر القرون، فأهلُ السنة أتباع السلف الصالح لم يختلفْ قولُهم في هذا الباب، ولم يظهر عليه تفاوت ولا اضطراب؛ فهو مستمدٌّ من الأصول الثابتة كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

وسنعرض بعض أقوالهم التي تبين توسطهم واعتدالهم واقتصادهم في ذلك. قال الإمام أحمد في بيان عقيدة أهل السنة في الصحابة } : "من السنة: ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن الذي شجر بينهم، فمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ أو واحدًا فهو مبتدع رافضي. حبهم سنة، والدعاء لهم قربى، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآرائهم فضيلة.

وخير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ: أبو بكر، وخيرهم بعد أبي بكر عمر، وخيرهم بعد عمر عثمان، وخيرهم بعد عثمان علي } خلفاء راشدون مهديون. ثم أصحاب محمد ﷺ بعد هؤلاء الأربعة لا يجوز لأحد منهم أن يذكر شيئًا من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم، فمن فعل ذلك؛ فقد وجب على السلطان تأديبه وعقابه، وليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه، ثم يستتيبه؛ فإن تاب قبل منه، وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة وجلده حتى يتوب ويُرَاجع".

وقال الإمام الطحاوي في (عقيدته): "ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان".
ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولًا لأبي بكر الصديق > تفضيلًا له وتقديمًا على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب > ثم لعثمان > ثم لعلي بن أبي طالب > وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون.
وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة، على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح؛ وهو أمين هذه الأمة } .
ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس؛ فقد برئ من النفاق". انتهى كلامه

وبناء على أقوالهم تتجلى وسطية أهلِ السنة، ويبرز اعتدالهم واقتصادهم من خلال النقاط التالية:

١. أنهم لم يكفروا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، في حين أن كلًّا من الخوارج والشيعة الروافض كفروا أو فسقوا طوائف منهم، كما تقدم.

كما أن أهل السنة يتولون جميع الصحابة، ولا يتبرءون من أحد منهم.

٢. أنهم يترضون عن جميع الصحابة، ويترحمون عليهم، ويستغفرون لهم كما أمر الله، ولا يسبون ويشتمون أحدًا منهم. بينما كل من الخوارج والشيعة الروافض، لا يترضون عن الجميع، ولا يترحمون، ولا يستغفرون لطوائف من الصحابة، ولبعضهم فيهم سبٌّ وشتم ونسبة إلى الجهل والظلم والفسق كما تقدم.

٣. أنهم يشهدون ويعتقدون أن أصحاب رسول الله ﷺ خير خلقِ الله بعد الأنبياء، وأن خيرهم: الخلفاء الأربعة الراشدون فيما يطعن كل من أهل الإفراط والتفريط في كثيرٍ منهم، ويعدون بعضهم شرَّ هذه الأمة كما تقدم.

٤. أنهم لم يغلوا في علي > غلوَّ الشيعة الروافض؛ فلم يرفعوه إلى مقام الإلوهية أو النبوة أو العصمة أو نحو ذلك، كما فعل طوائف الشيعة الروافض. ولم يكفروه أو يفسقوه ويردوا شهادته كما فعل الخوارج.

٥. أنهم لا يعتقدون العصمةَ لأحد من الصحابة، بل يعتقدون أنهم بشرٌ يقع منهم من الذنوب ما يقع من غيرهم، ومع ذلك لا يشنعون عليهم بذنب، بل يلتمسون لهم المخارج، ويحملونهم على أجمل المحامل.

وأهل البدعة: يعتقد بعضهم العصمة لعلي > وللأئمة من أهل بيته وأنه لا يقع منهم ذنب عمدًا، ولا خطأ، ولا سهوًا. ويعتقدون في بعض الصحابة وقوع الكفر والفسوق والنفاق والردة منهم، وارتكاب المظالم والكبائر، وينسبونهم إلى الزندقة. هذه بعض مظاهر وسطية أهل السنة والجماعة في هذا الباب، على أن قولهم وفعلهم واعتقادهم لا يخرج عن حد القصد والاعتدال بأي حال.

مذهب أهل السنة والجماعة في تنصيب الإمام

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : بيان لزوم تنصيب الإمام، والدلالة على ذلك إجمالًا ١١١

العنــــصر الثـــــاني : بيان طريقة تنصيب الإمام، والدلالة على ذلك تفصيلًا ١١٥

بيان لزوم تنصيب الإمام، والدلالة على ذلك إجمالًا

من الأمور المتعلقةِ بالإمامةِ تنصيب الإمام، وبيان الأمور التي يتمّ بها تحقيق هذه الغاية، وسنفصل ذلك من خلال ما يلي:

لقد دلت المقاصد الشرعية، والأدلة التفصيلية من الكتاب والسنة على اعتبار الإمامة، ووجوب تنصيب الإمام، وهذا مما أجمع عليه المسلمون في سائر الأعصار والأمصار، ولا عبرةَ بِمَن شذَّ في ذلك.

قال القرطبي في (المُفْهِم): "وهذا مما أجمع عليه السلف الصالح، ولا مبالاة بخلاف أهل البدع في بعض هذه المسائل؛ فإنهم مسبوقون بإجماع السلف، وأيضًا؛ فإنهم لا يعتد بخلافهم على ما تقدم".

قال أبو المعالي الجويني في (غياث الأمم): "الإمامة رياسةٌ تامةٌ، وزعامةٌ عامة، تتعلّق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا، متضمنها حفظ الحوزة، ورعاية الرعيةِ، وإقامةُ الدعوة بالحجةِ والسيف، وكفَّ الخنف والحيف، والإنتصاف للمظلوم من الظالمين، واستيفَاءُ الحقوق من المتنعين، وإيفاؤها على المستحقين، فنَصْبُ الإمام عند الإمكان واجبٌ.

وذهب عبد الرحمن بن كيسان إلى أنه لا يجب، ويجوز ترك الناس أخيافًا يلتطمون اختلافًا وائتلافًا، لا يجمعهم ضابطٌ، ولا يربط شتاتَ رأيهم رابطٌ. وهذا الرجل هَجُومٌ على شق العصا، ومقابلةِ الحقوق بالعقوق، لا يهاب حجابَ الإنصاف، ولا يستوعر أصواب الاعتساف، ولا يُسَمَّى إلا عند الانسلال عن ربقة الإجماع، والحيدِ عن سنن الاتباع، وهو مسبوق بإجماع من أشرقت عليه الشمس شارقة وغاربة، واتفاقِ مذاهب العلماء قاطبة.

أما أصحاب رسول الله ﷺ رأوا البِدَار إلى نصب الإمام حقًّا، وتركوا بسبب التشاغل به تجهيزَ رسول الله ﷺ ودفنَه، مخافة تتغشاهم هاجمةُ محنةٍ. ولا يرتاب من معه مسكة أن الذبَّ عن الحوزة، والنضالَ دون حفظ البيعة محتوم شرعًا، ولو تُرِكَ الناس فوضى لا يجمعهم على الحقّ جامعٌ، ولا يزعهم وازعٌ، ولا يرجعهم عن اتباع خطوات الشيطان رادعٌ، مع تفنن الآراء، وتفرق الأهواء لَتَبَتَّرَ النظام، وهلك الأنام، وتوثب الطُّغَامُ والعوام، وتحزبت الآراء المتناقضة، وتفرقت الإرادات المتعارضة، وملك الأرذلون سراة الناس، وفُضت المجامع، واتسع الخرق على الراقع، ونشبت الخصومات، واستحوذ على أهل الدين ذو العرامات، وتبدّدت الجماعات، ولا حاجة إلى الإطناب بعد حصول البيان...".

ومن الأدلة على ما سبق قول الله تبارك تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩] فأمرنا بطاعة الأمراء، الذين بهم ينتظمُ أمر العباد، ويستقرُّ حَالُ البلاد، وطاعتهم لا تتحقق إلا بوجودهم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن هذا الباب ما أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمر { أن النبي ﷺ قال: ((من خلع يدًا من طاعة؛ لَقِيَ الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقِهِ بيعة، مات ميتةً جاهلية)). قال القرطبي في (المفهم): "وفيه دليل على وجوب نصب الإمام".انتهى كلامه.

ولم يرد نص خاص في الكتاب والسنة يفصل طرق تنصيب الإمام، وكيفية اختياره، ولكن قد أشارت نصوصُ السنة العامة، وعمل السلف الصالح من الصحابة، ومن تبعهم بإحسان على طريقة العمل بذلك، وذلِكَ من خلال اختيار الخلفاء بعد وفاة النبي ﷺ الذين قد حثَّ النبيُّ ﷺ على اتباع هديهم،

وسلوك طريقتهم، كما في قوله ﷺ: ((فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة)).

قال ابن رجب: "وفي أمره باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، وأمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عمومًا، دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة كاتباع السنة بخلاف سنة غيرهم من ولاة الأمور".

وقال ﷺ: ((اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)). قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أمر -أي: النبي ﷺ باتباع سنة الخلفاء الراشدين، وهذا يتناول الأئمة الأربعة، وخصَّ أبا بكر وعمر بالاقتداء بهما، ومرتبة المقتدى به في أفعاله وفيما سنه للمسلمين فوق سنة المتبع فيما سنه فقط".

والإجماع أقوى حجة في الدلالة على هذا الأمر، حيث اجتمع الصحابة كلهم ومن كان معهم من التابعين لهم بإحسان، واتفقوا على الطرق التي سلكها الخلفاء الأربعة في تنصيب الإمام، ولم يعلم قط أن أحدًا منهم استنكر شيئًا من ذلك، أو جادل فيه، فضلًا عن إنكاره ردَّه، وكفى بذلك حجة على اتخاذ تلك الطرق شرعة ومنهاجًا في أمر الإمامة. وقد أجمل هذه الطرق الأئمة، وبينوا شرعيتها في تنصيب الإمام.

قال القرطبي عند قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وعدّ مسائل مما يندرج تحت هذه الآية، ثم قال: "السابعة: واختلف فيما يكون به الإمام إمامًا، وذلك في ثلاث طرق:

أحدها: النص، وقد تقدم الخلاف فيه، وقال به أيضًا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصري، وبكر ابن أخت عبد الواحد وأصحابه

وطائفة من الخوارج. وذلك أن النبي ﷺ نص على أبي بكر بالإشارة، وأبو بكر على عمر.

فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصديق، أو على جماعة كما فعل عمر، وهو الطريق الثاني، ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة { في تعيين عثمان بن عفان > .

الطريق الثالث: إجماع أهل الحل والعقد، وذلك أن الجماعة في مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم، ولم يكن لهم إمام، ولا استخلف فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم اجتمعوا عليه ورضوه فإن كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخولُ في طاعَةِ ذلك الإمام، إذا لم يكن الإمام معلنًا بالفسق والفساد؛ لأنها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها، ولا يسع أحد التخلف عنها؛ لما في إقامة إمامين من اختلاف الكلمة، وفساد ذات البين.

قال رسول الله ﷺ: ((ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل لله، ولزوم الجماعة، ومناصحة ولاة الأمر؛ فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة)).

الثامنة: فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله، خلافا لبعض الناس حيث قال: لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحل والعقد ودليلنا: أن عمر > عقد البيعة لأبي بكر، ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك، ولأنه عقد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود. قال الإمام أبو المعالي: من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت، ولا يجوز خلعه من غير حدث وتغير أمر، قال: وهذا مجمع عليه.

التاسعة: فإن تغَلب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والغلبة. فقد قيل: إن ذلك يكون طريقًا رابعًا، وقد سُئِلَ سهل بن عبد الله التستري: ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام؟ قال: تجيبه وتؤدي إليه ما يطالبك من حقه، ولا

تنكر فعاله ولا تفرّ منه، وإذا ائتمنك على سر من أمر الدين لم تفشه. وقال ابن خويز منداد: ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة، ولا اختيار، وبايع له الناس تمت له البيعة، والله أعلم". انتهى كلام القرطبي.

وقال ابن كثير: "وقد استدل القرطبي وغيرُهُ بهذهِ الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتُهَا إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تُنَال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفةِ آخرَ بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحلّ والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له، فيجب التزامها عند الجمهور، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم، أو بقهرِ واحد الناس على طاعته؛ فتجب لئلا يؤدّي ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعي".

بيان طريقة تنصيب الإمام، والدلالة على ذلك تفصيلًا

الطريقة الأولى: الاختيار:

والذي يقوم به هم أهل الحل والعقد، وهي الطريقة التي تمت بها تولية أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب { كما هو معلوم.

أهمية الاختيار: إن الإمامة وسيلة لا غاية، وسيلة إلى إقامة الدين، وإصلاح الناس، ودرء الفساد عنهم، وهذا يجب أن يتعاون عليه، ويشترك فيه جميع أفراد الأمة، وحيث إنه لا يمكن القيام به على وجهه الأكمل إلا بعد تنصيب إمام

للمسلمين يقودهم، وينظم لهم طريق الوصول إلى القيام بهذا الواجب العام؛ لذلك فالأمة مسئولة عن اختيارِ من يقوم بذلك عنها، وتسلِّم له زمام الإذعان والانقياد؛ ليقودها إلى تحقيق هذه الغاية الشريفة التي هو واجب على المسلمين عمومًا، فالإمام ما هو إلا نائبٌ، ووكيل عن هذه الأمة.

فمسئولية الاختيار لهذا النائب راجعةٌ إلى الأمة نفسها؛ لأنه النائب عنها، وحيث إن الأمة متفرقة في الأصقاع والأمصار، فيها القوي والضعيف، والعالم بالمصلحة والجاهل، والعاقل وغيره، وصاحب الهوى والغرض، إلى غير ذلك من الاختلافات التي يصعب معها التمييزُ بين الصالح والطالح، والذي يُتَوَسَّمُ فيه حمل هذه الأمانة وغيره.

ولذلك تكون المسئولية في هذا المجال واقعةً على أعناق عقلاء الأمة وعلمائها وفضلائِهَا، فهم الذين يختارون من يرونه أهلًا للقيام بهذا الواجب الشرعي الذي أوجبه الله عليهم، وهو إقامة شرعِ الله في أرضِهِ، جريًا على تحقيق المصالح، ودرء المفاسد عن الناس.

لذلك تبدو أهمية الأمة في اختيار من تلزمه عنانها ليسير بها إلى أداء ما أوجبه الله عليها، والقيام بأعباء الخلافة الآدمية على هذه الأرض. كما تبدو أهمية عقلاء الأمة -أهل الحل والعقد- الذين تثق فيهم وتسلمهم مسئوليتها، وتحملهم الأمانة؛ ليختاروا لهم من يقودهم بكتاب الله إلى ما يُرضي الله.

فهذه الفئة -أهل الحل والعقد- تتحمل المسئولية من جهة اختيارها من تُسلِّم له قيادها باعتبارهم أفراد من أفراد المسلمين. ومن جهةِ إنابةِ الأمة لهم، وثقتهم فيهم ليختاروا من يكون أهلًا لمثل هذا المنصب العظيم، ومن جهة ثالثة أنهم شركاء فيمن يختارونه في الإثم، أما أمام الله إذا لم يجهدوا أنفسهم في اختيار

الأصلح.

ومن شعورهم بثقل هذه المسئوليات مع أنهم أفاضل الأمة، وعقلاؤها وعلماؤها؛ فإن اختيارهم سيكون بعد تروٍّ وتحرٍّ بعيدًا من أن تدنسه أهواء شهوانية، أو مطامع شخصية، أو تعصبات قبلية أو مذهبية، وسيكون موفقًا وصائبًا إن شاء الله خاصةً إذا شعروا إزاء ذلك بأن الذي سيختارونه، سيترتب على المسلمين عمومًا له من الواجبات، والحقوق الشيء الكثير، وستكون طاعته في غير معصية واجبة على جميع أفراد الأمة، وإذا قصر في شيء من ذلك فإن الفئة التي اختارته سيكون عليها من وزْرِهِ نصيب إذا لم تكن أجهدت نفْسَهَا في اختيارِ مَن تَرَاهُ مُنَاسِبًا.

كل ما سبق يدلنا على أهمية هذا الطريق الاختيار، وأنه أقرب الطرق بل هو الطريق الأصل لاختيار الإمام في الشريعة الإسلامية؛ على اعتبار أن الاستخلاف مشروطٌ بموافقة أهل الحل والعقد على المستخلف، كما ذهب إلى ذلك بعضهم، وهذه الطريقة ثابتة المشروعية بالسنة والإجماع.

فمن السنة:

أولًا: فعل النبي ﷺ: فقد توفي ولم ينص نصًّا صريحًا على الخليفة من بعده، وإنما أَخْبَرَ بِمَن سيتولى -كما رأينا- والذي يدلّ على ذلك قول عمر -الآنف الذكر: إن أستخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مِنِّي -يعني: أبا بكر- وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، يعني: رسول الله ﷺ. وتوجيه الدلالة من ذلك أن النبي ﷺ قد أوجب تنصيب الإمام -كما مر- وقد توفي، ولم يعهد إلى أحد بعده؛ فكان لا بد من الاختيار فدل على مشروعيته.

ثانيًا: ومنها قوله ﷺ لما قيل له من تؤمر بعدك؟ فقال: ((إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينًا زاهدًا في الدنيا، راغبًا في الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قويًّا أمينًا لا تأخذه في الله لومة لائم، وإن تولوها عليًّا تجدوه هاديًا مهديًّا)). وفيه كلام. ووجه الدلالة: إنه لو لم يجز الاختيار لم يقل: إن تؤمروا فلانًا فكذا، أو تؤمروا فلانًا فكذا، أو تولوها فلانًا فكذا.

ثالثًا: ومنها فعل الخلفاء الراشدين } كما سبق، وقد أمرنا باتباع سنتهم والإقتداء بأبي بكر، وعمر -كما مرّ- وقد قال عمر بن الخطاب > : "من بايع رجلًا من غير مشورةٍ من المسلمين؛ فلا يتابع هو، ولا الذي بايعه تَغِرَّة أن يُقْتَلَا".

ومن الإجماع: رأينا فيما سبق في العرض التاريخي كيفية اختيار الصحابة لأبي بكر، ثم لعلي } ولم تذكر الروايات أحدًا اعترض على هذه الطريقة وخالف فيها، فدلّ على إجماعهم، ومن حكى هذا الإجماع من العلماء النووي وغيره، فقال النووي في شرحه لـ(صحيح مسلم): "وأجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف، وعلى انعقادِهَا بعقد أهل الحل والعقد لإنسانٍ إذا لم يستخلف الخليفة". ولم يخالف في هذا إلا الرافضة؛ لأنه يتنافى مع عقيدة النص عندهم الباطلة ولذلك وجهوا إليه نقدًا مريرًا، ولكن لا عبرة بمخالفتهم.

بيان من هم أهل الحل والعقد: أهل الحل والعقد هم فئة من الناس على درجة من الدين والخلق والعلم بأحوال الناس، وتدبيرهم الأمور، ويُسَمَّوْنَ أهل الاختيار، وأهل الشورى، أو أهل الرأي والتدبير، كما حددهم بعض العلماء بأنهم: العلماء والرؤساء ووجهاء الناس، الذين يتيسر اجتماعهم إلى غير ذلك من المسميات التي أُطلقت على هذه الجماعة.

وهذه الفئة يُوكل إليها النظر في مصالح الأمة الدينية والدنيوية، ومنها اختيار

الإمام نيابة عن الأمة جميعًا، ولهذا فإنه عند مبايعة أهل الحلّ والعقد الإمام تجب مبايعته والانقياد له على سائر أفراد الأمة. ومشروعية اعتبارها وردّ به القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾. وهم العلماء والولاة، كما قرّره المفسرون. ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] الآية.

أما من السنة فلقوله ﷺ: ((أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيبًا؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم)). وذلك للأنصار في بيعة العقبة الثانية.

الطريقة الثانية: العهد:

أي: الاستخلاف: ومن طرق انعقاد الإمامة العهد من الخليفة السابق إلى من يختاره من المسلمين، ويراه لائقًا بهذا المنصب من بعده، فإذا أحس الخليفة بقرب أجله وأراد أن يستخلَفَ على القوم أحدهم؛ فإنه يقوم بمشاورة أهل الحل والعقد فيمن يختار، فإذا وقع رأْيُهُ على شخص معيَّن يصلح لهذا المقام، ووافقه أهل الحل والعقد؛ فإنه يعهد إليه من بعده؛ وعليه فلا بد من معرفة حقيقة العهد الذي تترتب عليه هذه المصلحة العظيمة للأمة.

تعريف العهد لغة: العهد كل ما عوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد، والعهد الوصية كقول سعد حين خاصم سعد بن زمعة في ابن أمته فقال: إن أخي عهد إلي فيه أي: أوصى، ومنه الحديث: ((تمسكوا بعهدِ بن أم عبد)) أي: ما يوصيكم ويأمركم، وهو عبد الله بن مسعود > والعهد التقدم

إلى المرء في الشيء، والعهد الذي يكتب للولاة مشتقٌّ منه، والجمع عهود، والعهد الموثق واليمين يحلف بهما الرجل، وقيل ولي العهد؛ لأنه ولي الميثاق والذي يؤخذ على من بَايَعَ الخليفة إلى غير ذلك من المعاني الأخر كالوفاء والأمان وغيرها مما ليس له صلة بموضوعنا.

والعهد في الاصطلاح: هو اختيار العاهد إنسانًا معينًا لعمل معين من أعمال الدولة يبدأ من رئاستها وينتهي إلى أدنى درجة من درجاتها، ويُسمى هذا الاختيار عهدًا، ثم انتقل المصدر عهد إلى الوثيقة المكتوبة التي يمليها أو يكتبها العاهد لغيرِهِ، فإذا ما قيل عهد انصرف المفهوم إلى أحد المعنيين؛ وفقًا لسياق العبارة أو لكليهما معًا.

أدلة مشروعيته: الاستخلاف جائز شرعًا، ومن الطرق المشروعة لانعقاد الإمامة إذا كان مكتمل الشروط. ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

١. قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: ((لقد هممتُ أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه؛ فأعهد أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنُّونَ، ثم قُلْتُ: يأبى الله، ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون)).

وفي رواية أخرى عن عائشة > قالت: قال لي رسول الله ﷺ: في مرضه: ((ادعِ لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابًا؛ فإني أخاف أن يتمنى متمنٍّ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر)). رواه مسلم.

ففي هذين الحديثين دلالةٌ واضحةٌ على أن النبي ﷺ هَمَّ أن يعهد، ثم تركه لعلمه أن الناس لن يختاروا غير أبي بكر > فدلّ على جوازه.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- تعليقًا على هذا الحديث في منهاج السنة "فبيَّن ﷺ أنه يريد أن يكتب كتابًا خوفًا، ثم علم أن الأمرَ واضحٌ ظاهر

ليس مما يقبل النزاع فيه قال: وتركه -أي: العهد والكتابة- لعدم الحاجة إليه، وظهور فضيلة الصديق واستحقاقه، وهذا أبلغ من العهد".

٢. ومن الأدلة على مشروعيته أيضًا فعل الخلفاء الراشدين { فقد استخلف أبو بكر عمر بن الخطاب، وعهد عمر بالأمر إلى الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ لاستخلاف من يرونه منهم، وقد قال عمر < : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني -يعني أبا بكر- وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، يعني رسول الله ﷺ.

وقد تقدم كيفية استخلاف كل من أبي بكر لعمر، ثم عمر للستة { وقد سبق هذا الاستخلاف مشاورات طويلة مع كبار المهاجرين والأنصار.

٣. ومن الأدلة على جواز الاستخلاف إجماع الصحابة، فلم تذكر الروايات أحدًا خالف، واحتج بأن العهد لا يجوز حينما عهد أبو بكر إلى عمر، ثم حينما عهد عمر بالأمر شورى إلى الستةِ من بعدِهِ؛ فدل ذلك على الجواز. قد حكى هذا الإجماع كثير من العلماء فقال الماوردي في الأحكام السلطانية، وأما انعقاد الإمامة بعهد من قبله فهو مما انعقد الإجماع على جوازه، ووقع الاتفاق على صحته.

وقال النووي في شرحه لـ(صحيح مسلم): حاصله أن المسلمين أجمعوا على أن الخليفة إذا حضرته مقدماتُ الموت وقبل ذلك يجوز له الاستخلاف، ويجوز له تَرْكُهُ، فإن تركه؛ فقد اقتدى بالنبي ﷺ في هذا، وإلا فقد اقتدى بأبي بكر < وأجمعوا على انعقادِ الخلافة بالاستخلاف. وقال ابن حزم: واتفقوا أن للإمام أن يستخلف قَبْل أم لا، ولم يختلف في جواز ذلك لأبي بكر < أحد، وإجماعهم هو الإجماع، بل اعْتَبَرَ أن هذه الطريقة هي أحسن الطرق وأفضلها فقال:

فوجدنا عقد الإمامة يصح بوجوه أولها وأفضلها وأصحها: أن يعهد الإمام الميت إلى إنسان يختاره إمامًا بعد موته، وسواء فعل ذلك في صحته أو في مرضه أو عند موته. إذ لا نص ولا إجماع على المنع من أحد هذه الوجوه ما فعل رسول الله ﷺ بأبي بكر.

وكما فعل أبو بكر بعمر، وكما فعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز قال: وهذا هو الوجه الذي نختارُهُ، ونكره غيره لما في هذا الوجه من اتصالِ الإمامةِ، وانتظامِ أمرِ الإسلام وأهله، ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب مما يتوقع في غيرِهِ من بقاء الأمة فوضى، ومن انتشارِ الأمرِ، وارتفاع النفوس وحدوث الأطماع.

والمراد بالإجماع فيما سبق هو إجماع أهل السنة فقط؛ لأن المعتزلة قد خالفوا أهل السنة في هذه الطريقة الاستخلاف، أو العهد حيث قصروها على الاختيار فقط، ونسب الشوكاني هذا القول إلى الأشعرية أيضًا، ولكن في هذه النسبة نظر؛ لأن أكثر الأشاعرة يوافقون أهل السنة في هذا المقام.

وبناء على ما سبق فإن طريقة الاستخلاف مشروعة بدلالة الكتاب والسنة، وإجماع السلف، ولا عبرة بما ذهب إليه بعض المُحدِّثين من محاولة الطعن في هذه الطريقة الشرعية، وزعمهم أنها تؤدي إلى الاستبداد والظلم ونحوها. وما علموا أن الكفاءة شرط أساسي في المستخلف، وأنه لا يتم إلا بعد مشاورةِ أهل الحل والعقد ومبايعتهم له، وأنه يشترط في المعهود له أن يكون مستكملًا لشروط الإمامة.

الإمامة في الإسلام: حقوق، وواجبات

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول :	من حقوق الرعية على الراعي	١٢٥
العنــــصر الثـــــاني :	من حقوق الراعي على الرعية	١٢٨

من حقوق الرعية على الراعي

من الأمور المتعلقة بالإمامة وجوب طاعتِهِم، وعدم الخروجِ عليهم، مع مراعاة لوازم ذلك، كما سيأتي:

تجتمع واجبات الراعي في أمرين أساسيين، هما: حفظ الدين، وإقامة سياسة الرعية به، وعليه تتحقق المقاصد السامية لمصالح العباد، في المعاش والمعاد؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال أبو المعالي في (غياث الأمم): "فقيض الله السلاطينَ وأولي الأمر وازعين ليوفّروا الحقوق على مستحقيها، ويبلغوا الحقوق ذويها، ويكفّوا المعتدينَ، ويعضدوا المقتصدين، ويشيدوا مبانيَ الرشاد، ويحسموا معاني الغي والفساد، فتنتظمُ أمور الدنيا، ويستمدُّ منها الدين الذي إليه المنتهى. فالقول الكلي: أن الغرض استبقاء قواعد الإسلام طوعًا أو كرهًا، والمقصد الدين، ولكنه لما استمد استمراره من الدنيا كانت هذه القضية مرعية، ثم المتعلق بالأئمة الأمور الكلية. ونحن الآن بعد هذا الترتيب نذكر نظر الإمام في الأمور المتعلقة بالدين، ثم نذكر نظره في الدنيا. وبنجاز القسمين يحصل الغرض الأقصى مما يتعلق بالأئمة والورى". انتهى كلامه.

وأما حقوقه فمدارها على طاعتِهِ في المعروف، ونصرته، وعدم الخروج عليه، ونصيحته وعدم غشّه، وبمراعاة هذه الحقوق من كل من الراعي والرعية يحصل

الوئام والوفِاق، والتعاون على البر والتقوى، الذي مآله إلى ما قال رسول الله ﷺ: ((خيارُ أئمتكُم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم، وتصلون عليهم)) الحديث رواه مسلم.

وبالجملة فأولى الناس بالإمامة، وأفضلهم الذين يحرصون على بذل الغاية في تحقيق مصالح رعاياهم المتعلقة بالدين والدنيا، ومراعاة حقوقهم بالقيام بالحق والعدل، والحماية من الظلم، والهداية، والإرشاد للحق على ما تقدم فيما سابق.

ومن أعظم مقاصد الإمامة حماية الدين من البدع والأهواء، والترصد لكل من أراد فيه بإلحاد من نشر الشبهات، وإثارة الفتن كما كان شأن الخلفاء والأئمة في القرون المفضلة.

قال الماوردي في (الأحكام السلطانية): "والذي يلزمه -يعني: الإمام- من الأمور العامة عشرة أشياء: أحدها: حفظ الدين على أصولِه المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدعٌ أو زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبيَّنَ له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود؛ ليكون الدين محروسًا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل".

ومما يلزم الإمام الحزم في أمر الدين، وعدم المحاباة ولا المجاملة فيه، فالحق أحق أن يتبع، وأمر الله وشرعه أحق أن يعمل به، وعلى هذا جرت سيرةُ النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بعده.

ويجب مع هذا على الإمام الرفق بالرعية، وعدمُ المشقةِ عليهم وإلحاقِ المضرة بهم كما قال رسول الله ﷺ: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا؛ فشقَّ عليهم فاشقُق عليه، ومن ولِيَ من أمرِ أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به)) رواه مسلم.

قال القاضي عياض في (إكمال المُعْلِم): "فيه الحض على الرفق، والنهي عن المشقة، وهو الذي أمر الله به نبيه ﷺ ووصفَهُ به، وحضَّ عليه في غير حديث، وأثنى عليه، وأنه يثيب على الرفق ما لا يثيب على المشقة، والمشقة: المضرة، والجهد، ومثله".

وقال النووي في (شرح مسلم): "وهذا من أبلغِ الزواجر، وأعظم الحثّ على الرفق بهم، وقد تظاهرت الأحاديثُ بهذا المعنى" وللأئمة أثر كبير في رعاياهم من حيث صلاحهم أو فسادهم، وقد ضرب أبو مسلم الخولاني لهذا مثلًا فقال: "مثل الإمام كمثل عين عظيمة صافية طيبة الماء يجري منها إلى نهر عظيم، فيخوض الناس النهر فيكدرونه، فيعود عليهم صفوُ العين، فإذا كان الكدرُ من قبل العين فسدّ النهر. قال: ومثل الإمام والناس كمثل فسطاطٍ لا يستقيم -أو قال: لا يستقل- إلا بعمود، ولا يقوم العمودُ إلا بأطناب -أو قال: بأوتاد- فكلما نزع وتدًا ازداد العمود وهنًا، فلا يصلح الناس إلا بالإمام، ولا يصلح الإمام إلا بالناس". رواه عبد الرزاق في (المصنف). والبيهقي في (شعب الإيمان).

وقد شهد لهذا الأمر كبراء الصحابة المقتدى بهم، والمهتدى بسيرتهم وسنتهم؛ فعن قيس بن أبي حازم قال: دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تكلم فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مصمتة. قال لها: تكلمي؛ فإن هذا لا يَحِل، هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت فقالت: من أنت؟ قال: من قريش. قالت: من أيِّ قريشٍ أنت؟ قال: إنك لسئول، أنا أبو بكر. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكُم عليه ما استقامت بكم أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رءوس وأشراف، يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى، قال: فهم أولئك على الناس". رواه البخاري في (صحيحه).

قال الحافظ في (فتح الباري): "قوله: "أئمتكم" أي: لأن الناس على دين ملوكهم، فمن حار من الأئمة عن الحال مال وأمال". وروي مثل هذا عن عمر بن الخطاب قال: "إن الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقَامت لهم أئمتهم وهداتهم". وعنه قال: "الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإن رتع الإمام رتعوا". رواهما ابن سعد في (الطبقات) وفي إسناديهما مقال.

وعن الأحنف بن قيس قال: "الوالي من الرعية مكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به، وموضع الرأس من أركان الجسد الذي لا بقاء له إلا معه". رواه ابن حبان في (روضة العقلاء).

قال أبو بكر الطرطوشي في (سراج الملوك): "لم أزل أسمع الناس يقولون: أعمالكم عُمَّالُكم، كما تكونون يولى عليكم، إلى أن ظفرت بهذا المعنى في القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. وكان يقال: ما أنكرت من زمانك؛ فإنما أفسده عليك عملك".

من حقوق الراعي على الرعية

ومن المقاصد العظمى المتعلقة بالإمامة، وجوبُ طاعة ولاة أمرنا في المعروف، وعدم الخروج عليه بحال من الأحوال، إلا أن يُرى الكفرُ البواح الذي للناس من الله فيه برهان، ولزوم جماعة المسلمين، وعدم التفرق في الدين، وكذلك الجهاد مع الإمام، والصلاة خلفه. وسنفصل كل ذلك من خلال النقاط التالية:

أولًا: المبادرة إلى البيعة والثبات عليها:

البيعة حق شرعي للإمام، فالواجب أداؤها إليه، والوفاء بها وعدم نكثها، ولا ينبغي أن يقصد بها عرض من الدنيا، أو حض عاجل منها، بل الواجب أن

تكون لله تعالى خالصة؛ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالطريق يمنع منه ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنياه، إن أعطاه ما يريد وفى له، وإلا لم يفِ له، ورجل بايع رجلًا بسلعةِ بعد العصر، فحلف بالله لقد أُعْطِي بها كذا وكذا، فصدقه فأخذها، ولم يعطِ بِهَا)). ورواه الترمذي في (سننه) وقال: "باب ما جاء في نكث البيعة".

قال القرطبي في (المُفْهِم): "وقوله: ((ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا)) إنما استحق هذا الوعيد الشديد؛ لأنه لم يقم لله تعالى بما وجب عليه من البيعة الدينية، فإنها من العبادات التي تجب فيها النيةُ والإخلاص، فإذا فعلها لغير الله تعالى من دنيا يقصدها، أو عرَضٍ عاجل يقصدُه، بقيت عهدتها عليه؛ لأنه منافقٌ مُرَاءٍ، غاشٌّ للإمام والمسلمين، غير ناصح في شيء من ذلك، ومن كان هذا حاله، كان مثيرًا للفتن بين المسلمين؛ بحيث يسفك دماءهم، ويستبيحُ أموالهم، ويهتك بلادَهُم، ويسعى في إهلاكِهم؛ لأنه إنما يكون مع من بلغه إلى أغراضه فيبايعه لذلك، وينصرُه، ويغضب له، ويقاتل مخالفه، فينشأ لذلك تلك المفاسد، وقد تكون هذه المخالفة في بعض أغراضه فينكث بيعته، ويطلب هلكته، كما هو حال أكثر هذه الأزمان؛ فإنهم قد عمهم الغدر والخذلان".

وقال السندي في (حاشيته على سنن النسائي): "وَفَى له، أي: ما عليه من الطاعة، مع أن الوفاء واجب عليه مطلقًا". وأخرج مسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ((من خلع يدًا من طاعة لقي الله يومَ القِيَامَةِ لا حُجَّةَ لَهُ، وَمَن مَاتَ ليس في عنقِهِ بيعةٌ، مَاتَ مِيتَةً جاهلية)). وفي رواية ابن أبي عاصم في (السنة): ((من نكث صفقتَهُ فَلَا حُجَّةَ لَهُ)).

ثانيًا: وجوب طاعة الإمام والسمع والطاعة له:

واجبٌ على كل مسلم السمع والطاعة للإمام ما لم يأمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، وله الطاعةُ في المعروف، هذا ما اتفق عليه السلف الصالح من هذه الأمة، وتواترت به الأخبارُ، واشتهرت فيه الآثارُ. فمما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن القيم في (إعلام الموقعين): "فأمَرَ تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالًا من غير عرضٍ ما أمر به على الكتاب، بل وجبت طاعته مطلقًا سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه؛ فإنه أوتي الكتاب ومثلَهُ معه، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالًا بل حذف الفعل، وجعل طاعتَهُم في ضمن طاعة الرسول، إيذانًا بأنهم إنما يُطَاعون تبعًا لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلافِ ما جاء به الرسول، فلا سمعَ ولا طاعةَ".

ومن الأحاديث الواردة في هذا المعنى ما أخرجه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة > قال: إن رسول الله ﷺ قال: ((من أطاعَني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطَاعَ أميري، فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني)).

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك > قال: قال رسول الله ﷺ: ((اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعْمِلَ عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة)). وأخرج البخاري، ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: ((السمعُ والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)).

ثالثًا: الأخذ بيد الإمام:

وعلى الرعية أن يقدروا ما على أئمتهم من العبء، ويشاركُوهُم في العسر واليسر، ويأخذوا بأيديهم إلى الخير، ويعينوهم على التَّقْوى والبر. وقد حث النبي ﷺ أمته على ذلك فقال: "خمس من فعل واحدة منهن كان ضامنًا على الله ﷻ -فذكر منها- أو دخل على إمامِه يريد تعزيره وتوقيره)). رواه أحمد في (المسند) وابن أبي عاصم في (السنة) وصححه الألباني في تعليقه عليه. وعن أبي ذر > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((سيكون بعدي سلطان فأعزوه، من التمس ذله ثغر ثغرةً في الإسلام، ولم يقبل منه توبة حتى يعيدها كما كانت)). رواه ابن أبي عاصم في (السنة). وصحح إسناده الألباني في تعليقه عليه.

وإعزاز الإمام يقتضي نصرته في الحق، وهدايته إليه، ونصحه له، والأخذ بيدِهِ إلى ما فيه صلاح دينِهِ ودنياه، وهذه كانت سيرةَ السلف الصالح من قبل؛ فقد روى ابن هشام، عن ابن إسحاق في (السيرة): أن أبا بكر خطب الناس حين استخلف فقال: "أما بعد، أيها الناس، فإني قد وُلِّيتُ عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني". وأخرجه معمر الأزدي في الجامع. وصحح إسناده ابن كثير في (البداية والنهاية).

رابعًا: النصيحة لأئمة المسلمين:

ومن واجب الرعيةِ نحو الأئمة النصحُ لهم، وإرشادهم للخير، وهدايتهم لما فيه صلاحُهُم، وقد رغَّبَ النبي ﷺ وأكَّد على النصيحة لهم في أحاديث منها ما أخرجه مسلم وغيره عن تميمٍ الداري أن النبي ﷺ قال: ((الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم)).

قال القاضي عياض في (إكمال المعلم): "ونصيحة أئمة المسلمين: طاعتهم في الحق، ومعونتهم عليه، وأمرهُم به، وتذكيرهم إيَّاه على أحسن الوجوه، وإعلامهم بما غَفُلوا عنه، ولم يبلغهم من أمور المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم".

وعن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاث خصالٍ لا يُغَلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم)). رواه أحمد، وابن أبي عاصم في السنة. وصحح إسناده الألباني في (ظلال الجنة).

ومما يجب على الناس في النصيحة مراعاة الآداب الشرعية، والأساليب الحسنة التي بيَّنها رسول الله ﷺ في قوله: ((من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبدِهِ علانية، ولكن يأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه)). رواه ابن أبي عاصم في (السنة). وصحح إسناده الألباني في تعليقه عليه.

وهذه النصيحة بهذه الطريقة المتضمنة الإخلاص لله ﷻ والقول اللين، والموعظة الحسنة بين يدي الأئمة، تؤدى إليهم ولو مع خوف بطشهم، وهذا يعدّ أفضل الجهاد كما قال رسول الله ﷺ: ((أفضل الجهاد، كلمة حقٍّ عند سلطان جائر)). رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: ((سيدُ الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمام جائرٍ فأمره ونهاه فقتَلَه)). أخرجه الحاكم في (المستدرك) وغيره.

خامسًا: الدعاء لأئمة المسلمين:

هكذا كان هدي من يريد الخير لهذه الأمة عامة حكامًا ومحكومين؛ فلم تكن تهمهم أنفسهم أكثر مما يشغلهم الحرصُ على إيصال الخير لهذه الأمة، ولو عن

طريق دعاء الله ﷻ وهو لا شك من أعظم الأسباب المحققة للمطلوب، والوسائلِ الموصلة للمرغوب، على أنه من أعظم العبادات والقُرُبَات إلى الله تعالى، ولم يغفلوا مع هذا عن القيام بما يمكنهم القيام به للتمكين لهذا الدين علمًا وعملًا.

وللإمام أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الواعظ الزاهد كلامٌ مفيدٌ في هذا المعنى نقله الحافظ أبو بكر البيهقي في (شعب الإيمان) في فصلِ نصيحةِ الولاة ووعظهم، قال: حدَّثنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل الحسن بن يعقوب بن يوسف العدل، حدثنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الواعظ الزاهد، حدثنا موسى بن نصر، حدثنا جرير، عن سهيل بن أبي صالح، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: ((الدين النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولنبيه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم)).

قال أبو عثمان: فانصح للسلطان، وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد بالقول والعمل والحكم؛ فإنهم إذا صلحوا صلحَ العباد بصلاحهم، وإيَّاك أن تدعو عليهم باللعنةِ، فيزدادوا شرًّا، ويزداد البلاء على المسلمين، ولكن ادع لهم بالتوبة، فيتركوا الشر فيرتفع البلاء عن المؤمنين، وإياك أن تأتيهم وتتصنعَ لإتيانهم، أو تحب أن يأتوك، واهرب منهم ما استطعت ما داموا مقيمين على الشر، فإنك لا تصيب دنيا ولا آخرة ما داموا مقيمين على الشر، فإن تابوا وتركوا الشر من القول والعمل والحكم، وأخذوا الدنيا من وجهها، فاحذر فتنة العز بهم؛ لتكون بعيدًا منهم قريبًا بالرحمة لهم والنصيحة إن شاء الله. انتهى كلامه.

سادسًا: الصلاة خلفَ كلِّ برٍّ وفاجر:

وعلى الرعية إقامة الصلاة جماعة خلف أئمتهم وإن أساءوا؛ فإن أهل السنة والجماعة، ومذهب السلف عامة على أن الصلاة خلف كل بر أو فاجر، ولا يجوز التخلف عن الجُمُعَاتِ والجَمَاعَات والأعياد؛ بسبب فسقهم وفجورهم.

قال البيهقي في (معرفة السنن والآثار): "قال الشافعي: من صلى صلاة مِنْ بالغ مسلم يقيم الصلاة أجزأه، ومَنْ خَلْفَه صلاتُهم وإن كان غيرَ محمود الحال في غير ذلك أيَّ غاية بلغ، يخالف الحمد في الدين. وقد صلى أصحاب رسول الله ﷺ خلف من لا يحمدون فعاله من السلطان وغيره".

وقال أبو عبد الله بن أبي زمنين في (أصول السنة): "ومن قول أهل السنة أن صلاة الجمعة والعيدين، وعرفة مع كل أمير بر أو فاجر من السنة والحق، وأن من صلى معهم، ثم أعادها، فقد خرج من جماعة من مضى من صالح سلف هذه الأمة، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة: ٩]، وقد علم -جل ثناؤه- حين افترض عليهم السعي إليها وإجابة النداء لها أنه يصليها بهم من مجرمي الولاة وفساقها من لم يجهله، فلم يكن ليفترض على عباده السعي إلى ما لا يجزيهم شهوده، ويجب عليهم إعادته، وقضاتهم وحكامهم، ومن استخلفوه على الصلاة، والصلاة وراءهم جائزة".

ومما يدل على هذا من السنة ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم)). قال الحافظ في (الفتح): "قال المهلب: في جواز الصلاة خلف البر والفاجر إذا خيف منه، ووجهٌ غيره قوله: "إذا خيف منه" بأن الفاجر إنما يؤم إذا كان صاحب شوكة".

وروى البخاري أيضًا عن عبيد الله بن عدي بن خيار أنه دخل على عثمان بن عفان < وهو محصور فقال: إنك إمام عامة، ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمامُ فتنة ونتحرج، فقال: الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم".

سابعًا: النهي عن الخروج على الأئمة:

ولا يجوز الخروج على الأئمة ومنابذتهم، وخلع طاعتهم، وقد تضافرت الأدلة بذلك، وتواترت بالترهيب منه؛ فعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: ((ستكونُ أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سَلِم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا)). رواه مسلم.

قال القاضي عياض في (إكمال المعلم): "وقوله: ((أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا)) على ما تقدم من منع الخروج على الأئمة والقيام عليهم ما داموا على كلمة الإسلام، ولم يظهروا كفرا بينا، وهو الإشارة هاهنا "ما صلوا"، أي: ما كان لهم حكم أهل القبلة والصلاة، ولم يرتدوا ويبدلوا الدين ويدعوا إلى غيره".

وعن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: ((خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم، وتلعنونهم، ويلعنونكم، قيل: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدًا من طاعة)). رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت قال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. قال: ((إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان)). رواه البخاري، ومسلم.

قال القاضي عياض في (إكمال المعلم): "ولا يجوز الخروج على الإمام العدل باتفاق، فإذا فسق وجار فإن كان فسقه كفرًا وجب خلعه، وإن كان ما سواه من

المعاصي فذهب أهل السنة: أنه لا يخلع، واحتجوا بظاهر الأحاديث، وهي كثيرة؛ ولأنه قد يؤدي خلعه إلى إراقةٍ الدماء، وكشف الحريم، فيكون الضرر بذلك أشد من الضرر به". يعني الإمام.

وقال النووي في (شرح مسلم): "وأما الخروج عليهم وقتالهم؛ فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقةً ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، وأما المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل، وحكي عن المعتزلة أيضًا، فغلط من قائله مخالف للإجماع. قال العلماء: وسبب عدم انعزاله، وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء، وفساد ذات البين؛ فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه". انتهى كلامه.

عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين بين الإقرار والإنكار

عناصر الدرس

العنصر الأول : عذاب القبر ونعيمه: شبهات، وردود ١٣٩

العنصر الثاني : أدلة أهل السنة والجماعة على إثبات عذاب القبر ونعيمه ١٤٥

عذاب القبر ونعيمه (شبهات وردود)

ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الإنسانَ يسأل في قبرِهِ وينعَّمُ، أو يعذب فيه، وأن ذلكَ يَقَعُ على الروح والجسد معًا، وتظاهرت بذلك نصوص الشريعة من الكتاب والسنة، وأجمع عَلَى ذلك أئمة السنة من الصحابة والتابعين، فمن بعدهم من أهل السنة والجماعة. وخالف في ذلك بعضُ الناسِ، وعارضوا نصوص الكتاب والسنة، بل والإجماع بآرائهم، وردُّوا معانيها إما جملةً، وإما تفصيلًا، على ما سنذكره فيما يلي:

١- ذهب بعض الخوارج، وبعض المعتزلة، كضرار بن عمرو، وبشر المريسي إلى نفي عذاب القبر مطلقًا. واستدلوا لما ذهبوا إليه بقول الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. واستدلوا أيضًا بحجةٍ عقلية داحضة فقالوا: إننا نرى شخصًا يصلب، ويبقى مصلوبًا إلى أن تذهب أجزاؤه، ولا نشاهد فيه إحياءً ولا مساءلةً، وكيف يعذب من أكلَته السباع والطيور، وتفرقت أجزاؤه في بطونها، ومن أحرق حتى يفتت، ثم تذرّى أجزاؤه في الرياح. هذه خلاصة شبههم الداحضة، ومحصلة آرائهم الفاسدة.

ولا عجب ولا استغراب ممن ألحَدَ في أسماء الله، وصفاته، وجحَد ما صرح به تعالى في محكم آياته، وردَّ مَا صَحَّ عن الرسول ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته، وحكم العقل في الشرع، وعارض الوحي الرحماني بالحدس الشيطَانِي، وقدَّمَ الآراء السقيمة على السنن المستقيمة، وآثر الأهواء الذميمةَ على المحاجة القويمة؛ فليس بعجيب، ولا غريبٍ ممن هذا شأنه أن ينكر عذابَ القبر، وغيره من أنباءِ

الغيب التي لا يشاهدها، وما له لا ينكر ذلك، وهو لا يعرف الإنسان إلا هذا الجسم من الجلد، واللحم والعظم، والعروق والأعصاب، والشرايين، ونحوها مما يمتلئ بكثرة الطعام، والشراب فيه، ويخْلُو بقتلِهِمَا عَلَيه.

وما له لا ينكر ذلك، وهو لا يقر بموجود إلا مسموعًا متكلمًا به مبصرًا مشمومًا ملموسًا، وما له لا ينكر ذلك، وطريقته في النصوص أبدًا تأويل الصريح، وتضعيف الصحيح، وأنها آحاد ظنية، لا تفيد اليقين، وليست بأصل بزعمه عند المحققين، ولا ذنبَ للنصوص، وما نقم منها إلا أنَّهَا خَالَفَتْ هَوَاهُ وصرحت بنقض دعواه وسدت عليه باب مغزاه وأوجبت عليه نبذ أقوال شيوخه وهدمت عليه ما قد بناه، وألزمته بإطراح كُلِّ قولٍ غير ما قَالَهُ الله، أو رسوله، ونادت عليه بأبلغ صوتٍ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى ٢١].

والجواب عن الشبهةِ الأولَى: أن الآية لا تدل على مدعاهم بوجْهٍ؛ فإنها في صفةِ أهلِ الجنة، وما لهم فيها من كمالِ النعيم، والخلدِ المقيم، وأنهم لا يذوقونَ فيها الموت، بل ينعمون، ولا ييأسون، ويخلدون فلا يموتون، وأين هذا من نفي عذاب القبر الذي ادَّعُوه، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ تأكيد لنفي الموت عنهم في الجنة، وما المانع من كونِ الروح تتصل بالجسدِ في البرزخ اتصالًا خاصًّا؛ ليتألم الجسدُ بما يتألَّمُ به من دونِ أن تكون حياته كالحياة الدنيوية، بل ما المانع من كونها حياة مستقرة لا تشبه الحياة الدنيا، وهي أعظم منها، فحَجَبَ اللهُ تعالى رؤيةَ ذلك عن عبادِهِ؛ رحمةً منه بهم.

كما يدل عليه ما أخبر بِهِ ﷺ في الأحاديث الآتية من الإقعاد، والمخاطبة، والسؤال، والجواب، كفاحًا كما يشاء الله ﷻ والفتح لبابِ الجنة للمؤمن، وفرشه منها، وفتح باب النار للمرتاب، وقمعه بالمطارق والمرازب، وغير ذلك

وأيضًا فأهل الجنة المشار إليهم بقوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ قد وردت فيهم الأحاديث الصحيحة: ((أن أرواحَهُم تسرح في الجنة في حواصل طيور خضر)) كما روى الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك بن أنس عن الإمام محمد بن شهاب الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: ((إنما نسمةُ المؤمن طائرٌ يعلَّقُ في شجرِ الجنة حتى يرجعه الله تعالى إلى جسدِهِ يوم يبعثه))، وفيهم الشهداء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

يقول الله تعالى لنبيه وأصحابه: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾، فهل شعرتم بذلك يا معاشر الزنادقة دونهم، ويقول تعالى فيهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآيات. وذلك بخلاف الذين كفروا؛ فإنهم كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر: ١١].

والموتة الثانية على أحد التفسيرين هي موتتهم بعد فتنة القبر، وتفسير الجمهور لا ينافي ذلك؛ فإنهم حملوا الموتة الأولى على العدم الذي قبل وجودهم. والثانية على الخروج من الدنيا، ولم يعدوا نومتهم بعد الفتنة في القبر موته مستقلة؛ لأن حال البرزخ من الموته الثانية: وليس هو من دار الدنيا، ولا دار الآخرة، بل هو حاجز بينهما، والتفسير أول محمول على موتتين بعد الوجود؛ خلا حالة العدم المحض قبل إيجادهم.

وروى ابن أبي حاتم بسندِهِ عن أبي هريرة، قال: إذا وضع -يعني-: الكافر في قبره فيرى مقعده من النار، قال: فيقول: رب ارجعون أتوب، وأعمل صالحًا،

قال: فيقال: قد عُمّرت ما كنت معمرًا، قال: فيضيق عليه قبره، ويلتئم فهو كالمنهوش ينام، ويفزع تهوى إليه هوام الأرض، وحيَّاتها وعقاربها".

وعن الشبهة الثانية الجواب من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ نفيٌ لاستطاعة الرسول ﷺ أن يسمعهم، وليس ذلك بمجال في قدرة الله أن يسعهم كما أسمع أهل القليب تبكيته ﷺ بقوله ﷺ: ((هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟)) وهذا إذا حمل على نفي مطلق السماع بالكلية.

الوجه الثاني: أنه لم ينفِ مطلق السماع، وإنما نفى سماع الاستجابة، كما يدل عليه قوله -صلى الله عليه و سلم- في حديث القليب: ((ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون)) وبهذا يتضح تشبيه الكفار بهم فإن الكفار كانوا يسمعون كلام النبي ﷺ ويسمعون منه كلام الله تعالى، وهو يتلوه عليهم، ولكن ليس ذلك بسماع استجابة ولهذا أثبت تعالى هذا السماع الظاهر لهم في قوله تعالى: ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ [الجاثية: ٨] ولو كان الكفار لم يسمعوا مطلقًا لا سماع استجابة، ولا مطلقًا لم يكن القرآن حجةً عليه، ولم يكن الرسول ﷺ بلغهم؛ لأنهم ما سمعوه منه، ولا أفسد من قول هذا لازمه.

وأما شبهتهم العقلية فهي لا تليق إلا بعقولهم السخيفة؛ فإن الروح التي عليها العذاب أو النعيم المتصل بالجسم ألمه ليس بمدرك في الدنيا، ولا يعلمه إلا الله، فمن كان لا يدرك روح من يمشي معه، ويكلمه ويأتمنه ويعامله، فكيف يُدركه إذا صار من عالم الآخرة ليس من عالم الدنيا، وأيضًا فاحتجاب ذلك عن أهل

الدنيا من حكمة الله تعالى البالغة، ورحمته بهم، وقد قال النبي ﷺ: ((لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوتُ الله ﷻ أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع)).

وأيضًا فأكثر أمورِ الإيمان اعتقاداتٌ باطنة من الأمور غائبة عنا، وهي أعلى صفات أهل الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣] وذلك غائب عنا في الحياة الدنيا ونحن نعلمه عن الله علم اليقين، فإذا خرجنا من هذه الدار صار الغيب شهادة.

ورأينا ذلك عين اليقين: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩] والذي أحرق أعضاؤه، وتفرقت أجزاؤه يجمعه الذي أبدأه من لا أجزاء ولا أعضاء. ولا فرق بين من كذب بجمع هذا وبين من كذب بجمع الناس ليوم لا ريب فيه ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [الأعراف: ٣٩] الآية.

٢. وذهب جماعة من الكرَّامية: إلى أن العذاب يقع على الجسد فقط، وأن الله يخلق فيه إدراكًا؛ بحيث يسمع ويعلم، ويلذ ويألم، واستدلوا بقصة مخاطبة النبي ﷺ لأصحاب القليب في بدر، فقد كان يخاطبهم قبل أن تعود الروحُ إليهم، وكانوا يسمعونه، وهكذا يكون السؤال في القبر.

والجواب: أن هذا لا يصلح دليلًا لما يدعونه، والأحاديث الصحيحة الكثيرة بخلاف ذلك، وهي تنص على الإقعاد والمخاطبة، وإجابة الإنسان على أسئلة الملكين، وغير ذلك مما يدل على وجود الروح.

٣. وذهب ابن حزم وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط، واستدلوا بأن الميت قد يشاهد في قبره حال المسألة، ولا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة.

والجواب: أن ذلك غير ممتنع في قدرةِ اللهِ تعالَى، بل له نظيرٌ في العادة وهو نائم، فإنه يجد لذةً وألمًا لا يدركه من يشاهده، بل إن اليقظان قد يجد ألمًا ولذة لما يفكر به، ولا يدرك ذلك من حوله، والمريضُ يتألمُ بجسمه، ولكننا لا ندرك ذلك إلا إذا صرخ من الألم مثلًا.

وقد كان جبريل # يأتي إلى رسول الله ﷺ وأصحابُه حضور؛ فيراه رسول الله ﷺ، ولا يراه أحد من أصحابه.

٤- وذهب أبو الهذيل من تبعه إلى أن الميت لا يشعر بالتعذيب، لا بغيره إلا بين النفختين، فهو كالنائم والمغشي عليه لا يحس بالضرب إلا بعد الإفاقة. وهذه دعوى عارية عن الدليل، إلا مجرد الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا، والنصوص كلها تدل على نقيض ذلك.

٥- وذهب بعض المعتزلة: إلى أن العذاب يقع على الكفار دون المؤمنين، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ الآية. والجواب: أن ذلك لا يلزم منه عدم وقوعه على المؤمنين، وأحاديث عذاب عصاة المؤمنين في القبر كثيرة، منها أحاديث عذاب القبر في البول والغيبة، وقد خصص البيهقي -رحمه الله- بابًا في تخويف أهل الإيمان من عذاب القبر.

٦- وذهب بعضهم: إلى أنه يسأل المؤمن والمنافق، وأما الكافر فلا يسأل، واستدلوا بما رواه عبد الرزاق من طريق عبيد بن عمير أحد كبار التابعين قال: إنما يفتن رجلان: مؤمن ومنافق، وأما الكافر: فلا يسأل عن محمد ولا يعرفه.

والجواب: أن هذا موقوفٌ، والأحاديث الناصة على أن الكافر يسأل مرفوعةٌ مع كثرة طرقها الصحيحة فهي أولى بالقبول.

أدلة أهل السنة والجماعة على إثبات عذاب القبر ونعيمه

وأدلة أهل السنة والجماعة كثيرة جدًّا، متواترة لفظًا ومعنى، من الكتاب والسنة.

أولًا: الأدلة من القرآن الكريم:

١. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، وهذا خطاب لهم عند الموت. قال ابن عباس وغيره: هذا عند الموت، والبسط هو الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم. وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، فدل على أن المراد به عذاب القبر.

٢. وقال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذا يحتمل عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال -وهو أظهر: إن من مَاتَ مِنْهُم؛ عذب في البرزخ، ومن بقي منهم؛ عذب في الدنيا بالقتلِ وغيرِهِ؛ فهو وعيد بعذابهم في الدنيا، وفي البرزخ.

٣. وقال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾. فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا لا يحتمل

غيره، فدل على ثبوت عذاب القبر. قال القرطبي: "الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ".

٤. وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٣: ٩٤] فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم الميعاد الأكبر، وقُدّم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية؛ إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام؛ كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

٥. وقال سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧] وهذا العذاب، وإن كان قبل الدفن، فهو من جملة العذاب الواقع يوم القيامة، والعذاب إنما أضيف إلى القبرِ؛ لكون معظمِهِ يقعُ فيه.

٦. وقال الله -تبارك وتعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة: ١٠١]. قال ابن جرير الطبري بعد أن ذكر الخلاف في ذلك: "والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والثانية؛ إما الجوع، أو السبي، أو القتل، أو الإذلال أو غير ذلك".

ثانيًا: أدلة عذاب القبر من السنة النبوية:

وأما نصوص السنة في إثبات عذاب القبر: فقد بلغت الأحاديث في ذلك مبلغ التواتر؛ إذ رواها أئمة السنة، وحملة الحديث، ونقاده عن الجمّ الغفير والجمع

الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، والبراء بن عازب، وعمر بن الخطاب، وابنهُ عبد الله وعائشة أم المؤمنين، وأسماء بنت أبي بكر، وأبو أيوب الأنصاري، وأم خالد، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وسمرة بن جندب، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن أرقم، وأبو بكرة، وعبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبوه عمرو، وأم مبشر، وأبو قتادة وعبد الله بن مسعود، وأبو طلحة، وأسماء أيضًا، وعبد الرحمن بن حسنة وتميم الداري، وحذيفة، وأبو موسى، والنعمان بن بشير، وعوف بن مالك.

وإذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه؛ وجدتها تفصيلًا وتفسيرًا لما دل عليه القرآن. وهذه بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

أولًا: عن ابن عباس: ((أن النبي ﷺ مَرَّ بقبرين، فقال: إنهما ليعَذَّبَانِ، وما يعذَّبَانِ في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستبرئُ من البول، وأما الآخر: فكان يمشي بالنميمة، ثم دعا بجريدة، فشقَّهَا نصفين، فقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)). رواه البخاري ومسلم.

ثانيًا: عن زيد بن ثابت؛ قال: ((بينما رسول الله ﷺ في حائطٍ لبني النجار على بغلتِهِ، ونحن معه إذ حادت به، فكادت تلقيه، فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: في الإشراك، فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا؛ لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)) الحديث. رواه مسلم.

ثالثًا: عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: ((إذا فرغ أحدكُم من التشهد الأخير؛ فليتعوّذ بالله من أربعٍ، من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنةِ المسيح الدجال)). رواه مسلم وأصحاب السنن.

رابعًا: عن أبي أيوب؛ قال: ((خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: يهود تُعذب في قبوره)). رواه البخاري ومسلم.

خامسًا: عن عائشة < قالت: ((دخلت عليَّ عجوز من عجائز يهود المدينة، فقالت: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتها، ولم أنعم أن أصدقها، قالت: فخرجت، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: إن عجوزًا من عجائزِ يهودِ أهلِ المدينةِ دخلتْ فزعمت: أن أهل القبور يعذبون في قبورهم؟ قال: صدقت؛ إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائمُ كلها، قالت: فما رأيته بعدُ في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر)). رواه البخاري ومسلم.

سادسًا: عن أنس < عن النبي ﷺ قال: ((العبد إذا وُضِعَ في قبره وتولى، وذهب أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدِكَ من النار أبْدَلَكَ اللهُ به مقعدًا من الجنة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعًا، وأما الكافر، أو المنافق، فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يُضرب بمطرقة من حديد ضربةً بين أذنيه، فيصيحُ صيحةً يسمعها من يليهِ إلا الثقلين)). رواه البخاري.

ورواه مسلم من طرق عن قتادة بنحوه، وزاد فيه قال قتادة: وذُكر لنا أنه: ((يفسح له في قبره سبعون ذراعًا -يعني المؤمن- ويملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون)) ولهما عنه < عن النبي ﷺ: ((وأعوذ بك من عذاب القبر)).
ولمسلم عنه < أن النبي ﷺ قال: ((لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع)).

سابعًا: عن البراء بن عازب < عن النبي ﷺ قال: ((إذا أُقْعِدَ المؤمنُ في قبره؛

أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾)) (إبراهيم: ٢٧). رواه البخاري في مواضع، ووافقه عليه مسلم وغيره.

ثامنًا: عن عمر بن الخطاب < قال: ((إن رسول الله ﷺ كان يُرينَا مصارعَ أهل بدر بالأمس، يقول: هذا مصرع فلان غدًا -إن شاء الله تعالى- قال: فقال عمر: فو الذي بعثه بالحق ما أخطئُوا الحدودَ التي حدَّ رسول الله ﷺ قال: فجعلوا في بئر بعضهم على بعض، وانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى اليهم فقال: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقًا؛ فإني وجدت ما وعدني الله حقًّا، قال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها، قال: ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم؛ غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليَّ شيئًا)). رواه مسلم من طرق عنه.

ولأبي داود والنسائي وابن ماجه عنه < : ((أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجبن والبخل، وعذاب القبر، وفتنة الصدر)). وأما حديث عبد الله بن عمر } فقال البخاري -رحمه الله تعالى- باب: الميت يعرض بالغداة والعشي: حدثنا إسماعيل، قال: حدثني مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر } أن رسول الله ﷺ قال: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)). وله عنه < قال: ((أطلَعَ النبي ﷺ على أهل القليب، فقال: وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون)). هذه بعض الأحاديث، وإلا فهي كثيرة جدًّا، جمع جملة منها البيهقي في كتابه (إثبات عذاب القبر).

تتمة الحديث عن عذاب القبر، ومسائل أخرى في الحياة البرزخية

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	ذكر بعض أسباب عذاب القبر	١٥٣
العنصر الثاني	:	هل يدوم عذاب القبر أم ينقطع؟ والحكمة في عدم الاطلاع عليه	١٥٦
العنصر الثالث	:	الحياة التي اختص بها الأنبياء والشهداء، وأنواع تعلقات الروح بالبدن	١٥٧
العنصر الرابع	:	الأدلة على انتفاع الميت بالأعمال التي تسبّب فيها في حياته	١٦٣
العنصر الخامس	:	حكم الدعاء للميت، وذكر الأقوال في الانتفاع به	١٦٥

ذكر بعض أسباب عذاب القبر

بعد أن ذكرنا الأدلة المتنوعة على إثبات عذاب القبر، يحسن أن نذكر لوازم ذلك وتتماته من أسباب عذاب القبر، والأسباب المانعة من ذلك، وكذلك لابد من بيان توابع ذلك من المسائل المتعلقة بحياة البرزخ:

الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل ومفصل:

أما المجمَلُ: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته، وأحبته، وامتثلت أمره، واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا؛ فإن عذاب القبر، بل وعذاب الآخرة أثر غضب الله، وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار بارتكاب مناهيه، ولم يتب ومات على ذلك، كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقِلٌّ ومستكثر، ومصدِّقٌ ومكَذِّب.

وأما المفصل: فقد أخبر رسول الله ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما: أن أحدهما كان يمشي بالنميمة بين الناس، والآخر كان لا يستتر من البول، والحديث في (الصحيحين) وغيرهما، ولفظه: ((مرَّ النبيّ ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهُمَا فكان لا يستتِرُ من البول، وأما الآخر: فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها باثنتين، ثم غرز على قبر منهما واحدة. قالوا: لم فعلت هذا يا رسول الله؟ قال: لعله يخفف عنهما ما لم تيبسا)).

قال الحافظ ابن رجب في كتابه (أهوال القبور): وقد روي هذا عن النبي ﷺ بهذا

المعنى من وجوهٍ متعددة، من حديث أبي بكر وعائشة، وأبي هريرة، وأنس، وابن عمر، وأبي أمامة وغيرهم من الصحابة { .

قال المحقق ابن القيم في (الروح): فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه، وإن كان صادقًا، وفيه تنبيهٌ على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابًا، كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيهًا على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض شروطها أشد عذابًا. وفي حديث شعبة: ((أما أحدهُمَا فكان يأكل لحوم الناس، فهذا مغتاب، وذاك نمام)).

وفي (صحيح البخاري) في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق. وفي حديث ابن مسعود في الذي ضرب في قبره سوطًا امتلأ القبر عليه نارًا؛ لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور، ومرّ على مظلوم فلم ينصره. وتعذيب من يقرأ القرآن، ثم ينام عنه بالليل، ولا يعمل به في النهار. وتعذيب الزناة والزواني، وتعذيب آكل الربا، كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ.

وحديث أبي هريرة وفيه: "رضخ رءوس أقوام بالصخر؛ لتثاقل رءوسهم عن الصلاة، والذين يأكلون الزقوم والضريع؛ لتركهم الزكاة، والذين يأكلون اللحم المنتن لزناهم، والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب.

ومن الذين يُعذّبون في قبورهم وأخبر عنهم النبي ﷺ: الجبارون والمتكبرون، والمراءون، والهمَّازون واللمَّازون، والطعانون على السلف، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرَّافِينَ فيسألونهم، ويصدقونهم، وأعوان الظلمة الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، ونحو هؤلاء ممن يشتغل بذنوب الناس عن ذنبه،

وبعيوبهم عن عيبه، فكل هؤلاء وأمثالهم يُعذّبون في قبورهم بهذه الجرائم، بحسب كثرتها وقلتها، وصغرها وكبرها، ولما كان أكثر الناس كذلك، كان أصحاب القبور معذبين، والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات وعذاب.

ويحسن في هذا المقام أيضًا أن نذكر بعض الأسباب المنجية من عذاب القبر، ومنها أيضًا مجملٌ ومفصل.

أما المجمل: فهو بحسب تلك الأسباب التي تقتضي العذاب، ومن أنفعِهَا أن يجلس عندما يريد النوم لله ساعةً يحاسب بها نفسه فيما على ما خسره، وربحه في يومه، ثم يجدّد له توبةً نصوحًا بينه وبين الله، فينامُ على تلك التوبة، ويعزمُ على أن لا يعود إلى الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلتِهِ مات على توبةٍ، وإن استيقظ مستقبلًا للعمل مسرورًا بتأخير الأجل، وليس للعبدِ أنفعُ من هذه التوبة؛ ولاسيما إذا عقب ذلك بذكر الله، واستعمال السنن، والتي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك، ولا قوة إلا بالله.

وأما المفصل: فمنها ما رواه مسلم في (صحيحه) من حديثِ سلمان الفارسي < قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((رباطُ يومٍ في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات أُجْرِيَ عليه عمله الذي كان يعمله، وأجريُ عليه رزقه، وأمن الفتان)).

وفي (سنن الترمذي) من حديث فضالة بن عبيد < عن رسول الله ﷺ قال: ((كل ميتٍ يختم عليه عمله إلاّ الذي مات مرابطًا في سبيل الله؛ فإنه يجرى عليه عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر)). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وتقدم ذكر الشهداء، وأيضًا الذي يقرأ "تبارك" الملك؛ فعن ابن عباس } قال: ضرب رجل من أصحاب النبي ﷺ خباءة على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر، أنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: ((هي المنجيةُ؛ تنجيه من عذاب القبر)). قال الترمذي: حديث حسن غريب.

هل يدوم عذاب القبر أم ينقطع؟ والحكمة في عدم الاطلاع عليه

عذاب القبر نوعان: نوع دائم سوى ما ورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين فإذا قاموا من قبورهم قالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾ [يس: ٥٢]، ويدلّ على دوامه قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ ﴾ [غافر: ٤٦] ويدل عليه أيضًا حديث سمرة الذي رواه البخاري في رؤيا النبي ﷺ وفيه فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة.

وفي حديث ابن عباس في قصة الجريدتين: ((لعله يخفف عنهما ما لم تيبسًا))، فجعل التخفيف مقيدًا برطوبتهما فقط، وفي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة، ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، وفي (الصحيح) في قصة الذي لبس بردين وجعل يمشي يتبختر؛ فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر، ((ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة)). رواه الإمام أحمد. وفي بعض طرقه: ((ثم يخرق له خرقًا إلى النار فيأتيه من غمِّهَا ودخانها إلى القيامة)).

النوع الثاني: إلى مدة ثم ينقطع. وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه، كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب. وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء، أو صدقة، أو استغفار، أو ثواب حج، أو غير ذلك مما ورد به النص، وهذا كما يشفع الشافع في المعذب في الدنيا فيخلص من العذاب بشفاعته، والله ﷻ لا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه، فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له، ولا تغتر بغير هذا؛ فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، (البقرة: ٢٥٥) ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٩] ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس: ٣] ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

الحياة التي اختص بها الأنبياء والشهداء، وأنواع تعلقات الروح بالبدن

بيان المراد بالحياة التي اختص بها الأنبياء والشهداء، وأنواع تعلقات الروح بالبدن: من الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء بعد موتهم، حديث أنس بن مالك > عن النبي ﷺ قال: (أَتَيْتُ -وفي رواية-: مررت عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ)) رواه مسلم.

وفي هذا الحديث مسائل، ودلائل على هذه المسألة نجملها فيما يلي:

أولًا: في هذا الحديث دليل على حياة الأنبياء بعد موتهم، وأنهم يتميزون عن سائرِ الأمواتِ، إلا الشهداء، بأن الله يحييهم مرةً أخرى حياة خاصة، فيها من النعيم والكرامة ما لا يتعرض له أحد من الناس.

وقد دلَّتْ على ذلك أدلةٌ أخرى كثيرة، من أصحها وأشهرها حديث الإسراء والمعراج، حيث جاء فيه: ((أن النبي ﷺ رأى الأنبياء في السماوات، وصلى بهم إمامًا في بيت المقدس)).

ومنها حديث أنس بن مالك > أن النبي ﷺ قال: ((الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون)). رواه البزار، وحسنه الألباني في (السلسلة الصحيحة).

وقد قرر ذلك أهل العلم في كتبهم، حتى صنف الإمام البيهقي في هذه المسألة جزءًا بعنوان: (حياة الأنبياء بعد وفاتهم)، وصنف الإمام السيوطي جزءًا بعنوان: (إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء).

وقال البيهقي -رحمه الله: لِحياة الأنبياء بعد موتهم -صلوات الله عليهم- شواهدُ من الأحاديث الصحيحة. انتهى. (حياة الأنبياء). وقال السيوطي -رحمه الله-: حياةُ النبي ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علمًا قطعيًّا؛ لما قام عندنا من الأدلة في ذلك، وتواترت به الأخبار" انتهى. (الحاوي للفتاوي).

ثانيًا: قال القرطبي -رحمه الله-: "وهذا الحديث يدل بظاهره على: أنه ﷺ رأى موسى رؤيةً حقيقيةً في اليقظة، وأن موسى كان في قبره حيًّا، يصلي فيه الصلاة التي كان يصليها في الحياة، وهذا كله ممكن لا إحالة في شيء منه، وقد صح أن الشهداء أحياء يرزقون، ووجد منهم من لم يتغير في قبره من السنين، وإذا كان هذا في الشهداء كان في الأنبياء أحرى وأولى" انتهى. (المفهم).

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "الأنبياء إنما استقرت أرواحُهُم هناك يعني: في السماء بعد مفارقة الأبدان، وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حالِ الحياة، ثم عادت، يعني: في الإسراء والمعراج- وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، ومع هذا فلها إشراف على

البدن، وإشراق، وتعلق به، بحيث يرد السلام على من سلم عليه، وبهذا التعلق رأى موسى قائمًا يصلِّي في قبره، ورآه في السماء السادسة.

ومعلوم: أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم ردّ إليه، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها، فرآه يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة، كما أنه ﷺ في أرفعِ مكان في الرفيق الأعلى مستقرًّا هناك، وبدنه في ضريحه غير مفقود، وإذا سلم عليه المُسَلِّم ردّ الله عليه روحه حتى يرد # ، ولم يفارق الملأ الأعلى.

ومن كَثُف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا، فلينظر إلى الشمس في علو محلها، وتعلقها وتأثيرها في الأرض، وحياة النبات والحياة بها، هذا وشأن الروح فوق هذا، فلها شأن، وللأبدان شأن، وهذه النار تكون في محلِّهَا، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها، مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم، فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف". انتهى.(زاد المعاد).

وقال الشيخ الألباني -رحمه الله-: "حياته ﷺ بعد وفاته مخالفةٌ لحياته قبل الوفاة؛ ذلك أن الحياة البرزخية غيب من الغيوب، ولا يدري كنهَها إلا الله ﷻ ولكن من الثابت والمعلوم أنها تختلف عن الحياة الدنيوية، ولا تخضع لقوانينها، فالإنسان في الدنيا يأكل ويشرب ويتنفس، ويتزوج، ويتحرك، ويتبرز، ويمرض ويتكلم، ولا أحد يستطيع أن يثبت أن أحدًا بعد الموت حتى الأنبياء -عليهم السلام- وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ تعرض له هذه الأمور بعد موته.

ومما يؤكد هذا أن الصحابة } كانوا يختلفون في مسائل كثيرة بعد وفاته، ولم يخطر في بال أحد منهم الذهاب إليه ﷺ في قبره، ومشاورته في ذلك، وسؤاله عن الصواب فيها لماذا؟

إن الأمر واضح جدًّا، وهو أنهم كلهم يعلمون أنه ﷺ انقطع عن الحياة الدنيا، ولم تعد تنطبق عليه أحوالها ونواميسها، فرسول الله ﷺ بعد موته حي أكمل حياة يحياها إنسان في البرزخ، ولكنها حياةٌ خاصة لا تشبه حياة الدنيا، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: ((ما من أحَدٍ يسلم عليَّ إلا رَدَّ اللهُ علي روحي حتى أرد #))، وعلى كل حال فإن حقيقتها لا يدريها إلا الله ﷻ ولذلك فلا يجوز قياس الحياة البرزخية، أو الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية، كما لا يجوز أن تعطى واحدة منها أحكام الأخرى، بل لكل منها شكلٌ خاص، وحكم معين، ولا تتشابه إلا في الاسم، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله -تبارك وتعالى- انتهى. كتابه (التوسل).

ثالثًا: صلاة موسى # وسائرِ الأنبياء في قبورهم ليست على وجه التكليف؛ إذ التكليف منقطع بالموت، وإنما هي على وجه التنعم والتلذذ بعبادة الله وإقامة ذكره. قال القرطبي -رحمه الله-: "فإن قيل: كيف يصلون بعد الموت، وليس تلك الحال حال تكليف؟

فالجواب: أن ذلك ليس بحكم التكليف، وإنما ذلك بحكم الإكرام لهم والتشريف، وذلك أنهم كانوا في الدنيا حببت لهم عبادة الله تعالى، والصلاة بحيث كانوا يلازمون ذلك، ثم توفوا وهم على ذلك، فشرَّفهم الله تعالى بعد موتِهِم بأن أبقى عليهم ما كانوا يحبون، وما عرفوا به، فتكون عبادتهم إلهامية كعبادة الملائكة، لا تكليفية، وقد وقع مثل هذا لثابت البناني > ؛ فإنه حببت الصلاة إليه حتى كان يقول: اللهم إن كنت أعطيت أحدًا يصلي لك في قبره، فأعطني ذلك، فرآه مُلَحِّدُهُ بعدما سوَّى عليه لحده قائمًا يصلي في قبره، وقد دلَّ على صحة ذلك كله قول نبينا ﷺ: ((يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه))، وقد جاء في الصحيح: ((أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما تلهمون التنفس)). انتهى. (المفهم).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : "هذه الصلاة ونحوها مما يتمتع بها الميت، ويتنعم بها كما يتنعم أهل الجنة بالتسبيح، فإنهم يلهمون التسبيح كما يُلهم الناس في الدنيا النَّفَس؛ فهذا ليس من عمل التكليف الذي يطلب له ثواب منفصل، بل نفس هذا العمل هو من النعيم الذي تتنعم به الأنفس وتتلذذ به" انتهى. (مجموع الفتاوى).

رابعًا: حياة الأنبياء بعد موتهم، وخصائصها، وكيفيتها، وما يتعلق بذلك: كله أمر غيبيٌّ لا يرجع المرء من تكلف التنقير عنه بطائل، فالتسليم أولى، وتفويض العلم إلى الله هو الواجب ابتداء. وانتهى.

جاء في "فتاوى اللجنة الدائمة": "كل ذلك حق يجب الإيمان به والتسليم له، وإثبات أن رسول الله ﷺ رأى موسى # في قبره يصلي، ورآه أيضًا في السماءِ، والله على كل شيء قدير، ولا يجوز إنكارُ ما ثبت في النصوص الصحيحة عن النبي ﷺ لحيرة العقول فيه، أو قياس عالم الغيب وعالم البرزخ على عالم الشهادة، أو دعوى أن ذلك من مختلقات اليهود، فكل ذلك خطأ وضلال، وانحراف عن الصراط المستقيم". انتهى.

عن الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمة الله عليه- والشيخ عبد العزيز آل الشيخ، وعبد الله غديان، صالح الفوزان، وبكر أبو زيد. من المجموعة الثانية.

وجاء في (الدرر السنية): سُئل الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن أيضًا -رحمهم الله- عما ورد أن النبي ﷺ رأى موسى وهو يصلي في قبره، ورآه يطوف بالبيت، ورآه في السماء، وكذلك الأنبياء؟

فأجاب: هذه الأحاديث وأشباهها تُمَرُّ كما جاءت، ويُؤمَن بها، إذ لا مجال للعقل في ذلك؛ ومن فتح على نفسه هذا الباب هلك في جملة من هلك وقد

غضب مالك بن أنس لَمَّا سأله رجل عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، إلى آخر كلامه، ثم قال: وما أراكَ إلا رجلَ سوء، فأمر بإخراجه، هذه عادة السلف " انتهى.

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ الآية، هذه الآية تدل بظاهرها على أن الشهداء أحياءٌ غير أموات، وقد قال في آية أخرى لمن هو أفضل من كل الشهداء ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]

والجواب عن هذا: أن الشهداءَ يموتون الموتةَ الدنيوية، فتورث أموالهم، وتنكح نساؤهم بإجماع المسلمين، وهذه الموتة التي أخبر الله نبيه أنه يموتها ﷺ، وقد ثبت في الصحيح عن صاحبه الصِّدِّيق > أنه قال لما توفيالنبي ﷺ: "بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد مِتها" وقال: "من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمدًا قد مات" واستدل على ذلك بالقرآن، ورجع إليه جميع أصحاب النبي ﷺ.

وأما الحياة التي أثبتها الله للشهداء في القرآن، وحياته ﷺ التي ثبت في الحديث أنه يرد بها السلام على من سلم عليه: فكلتاهما حياة برزخية، ليست معقولة لأهل الدنيا.

أما في الشهداء: فقد نص تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، وقد فسرها النبي ﷺ بأنهم: تجعل أرواحهم في حواصل طيور خضر ترتع في الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش فهم يتنعمون بذلك.

وأما ما ثبت عنه ﷺ من أنه ((لا يسلم عليه أحدٌ إلا ردَّ الله عليه روحه حتى يرد #)) و ((أن الله وَكَّل ملائكته يبلغونه سلام أمته)) ؛ فإن تلك الحياة أيضًا

لا يعقل حقيقتها أهل الدنيا ؛ لأنها ثابتة له ﷺ مع أن روحه الكريمة في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى ، فوق أرواح الشهداء ، فتعلق هذه الروح الطاهرة التي هي في أعلى عليين بهذا البدنِ الشريف الذي لا تأكله الأرض يعلم الله حقيقته ، ولا يعلمها الخلق ، كما قال في جنس ذلك : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ .

ولو كانت كالحياة التي يعرفها أهلُ الدنيا لما قال الصديق > أنه ﷺ مات ، ولما جاز دفنُه ، ولا نصب خليفة غيره ، ولا قتل عثمان ، ولا اختلف أصحابه ، ولا جرى على عائشة ما جرى ، ولسألوه عن الأحكام التي اختلفوا فيها بعده ، كالعول ، وميراث الجد ، والإخوة ، ونحو ذلك.

وإذا صرح القرآن بأن الشهداء أحياءٌ في قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ ، وصرح بأن هذه الحياة لا يعرف حقيقتها أهل الدنيا بقوله : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ وكان النبي ﷺ أثبت حياته في القبر بحيث يسمع السلام ويرده ، وأصحابه الذين دفنوه ﷺ لا تشعر حواسهم بتلك الحياة ، عرفنا أنها حياة لا يعقلها أهل الدنيا أيضًا ومما يقرب هذا للذهن حياةُ النائم ، فإنه يخالف الحي في جميع التصرفات ، مع أنه يدرك الرؤيا ، ويعقل المعاني والله تعالى أعلم " انتهى. (دفع إيهام الاضطراب). والله أعلم.

الأدلة على انتفاع الميت بالأعمال التي تسبّب فيها في حياته

إنّ الميت ينتفع بأعمال نفسه : وهذه الأعمال قسمان : قسم عمله المسلم وهو حي ، وقسم عمله الآخرون ، ولكنَّ الميت كان سببًا في عمل الغير.

قال تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩، ٤١]، وهذا النص يدل على أن الإنسان ينتفع بأعمالِهِ التي عملها في الدنيا ، ومع أن ظاهرهُ الحصر إلا أنه لا يفيد الحصر ؛ لأنّ

النصوص الأخرى توسع هذا المعنى الظاهر، والمراد من النص هو الحضُّ على فعل الخير، وأن هذا الفعل سوف يكون لصاحبه يوم القيامة غير منقوصٍ قيد أنمُلَة.

قال رسول الله ﷺ: ((إذا مات ابن آدم انقطعَ عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له)). رواه مسلم، وهنا نجد توسيعًا للحصر السابق: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فللإنسان الميت ثوابُ الصدقة ما دامت جارية، وثواب العلم النافع ما دام جاري، والثوابُ من الولد الصالح ما دام يدعو لوالده الميت.

وقال رسول الله ﷺ: ((إن مِمَّا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا بناه لابن السبيل، أو نهرًا أكراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحتِهِ وحياته، تلحقه من بعد موته)). رواه ابن ماجه. وفي هذا الحديث توسيع و تفصيل للحديث السابق حيث أضاف أربعة أمور وهي ((مصحفًا ورثه، مسجدًا بناه، بيتًا بناه لابن السبيل، نهرًا أكراه)) إلى الثلاثة السابقة، وهي: ((صدقة جارية، علم ينتفع به، ولد صالح يدعو له)).

وقال رسول الله ﷺ: ((من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرُهَا، وأجرُ من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً؛ فعليه وزرُهَا وَوِزْر من عمل بها من بعده من غير أن ينقصَ من أوزارهِم شيئًا)) رواه مسلم.

وهذا الحديث أضاف إلى الأحاديث السابقة معنىً آخر، وهو أن المسلم ينتفع بأعمال الخير التي يعملها غيره إذا كان سببًا في عملها، وأضاف معنى ثانيًا: وهو

أن المسلم يتضرر بأعمال الشر التي يعملها غيره إذا كان سببًا في عملها، تمامًا كما يتضرر بأعمال الشر التي كان يعملها في حياته، وأضاف معنىً ثالثًا، وهو المساواةُ في أجر عمل الخير، والمساواة في وزر عمل الشر بين العامل والمتسبب.

حكم الدعاء للميت، وذكر الأقوال في الانتفاع به

مذهب أهل السنة والجماعة في حكم الدعاء والانتفاع به، مع ذكر الأقوال في انتفاع الأموات بدعاء الأحياء، والراجح في ذلك:

ذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام: إلى أن الميت لا يصل إليه شيء البتة لا دعاء ولا غيره، وهذا مناقض لما دلت عليه النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع، فمما جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم؛ فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء وقد يمكن أن يقال: إنما انتفعوا باستغفارهم؛ لأنهم سنُّوا لهم الإيمان بسبقهم إليه؛ فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين في حصوله لهم؛ لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة.

وفي السنن من حديث أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء)). وفي (صحيح مسلم) من حديث عوف بن مالك قال: ((صلى على جنازة فحفظت من دعائه، وهو يقول: اللهم اغفر له وارحمه، وعافِهِ واعْفُ عنه، وأكْرِمْ نزله وأوسع مدخله، واغسله بالماء، والثلج والبرد، ونقِّهِ من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا

من دارِه، وأهلًا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذْهُ من عذاب القبر، وعذاب النار)).

وفي السنن عن وَاثِلَةَ بن الأسقع قال: ((صلّى على رجلٍ من المسلمين فسمعته يقول: اللهم إن فلانًا ابن فلان في ذِمَّتِكَ، وحبل جوارك، فَقِهِ من فتنة القبر، وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء، والحق، فاغفر له، وارحمه إنك الغفور الرحيم)). وهذا كثيرٌ في الأحاديث، بل هو المقصودُ بالصلاةِ على الميت، وكذلك الدعاء له بعد الدفن. وفي السنن من حديث عثمان بن عفان > قال: ((كان النبيُّ إذا فَرَغَ مِن دفْنِ الميتِ، وقف عليه، فقال: استغفروا لأخِيكُم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآنَ يُسْئَل)).

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في (صحيح مسلم) من حديث بريدة بن الخصيب قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: ((السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسألُ اللهَ لنا ولكُم العافية)).

وفي (صحيح مسلم) أن عائشة > سألت النبي ﷺ كيف نقول إذا استغفرت لأهل القبور قال: ((قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون)).

وفي (صحيحه) عنها أيضًا: أن رسول الله ﷺ خرج في ليلتها من آخر الليل إلى البقيع فقال: ((السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غدًا مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد)) ودعاء النبي ﷺ للأموات فعلًا وتعليمًا، ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عصرًا بعد عصر أكثر من أن يذكر، وأشهر من أن ينكر، وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد في الجنة فيقول: أنى لي هذا فيقال: بدعاء ولدك لك.

أشراط الساعة وأماراتها (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	معنى الأشراط والعلامات لغة واصطلاحا	١٦٩
العنصر الثاني :	أشراط الساعة وعلاماتها في الكتاب والسنة	١٧٤
العنصر الثالث :	أقسام أشراط الساعة	١٧٦

معنى الأشراط والعلامات لغة واصطلاحا

لما كان اليوم الآخر من الأمور الغيبية، أعان الله ﷻ خلقه على الإيمان به بأمور كثيرة، ومن ذلك ربط هذا الغيب بالأمور المحسوسة، فإن الغيب إذا ربط بالأمور المحسوسة سهل الإيمان به على الإنسان، ومن هذه الأمور المحسوسة التي تعين على الإيمان باليوم الآخر، أشراط الساعة.

وأهمية معرفة هذه الأشراط والأمارات، تظهر من أهمية الإيمان باليوم الآخر، ولذلك فإن الإيمان بأشراط الساعة وعلاماتها الصحيحة الثابتة، جزء لا يتجزأ من الإيمان باليوم الآخر، والذي هو الآخر جزء لا يتجزأ من الإيمان بالغيب.

والحديث عن أشراط الساعة مهم، ولا سيما إذا ابتعد الناس عن تذكر الآخرة واشتغلوا بالدنيا وملذاتها، فإن في أشراط الساعة المحسوسة التي تظهر ويراها الناس بأعينهم كما أخبر النبي ﷺ ما يعيد الناس إلى ربهم ويوقظهم من غفلتهم.

يقول القرطبي -رحمه الله-: قال العلماء -رحمهم الله تعالى-: الحكمة في تقديم الأشراط، ودلالة الناس عليها، تنبيه الناس من رقدتهم وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة، كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة، قد نظروا لأنفسهم وانقطعوا عن الدنيا واستعدوا للساعة الموعود بها. والله أعلم.

والإيمان بأشراط الساعة جزء من الإيمان باليوم الآخر الذي هو ركن من أركان الإيمان. والإيمان بالغيب هو أساس الإيمان كله؛ لأن أركان الإيمان كلها من الأمور الغيبية، وقد بين الله ﷻ في كتابه المبين أن الإيمان بالغيب من صفات

المؤمنين المتقين فقال ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١: ٥].

ومعلوم -من الدين بالضرورة- أن علم الغيب من خصائص الله وحده.

ومن الآيات في هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾.

يقول الإمام القرطبي في تفسيرها: "فإنه لا يجوز أن ينفي الله ﷻ شيئًا عن الخلق ويثبته لنفسه، ثم يكون له في ذلك شريك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾، فكان هذا كله مما استأثر الله بعلمه لا يشركه فيه غيره".

ولقد شاء الله -تبارك وتعالى- أن يجعل علم الساعة غيبا من جملة علم الغيب الذي استأثر بعلمه فلم يطلع عليه أحدا من خلقه لا نبيا مرسلا، ولا ملكا مقربا، وذلك ليبقى الناس من الساعة على حذر دائم، وتوقع مستمر واستعداد كامل لاتخاذ الزاد المناسب لها، فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل، والإيمان بذلك من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر.

وبهذا تظهر لنا أهمية الإيمان بالغيب ومكانته في الإسلام، فهو صفة المؤمنين المتقين، وكل من يدعي علما بشيء من الغيب من تلقاء نفسه، يكون ضالا ومكذبا لخبر الله ﷻ. ونصوص الكتاب والسنة تبين أن علم الغيب من خصائص المولى -تبارك وتعالى- وهذا يبين لنا حكم الذين يزعمون أنهم يخبرون عما سيقع في المستقبل من حوادث، أو يزعمون علم ما في نفس الإنسان، وغير ذلك من

كذب ودجل وشعوذة، مما نجد له صورا في بعض الصحف والمجلات التي تحتوي على زاوية لقراءة حظ الإنسان، أو معرفة ما يقع له في المستقبل خلال معرفة الأبراج والكواكب، نسأل الله السلامة والعافية.

ومن أصول الإيمان ولوازمه، التصديق الجازم بكل ما أخبر به النبي ﷺ والتسليم بصحة كل ما أخبر به، وبأنه بلغ الرسالة؛ لأن ما جاء به وحي من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾. وقد قال الله تعالى في الرسول ﷺ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

قال ابن القيم: "وقد أوجب الله سبحانه وتعالى على جميع الخلق، طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وحذرهم من مخالفة أمره، وجعل طاعته سبحانه وتعالى طاعة للرسول ﷺ، ذلك أن التصديق الجازم بالرسول ﷺ يقتضي التسليم المطلق والتام لما جاء به، ويستلزم طاعته فيما بلغه عن الله تعالى، وهذا من أعظم لوازم محبته ﷺ والإيمان به، وهو من مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله.

وقد جاءت نصوص كثيرة في القرآن والسنة توجب طاعة الرسول ﷺ وتبين العلاقة بينها وبين طاعة الله تعالى، وتحذر من معصيته ومخالفة أمره ﷺ قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

يقول الموفق أبو محمد المقدسي -رحمه الله-: "ويجب الإيمان بكل ما أخبر به رسول الله ﷺ، وصح به النقل عنه فيما شهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه، مثل

حديث الإسراء والمعراج، ومن ذلك أشراط الساعة مثل: خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم # وقتله له، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذلك مما صح به النقل".

معنى الأشراط والعلامات لغة:

الأشراط جمع شرط بالتحريك، والشرط العلامة، وأشراط الساعة، أي: علاماتها، وأشراط الشيء أوائله، ومنه شُرَط السلطان، وهم نخبةُ أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من مجموع جندِهِ. قال الجوهري: أشراط الساعة علاماتها، وأسبابها التي دون معظمها وقيامها".

وقال ابن الأثير: "الأشراط: العلامات، واحدها شرط بالتحريك، وبه سميت شُرَط السلطان؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها".

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٩]: "أشراطها، أي: أماراتها وعلاماتها، وقيل: أشراط الساعة أسبابها التي هي دون معظمها، وفيه يقال للدُّون من الناس الشُّرْط إلى أن قال: وواحد الأشراط شرط، وأصله الأعلام، ومنه قيل الشرط؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، ومنه الشرط في البيع وغيره".

فتبين من هذا أن الأشراط في اللغة هي علامات الشيء المتقدمة عليه والدالة عليه، ومما يدل على تسمية هذه الأشراط في السنة بالعلامات ما جاء في حديث جبريل المشهور عند النسائي، قال: ((يا محمد، أخبرني متى الساعة، قال: فنكس، فلم يجبه شيئًا، ثم أعاد فلم يُجِبْهُ شيئًا، ثم أعاد فلم يجبه شيئًا ورفع رأسه، فقال: ما المسئولُ عنها بأعلمَ من السائل؛ ولكن لها علامات تعرف بها)) الحديث.

والساعة: هي جزءٌ من أجزاء الليل أو النهار، وجمعها ساعات وساع.

والساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامَة، وقد سُمِّيَت بذلك لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفاجئ الناس في ساعةٍ فيموت الخلق كلهم بصيحةٍ واحدة.

قال ابن منظور في (لسان العرب): "وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] يعني بالساعة: الوقت الذي تقومُ فيه القيامة، فلذلك ترك أن يعرف أيَّ ساعةٍ هي، فإن سميت القيامة ساعة فعلى هذا، والساعة القيامة".

وقال الزجاج: "الساعة اسمٌ للوقت الذي تصعق فيه العباد، والوقت الذي يبعثون فيه، وتقوم فيه القيامة. سميت ساعة؛ لأنها تفاجئ الناس في ساعةٍ فيموتُ الخلق كلهم عند الصيحة الأولى، والساعة في الأصلِ تطلق بمعنيين: أحدهما: أن تكون عبارةً عن جزء من أربعة وعشرين جزءًا هي مجموع اليوم والليلة.

والثاني: أن تكون عبارةً عن جزءٍ قليلٍ من النهارِ أو الليلِ. قال الزجاج: معنى الساعة في كل القرآن الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم؛ فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة".

معنى الأشراط والعلامات اصطلاحًا:

أشراط الساعة اصطلاحًا: هي العلامات التي تسبق يوم القيامة وتدل على قدومها. أو يقال: أشراط الساعة هي: علاماتها الدالة على قرب وقوعها، أو هي مبتدؤها وأولها. وإلى نحو هذا أشار أبو عبيدة والجوهري، وابن الأعرابي، والحليمي، والبيهقي، وابن حجر وغيرهم.

يقول الحليمي: "أما انتهاء الحياة الأولى فإن لها مقدمات تُسمى أشراط الساعة وهي أعلامها". ويقول البيهقي في تحديد المراد من الأشراط: "أي: ما يتقدمها من العلامات الدالة على قرب حينِهَا". ويقول الحافظ ابن حجر: المراد بالأشراط: "العلامات التي يعقبها قيام الساعة".

أشراط الساعة وعلاماتها في الكتاب والسنة

الأدلة من الكتاب على أشراط الساعة وعلاماتها:

موعد قيام الساعة من الغيب الذي استأثر الله ﷻ بعلمه، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وإذا كان الله ﷻ قد أخفى الساعة عن الخلق، فقد جعل لها ﷻ علامات تدل على قرب وقوعها، ومن الآيات الدالة على ذكر الأشراط قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾.

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "فقد جاء أشراطها أي: أمارات اقترابها كقوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧] وكقوله -جلت عظمته: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾، (القمر: ١) وكقوله -تبارك وتعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١] وقوله -جل وعلا: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١] فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله -تبارك وتعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك، وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله".

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الأدلة على بعض أشراط الساعة مثل: خروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، وغيرها.

الأدلة من السنة على أشراط الساعة وعلاماتها:

وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ فيها ذكر جملة من أشراط الساعة وعلاماتها، ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب > المشهور بحديث جبريل، حيث سئل فيه ﷺ عن الإسلام، والإيمان والإحسان، ووقت الساعة، وفيه قال جبريل # لرسول الله ﷺ: ((... فأخبرني عن الساعة؟ فقال ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أمارَاتِهَا؟ قال: أن تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَهَا، وأن ترى الحفاةَ العُرَاةَ العالةَ رعاءَ الشاء، يتطاولون في البنيان)) رواه مسلم.

ومنها حديث عوف بن مالك > قال: "أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة أدم فقال: ((اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتان يأخذُ فيكم كقُعاص الغنم، ثم استفاضةُ المال حتى يعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنةٌ لا يبقى بيتٌ من العرب إلا دخلته، ثم هدنةٌ تكون بينكم، وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانينَ غاية، تحت كل غايةٍ اثنا عشرَ ألفًا)). رواه البخاري. فقوله: موتان بضم الميم وسكون الواو: هو الموت كثير الوقوع.

وقوله: قعاص الغنم: القعاص بالضم: هو داء يصيب الدواب، فيسيل من أنوفها شيئًا فتموت فجأة. وبنو الأصفر: هم الروم. والغاية: الراية، سميت بذلك؛ لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف.

ومنها حديث أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((لَا تقومُ الساعةُ حتَّى تقتتلَ فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجَّالُونَ كذَّابُونَ قريبٌ من ثلاثين، كلهم يزعُمُ أنه رسولُ الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج -وهو القتل- وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهمّ ربّ المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتَّى

يتطاولَ الناسُ في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبرِ الرجلِ فيقول: يا ليتنِي مَكَانَهُ، وحتَّى تطلعَ الشمْسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانِهَا خيَرًا)) رواه البخاري.

ومنها حديث حذيفة بن أسيد الغفاري > قال: ((طلع النبي ﷺ علينا، ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلهَا عشرَ آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغرِبهَا، ونزول عيسى ابن مريم # ويأجوج ومأجوج، وثلاثةَ خسوفٍ: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)) رواه مسلم.

إلى غير ذلك من الأحاديث، وهي كثيرة جدًّا. وهذه العلامات منها ما هو قريبٌ من قيام الساعة، وهو ما يُسَمَّى بعلاماتِ الساعةِ الكبرَى، مثل: نزول عيسى ابن مريم # وخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها وغيرها، ومنها ما يكون قبل ذلك وهو ما يُسمى بعلامات الساعة الصغرى.

أقسام أشراط الساعة

قال العلامة السفاريني: "ثم اعلم أن أشراط الساعة وأماراتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم ظهر وانقضى: وهو الأمارات البعيدة. وقسم ظهر ولم ينقض بل لا يزال في زيادة. والقسم الثالث: الأمارات الكبيرة التي تعقبها الساعة، وهي تتابع كنظام خرزات انقطع سلكها.

فالأولى - أعني التي ظهرت ومضت وانقضت -: منها: بعثة النبي ﷺ وموته، وفتح بيت المقدس. ومنها: قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان > قال حذيفة: أول الفتن قتل عثمان".

وذكر الحروب التي وقعت بين المسلمين بعد ذلك، وظهور الفرق الضالة كالخوارج والرافضة... ثم قال: "ومنها: خروج كذابين دجالين كل منهم يدعي أنه نبي. ومنها: زوال ملك العرب، رواه الترمذي. ومنها: كثرة المال، رواه الشيخان وغيرهما. ومنها: كثرة الزلازل والخسف والمسخ والقذف وغير ذلك مما أخبر عنه النبي ﷺ أنه من أمارات الساعة فظهر ومضى وانقضى.

القسم الثاني: الأمارات المتوسطة: وهي التي ظهرت ولم تنقضِ بل تتزايد وتكثر، وهي كثيرة جدًّا.

القسم الثالث من أمارات الساعة: العلامات العظام والأشراط الجسام التي تعقبها الساعة، ومنها: خروج المهدي، والمسيح الدجال، ونزول عيسى ابن مريم # وخروج يأجوج ومأجوج، وهدم الكعبة، والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج النار من قعر عدن، ثم النفخ في الصور ثم نفخة الفزع، ثم نفخة الصعق وهلاك الخلق، ثم نفخةُ البعث والنشور.

وفي إخباره ﷺ بذلك رحمة بالعباد؛ ليحذروا، ويستعدوا، ويكونوا على بصيرة من أمرهم؛ فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم الذي بلغ البلاغ المبين وبين غاية التبيين، ونحن على ذلك من الشاهدين.

وأول هذه العلامات: ظهور المهدي، ثم خروج الدجال، ثم نزول المسيح # ثم تتتابع.

أشراط الساعة وأماراتها (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول : أشراط الساعة الصغرى ١٨١
العنصر الثاني : أشراط الساعة الوسطى ١٩٠

أشــــراط الـــــساعة الـــــصغرى

قد تقدم الكلام على أشراط الساعة إجمالا، وبينا أن هذه العلامات منها ما هو قريب من قيام الساعة، وهو ما يسمى بعلامات الساعة الكبرى، مثل: نزول عيسى # وخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها وغيرها، ومنها ما يكون قبل ذلك وهو ما يسمى بعلامات الساعة الصغرى.

وهذه الأخيرة أيضًا منها ما وقع وانقضى، ومنها ما هو مستمر الوقوع، ومنها ما لم يقع بعد، وعليه تفرع التقسيم التالي وهو العلامات الصغرى والوسطى، وكل ذلك ليس مما وردت فيه النصوص الصريحة، الحاسمة للنزاع، بل هذا كله مجرد اجتهاد لتقريب الأفهام. وهذه الأشراط والعلامات الواردة في الأحاديث السابقة وغيرها.

أشراط الساعة الصغرى:

وفيما يلي بيان لأهم أشراط الساعة الصغرى، وذلك من خلال النقاط التالية:

أولًا: بعثة الرسول ﷺ:

أخبر رسول الله ﷺ أن بعثته علامة من علامات الساعة، ودليل على قرب قيامها، حيث إنه ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده.

وقد دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ﷺ. منها حديث أبي هريرة > أن النبي ﷺ قال: ((بعثت أنا والساعة كهاتين)) يعني: أصبعين. رواه مسلم.

قال القرطبي -رحمه الله- وهو يتحدث عن أشراط الساعة أولها النبي ﷺ لأنه نبي آخر الزمان وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي.

وقال الحافظ ابن رجب -رحمه الله: وقد فسر قوله ﷺ: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))، فقرن بين السبابة والوسطى، بقرب زمانه من الساعة كقرب السبابة من الوسطى، وبأن زمن بعثته تعقبه الساعة من غير تخلّل نبي آخر بينه وبين الساعة، كما قال في الحديث الصحيح: ((أنا الحاشر يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ)) رواه البخاري ومسلم.

فالحاشر الذي يحشر الناس يوم القيامة على قدمه، يعني أن بعثهم وحشرهم يكون عقب رسالته، فهو مبعوثٌ بالرسالة، وعقيبه يجمع الناس لحشرهم، والعاقب الذي جاء عقيب الأنبياء كلهم، وليس بعده نبي، فكان إرساله ﷺ من علاماتِ الساعة.

ثانيًا: انشقاق القمر:

قال الله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ﴾. قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره عند هذه الآية ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديثِ المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

وقال الحافظ ابن رجب -رحمه الله- تعالى: "وقد جعل الله انشقاقَ القمر من علامات اقتراب الساعة كما قال تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ وكان

انشقاقه بمكة قبل الهجرة. وقد ورد في الأحاديث الصحيحة: أن القمر انشق في زمن النبي ﷺ منها حديث عبد الله بن مسعود > قال: ((بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنًى إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقةٌ وراء الجبل، وفلقةٌ دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا)) رواه مسلم. ومنها: حديث أنس > : ((أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر)) رواه مسلم.

ثالثًا: نارُ الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى لها:

وردت أحاديث عن النبي ﷺ تبين أن من علامات الساعة خروج نار من أرض الحجاز تضيء منها أعناق الإبل ببصرى.

فعن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقومُ الساعة حتى تخرجَ نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى)).

قال النووي -رحمه الله-: "خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت نارًا عظيمة جدًّا، من جنبِ المدينة الشرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع الشام، وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة. وهذه النار غير النار التي تخرج في آخر الزمان، وتحشر الناس، وتبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا.

رابعًا: كثرة الفتن:

وقد دلت نصوص كثيرةٌ صحيحةٌ على أن من علامات الساعة كثرةُ الهرج، وهو القتل واللغط، وظهور الفتن، وانتشارها، ونزولها في البلاد، وكبر بلائها وهولها، حتى يمسي المرء المسلم من شدة وقعها كافرًا، ويصبح مؤمنًا، ويمسي

كافرًا، وتجيء الفتنة تلو الأخرى فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتظهر أخرى، فيقول: هذه هذه إلى أن يشاء الله، فلا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه، وكلما طال الزمان بأهله، وبَعُدَ بهم كانت الفتن أشد، ومصائبها أعظم، كما شهدت بذلك نصوص الشرع، ودلت عليه الحوادث والوقائع، فعن الزبير بن عدي قال: "أتينا أنس بن مالك > فشكونا إليه ما نلقي من الحجاج فقال: ((اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ)). رواه البخاري.

وعن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا، ويصبح كافرًا، يبيعُ دينه بعرضٍ من الدنيا)). رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص } قال: ((كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلًا، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ، وأمور تنكرونها، وتجيء فتنٌ فيرقّقُ بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأتِهِ منيتُهُ، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناسِ الذي يحب أن يؤتى إليه..)) الحديث. وقد أرشد ﷺ المسلمين إلى ما يعصمهم من هذه الفتن والشرور والآثام فأمرهم بالتعوذ بالله منها، وبالابتعاد عنها مع المبادرة بالأعمال الصالحة، والإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر، ولزومِ جماعة المسلمين.

خامسًا: خروج الدجالين والكذابين أدعياء النبوة:

من أمارات الساعة وأشراطها: خروج الدجالين الكذابين، الذين يدَّعُون النبوة ويثيرون الفتنة بأباطيلهم، وقد أخبر النبي ﷺ أن عددَ هؤلاء قريبٌ من ثلاثين، فقال ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذَّابُون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله)).

وقد تحققت ووقعت هذه الآية، والعلامة من علامات الساعة، فخرج كثير من أدعياءِ النبوة قديمًا وحديثًا، ولا يستَبْعَد أن يظهر دجالون آخرون إلى أن يظهر الدجال الأعور الكذاب -نعوذ بالله من فتنته- فقد خطب رسول الله ﷺ يومًا فقال: ((إنه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابًا، آخرهم الأعور الكذاب)).

وعن ثوبان > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقومُ الساعة حتى تلحق قبائلُ من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكونُ في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي)).

وقد ظهر عدد من هؤلاء الأدعياء الكذابين كالأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وطليحة بن خويلد الأسدي، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، ومنهم الحارث بن سعيد الكذاب. وفي العصر الحديث قبل أكثر من قرن ظهر بالهند رجل يدعى ميرزا غلام أحمد القادياني -لعنة الله عليه- ادعى النبوة، وإليه تنتسب الطائفة القاديانية.

سادسًا: ولادة الأمة ربتها وتطاول الحفاة العراة رعاء الشاء في البنيان:

من علامات الساعة التي ظهرت وأخبر بها الرسول ﷺ ولادة الأمة ولدًا يكون له السيادة عليها، وتفاخر الناس بالبنيان الشاهق، وزخرفةُ البيوت بعد أن كانوا

حفاة يعيشون في خيام الشعر، ويرعون الشياه والبعير، كما دلَّ على ذلك الحديث المشهورُ عن عمر بن الخطاب > في حديث جبريل الطويل وسؤاله عن الإسلام والإيمان، والإحسان، والساعة، ((قال له جبريل # : فأخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلدَ الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالةَ رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)).

ومضمون ما ذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث: أن تنقلب الموازين، وتصبح الأمور في غير محلها اللائق بها، كأن يصبح الولد سيدًا ومولى لأمه، ويحدث هذا عندما يتسع الإسلام، ويكثر السراري، ويتخذ الناس السراري، ويكثر منهن الأولاد، فيكون الرجل من أمته في معنى السيد لأمه، إذا كانت مملوكة لأبيه، وملك الأب راجع إلى الولد، وكذلك ابنتها؛ لأنها في الحسب كأبيها. وكذلك بالنسبة للحفاة العراة رعاء الشاء، أهل الجهل والجفاء عندما تختل الموازين بكثرة الأموالِ بين أيديهم، يصبحون هم رءوس الناس، فيتطاولون في البنيان ويتنافسون على وجه التفاخر والخيلاء، في زخرفَةِ العمارات وعدد أدوارها بعد أن كانوا أهل تنقل وترحال لا تستقر بهم دار.

سابعًا: قبض العلم وظهور الجهل:

من علامات الساعة التي أخبر بها رسول الله ﷺ: قبض العلم وظهور الجهل، فعن أبي موسى وعبد الله بن مسعود } قالا: قال رسول الله ﷺ: ((إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج)) والهرج: القتل.

وعن أنس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا))، وعن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((يتقاربُ الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، قالوا: يا رسول الله، أيم هو؟ قال: القتل القتل)).

وقد ورد ما يدل على أن المراد برفع العلم وكثرة الجهل: موت العلماء فلا يبقى إلا الجهال الذين يتخذهم الناس رؤساء فيضلوا، ويضلوا غيرهم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص } قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله تعالى لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعه من العبَادِ، ولكن يقبضُ العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وأضَلُّوا)).

ثامنًا: تكليم السباع والجماد للإنس:

من أشراط الساعة التي أخبر بها الرسول ﷺ تكليم السباع الإنس، وإخبار فخذ الرجل بمايحدث أهله بعده، وكلام النعل والسوط لصاحبهما.

عن أبي هريرة > قال: ((صلى رسول الله ﷺ الصُبَّحَ، ثم أقبل على الناس فقال: بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربَهَا، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث، فقال الناس: سبحان الله بقرةٌ تكلم؟ فقال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثَمَّ، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب: يا هذا، استنقذتها مني فمن لها يوم السبع؟ يوم لا راعي لها غيري! فقال الناس: سبحان الله! ذئب يتكلم؟ قال: فإني أأومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم)).

وعن أبي سعيد الخدري > قال: ((عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، قال: ألا تتقي الله تنزع مني

رزقًا ساقه الله إليَّ، فقال: يا عجبي! ذئب مُقْعٍ على ذنبه يكلمني كلامَ الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجبَ من ذلك؟ محمد ﷺ بيثربَ يخبر الناس بأنباءِ ما سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمَهُ حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنُودِي بالصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: صدق، والذي نفسي بيدِهِ، لا تقومُ الساعة حتى يُكلم السباعُ الإنس، ويكلم الرجلُ عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده)).

تاسعًا: قطعُ الأرحام، وسوء الجوار، وظهور الفساد والفحش:

من علاماتِ الساعة التي أخبر بها الرسول ﷺ قطيعَةُ الرحم، وسوء الجوار، وظهور الفساد والفحش، ومن الأحاديث الدالة على ذلك: ما رواهُ عبد الله بن عمرو بن العاص { : أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقومُ الساعةُ حتى يظهر الفحش والتفاحش، وقطيعة الرحم، وسوء المجاورة)).

وقد وقع ما أخبرَ به الرسول ﷺ فنرى الفساد ظاهرًا بين الناس، كما نرى التقاطع وسوء الجوار حاصلًا بينهم، وحصل التباغض والتنافر بينهم محل المحبة والصلة والمودة، حتى إن الجار لا يعرف جاره، والقريب لا يعرف عن بعض أرحامه هل هم من الأموات أم من الأحياء، ولا نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل.

عاشرًا: كثرة الزلازل وظهور الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به بعض هذه الأمة:

من علامات الساعة وأماراتها التي أخبر بها الرسول ﷺ: كثرة الزلازل، وظهور الخسف، والقذف، والمسخ، وقد دل على هذا الأحاديث الثابتة عنه ﷺ فعن

أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقومُ الساعة حتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل)).

يقول الحافظ ابن حجر: "وقد وقع في كثيرٍ من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثيرٌ من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها".

وقد كثرت الزلازل في عصرنا الحاضر في أماكن متعددة، وهذا مصداق لما أخبر به رسول الله ﷺ. وعن عائشة > عن النبي ﷺ أنه قال: ((يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر الخبث)).

وعن عمران بن حصين > أن رسول الله ﷺ قال: ((في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت المعازِف، وكثرت القِيَان، وشُرِبَت الخمور)).

وعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا اتُّخِذَ الفيء دولًا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعقَّ أمه، وأدنى صديقه وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلةَ فاسقُهُم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرِم الرجل مخافَةَ شَرِّهِ، وظهرت القيناتُ والمعازِفُ، وشُرِبَتْ الخُمَور، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وزلزلة وخسفًا ومسخًا وقذفًا، وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فَتَتَابَعَ)). وفي هذا الحديث نظر.

وقد أخبر الرسول ﷺ: أن وقوع الخسف والمسخ والقذف في الزنادقة، وأهل القدر، فعن نافع قال: بينما نحن عند عبد الله بن عمر { قعودًا إذ جاء رجل، فقال: إن فلانًا يقرأ عليك السلام لرجل من أهل الشام، فقال عبد الله: بلغني

أنه أحدثَ حدثًا، فإن كان كذلك فلا تقرأنَّ عليه مني السلام، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنه سيكونُ في أُمَّتِي مسخٌ وقذفٌ، وهُوَ في الزنديقيةِ والقَدَرِيَّةِ)).

فهذه الأحاديث السابقة التي فيها ذكر الخسف والقذف والمسخ فيها وعيد شديد للعصاة من أهل المعازف، وشاربي الخمور بأن يعاقبهم الله تعالى بهذه العقوباتِ أو ببعضها على عصيانهم وتمردهم، وهي في نفسِ الوقت من أمارات الساعة التي كلما يقترب وقوعها؛ يزداد ظهورُ المعاصي والذنوب؛ لأن الساعةَ لا تقوم إلا على شرارِ الخلق والله أعلم.

أشــراط الــساعة الوســطى

منها: قوله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع)). رواه الإمام أحمد والترمذي، والضياء المقدسي من حديث حذيفة < .
واللكع: العبد الأحمق واللئيم، والمعنى: لا تقوم الساعة حتى يكون اللئام والحمقى، ونحوهم رؤساء الناس.

ومن الأمارات: قوله ﷺ: ((يأتي على الناس زمان الصابر على دينه كالقابض على الجمر)). رواه الترمذي عن أنس. وقوله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يتباهَى الناس في المساجد)) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن حبان، وابن ماجه عن أنس < .

ومنها ما في (صحيح البخاري) وغيره من حديث أنس < : أنه قال: ألا أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن من أشراط الساعةِ أن يُرْفَعَ العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنى ويكثر شرب الخمر، ويقلّ الرجال، ويكثر النساء؛ حتى يكون لخمسين امرأة القيمُ الواحد)).

وفي (الصحيح) من حديث أبي هريرة > قال: ((بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يُحدث القوم؛ جاءهُ أعرابي؛ قال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدّث، وقال بعض القوم: سمع ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه؛ قال: أين السائل عن الساعة؟ فقال: ها أنا يا رسول الله! قال: فإذا ضُيّعت الأمانة؛ فانتظِرِ الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتظِرِ الساعَةَ)).

وقد يُعدُّ من هذه الوسطى ما يأتي ذكره؛ إذ ليس في هذا الأمر ضابط شرعي محدَّد يميز هذه عن تلك، وإنما الغرض العلم بها، والحذر، وتذكر الآخرة، والرجوع إلى الله، والرغبة إليه بالطاعة والعبادة.

ومن ذلك الفتوحَات والحروب: وقد فتحت فارس والروم، وزال ملك كسرى وقيصر، وغزى المسلمون الهند، وفتحوا القسطنطينية، وسيكونُ للمسلمين فيمقبل الزمان ملك عظيم ينتشر فيه الإسلام، ويذل الشرك، وتفتح روما مصداقًا؛ لحديث الرسول ﷺ القائل: ((لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ)) رواه أحمد، وصححه محققو (المسند).

اختلال المقاييس: كما أخبر الرسول ﷺ أن المقاييس التي يُقَوَّم بها الرجال تختلُّ قبلَ قيام الساعة، فيقبل قول الكذبة ويصدق، ويرد على الصادق خبره، ويؤتمن الخونة على الأموال والأعراض، ويخون الأمناء ويتهمون، ويتكلم التافهون من الرجال في القضايا التي تهمّ عامة الناس، فلا يقدمون إلا الآراء الفجّة، ولا يهدون إلا للأمور المُعْوجة.

فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ يتكلَّم فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ)). رواه ابن ماجه. وصححه الألباني في (صحيح ابن ماجه).

انتفَاخ الأهلّة: ومن الأدلة على اقتراب الساعة أن يرى الهلال عند بُدُوِّ ظهوره كبيرًا حتى يقال ساعة خروجه: إنه لليلتين أو ثلاثة، فعن ابن مسعود < قال: قال رسول الله ﷺ: ((مِن اقْتِرابِ السَّاعَةِ انتِفَاخُ الأهِلَّةِ)). رواه الطبراني في (الكبير). وصححه الألباني في (صحيح الجامع). وعن أنس < قال: قال رسول الله ﷺ: ((مِنَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ أَنْ يُرَى الْهِلَالُ قَبَلًا فَيُقَالُ: لِلَيْلَتَيْنِ، وَأَنْ تُتخذَ المَسَاجِدُ طُرُقًا)). رواه الطبراني في (الأوسط). وحسَّنه الألباني في (صحيح الجامع) والعلامات في هذا كثيرة. نكتفي بما ذكرنا، لعل في ذلك غنية لما لم يذكر.

أشراط الساعة وأماراتها (٣)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أشراط الساعة الكبرى	١٩٥
العنصر الثاني :	بيان أن علم الساعة عند الله تعالى، وذكر أحاديث أشراط الساعة	٢١٠

أشـــراط الــــساعة الكـــبرى

قد سبق الكلام على أشراط الساعة الصغرى والوسطى، وسنتكلم الآن عن الأشراط الكبرى، ثم نبين أن علم الساعة لله وحده، لم يطلع عليه أحدا من خلقه.

أولًا: ظهور المهدي:

كنا قد ذكرنا فيما سبق العلامات الكبار مجملة، والآن سنذكرها مفصلة، وأولها ظهور المهدي؛ عن عبد الله بن مسعود < قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تنقضي الأيام ولا يذهب الدهر حتى يملك العربَ رجلٌ من أهل بيتي يوطئ اسمه اسمي)) رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي بأسانيد صحيحة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب عن علي وأبي سعيد وأم سلمة وأبي هريرة.

قال العلامة السفاريني: وقد تكاثرت الروايات والآثار بأمر المهدي. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة رواها أبو داود، والترمذي، وأحمد وغيرهم. انتهى. واسم المهدي محمد بن عبد الله، من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب < يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض جورًا وظلمًا فيملؤها عدلًا وقسطًا.

قال العلامة السفَّاريني: "قد كثرت الأقوال في المهدي، حتى قيل: لا مهدي إلا عيسى! والصواب الذي عليه أهل الحق: أن المهدي غير عيسى، وأنه يخرج قبل نزول عيسى # وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عُدَّ من معتقداتهم". انتهى.

وقد انقسم الناس في أمر المهدي إلى طرفين ووسط :

فالطرف الأول: من ينكرُ خروج المهدي مثل بعض الكتَّاب المعاصرين الذين ليس لهم خبرة بالنصوص ، وأقوال أهل العلم ، وإنما يعتمدون على مجرد آرائهم وعقولهم.

والطرف الثاني: من يغالي في أمر المهدي من الطوائف الضالة ، حتى ادَّعَت كلُّ طائفة لزعيمهم أنه المهدي المنتظر ؛ فالرافضة تدعي أن المهدي هو إمامهم المنتظر الذي ينتظرون خروجه من السرداب ، ويسمونه محمد بن الحسن العسكري ، دخل سرداب سامرا طفلًا صغيرًا منذ أكثر من خمسمائة سنة ، وهم ينتظرونَ خروجه ! والفاطمية : يزعمون أن زعيمهم هو المهدي. وهكذا.

وأما الوسط في أمر المهدي ؛ فهم أهل السنة والجماعة ، الذين يثبتون خروج المهدي على ما تقضي به النصوص الصحيحة ؛ في اسمه ، واسم أبيه ، ونسبه ، وصفاته ، ووقت خروجه ، لا يتجاوزون ما جاء في الأحاديث في ذلك ، ولخروجه أمارات وعلامات تسبقه ذكرها أهل العلم ، هذا مجمل ما في كلام القرطبي -رحمه الله تعالى.

ذلكم هو المهدي الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ وبين صفاته الفارقة ، ووقت خروجه وسيرته ، وقد ادعى المهدية جماعة من الضلَّال في وقت مبكر عن وقته ، ولا تنطبق عليهم صفاته ، وإنما أرادوا بذلك التغرير بالسذج ، واستغلال ادعاء هذه الشخصية لمطامعهم الخاصة ، فأظهر الله كذبهم ، وفضح باطلهم ، ولا تعجب ؛ فقد ادَّعى قوم النبوة ، وافتروا على الله الكذب ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ [الأنعام : ٩٢].

ثانيًا: خروج الدجال:

المسيحُ الدَّجَّال والفاتن الكذاب مسيح الضلالة نعوذ بالله من فتنته؛ فقد أنذرت به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أقوامها، وحذرت منه أممها، وبينت أوصافه، وحذر منه نبينا محمد ﷺ أكثرَ، وبيَّنَ أوصافه ونعته لأمته نعوتًا لا تخفى على ذي بصيرة. وفي الترمذي: أنه يخرج من خراسان.

وفي (صحيح مسلم) عن أنس > مرفوعًا: ((يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة)). وسُمي المسيح لأن عينه ممسوحة، وقيل: لأنه يمسح الأرض؛ أي: يقطعها، وسمي الدجال: من الدجل، وهو الخلط، يقال: دجل؛ إذا خلط وموّه، ودجَّال على وزن فعَّال من أبنية المبالغة؛ أي: يكثر منه الكذب والتلبيس، وهو يخرج في زمان المهدي.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "ثم يؤذن له (أي: الدجال) في الخروج في آخر الزمان، يظهر أولا في صورة ملك من الملوك الجبابرة، ثم يدعي النبوة، ثم يدّعي الربوبية، فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم، والطغام من الرعاع والعوام، ويخالفه ويردُّ عليه من هداه الله من الصالحين، وحزب الله المتقين، ويتدنَّى فيأخذ البلاد بلدًا بلدًا وحصنًا حصنًا، وإقليمًا إقليمًا، وكورة كورة، ولا يبقى بلدٌ من البلدان إلا وطئه بخيلِهِ ورجله؛ غير مكة والمدينة. ومدة مقامه في الأرض أربعون يوما؛ يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيام الناس هذه، ومعدل ذلك سنة وشهران ونصف. وقد خلق الله على يديه خوارق كثيرة يضل بها من يشاء من خلقه، ويثبت معها المؤمنون فيزدادون إيمانًا مع إيمانهم وهدى إلى هداهم.

ويكون نزول عيسى بن مريم -عليه والسلام- مسيح الهدى في أيام مسيح الضلالة، فيجتمع عليه المؤمنون، ويلتفُّ معه عباد الله المتقون، فيسير بهم المسيح

عيسى ابن مريم # قاصدًا نحو الدجال وقد توجَّه نحو بيت المقدس، فينهزم منه الدجال، فيلحقه عند باب مدينة لُد، فيقتله بحربته وهو داخلٌ إليها، ويقول له: إن لي فيك ضربةً لن تفوتني، وإذا واجههُ الدجال؛ ينداع كما ينحلّ الملح في الماء، فيتداركه، فيقتله بالحربة الحربية بباب لد، فتكون وفاته هناك -لعنه الله- كما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح من غير وجه". انتهى كلام ابن كثير -رحمه الله- في تلخيص قصة الدجال حسبما ورد في النصوص الصحيحة، وهو تلخيص جيد مفيد.

والذي تدلّ عليه النصوص من أمر الدجال أيضًا وفتنته: أن من استجاب له؛ يأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت لهم زرعًا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، وترجع لهم مواشيهم سمانًا ذات لبن، ومن لا يستجيب له، ويردّ عليه أمره؛ تصيبهم السنة والجدبُ، والقحط، والقلة، وموت الأنعام، ونقص الأموالِ والأنفس، والثمرات، وأنه تتبعه كنوز الأرض كيعاسيب النحل، وأنه يقتل شابًّا، ثم يحييه؛ كل ذلك امتحان يمتحن الله به عباده في آخر الزمان، فيضلّ به كثيرًا.

وهو مع هذا هين على الله، ناقص ظاهر النقص والفجور والظلم، وإن كان معه ما معه من الخوارق، مكتوب بين عينيه كافر، وما يجريه على يديه محنة من الله لعباده، وهي محنة خطيرة، لا ينجو منها إلا أهل الإيمان واليقين، ولخطورة محنته وشدة فتنته حذرت منه الأنبياء أممها، وأشدهم تحذيرًا لأمته محمد ﷺ.

عن أبي عبيدة بن الجراح > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنه لم يكن نبي بعد نوح إلا وقد أنذر الدجال قومه، وإني أنذركموه)). رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وقد أمر النبي ﷺ أمته بالاستعاذة من فتنته في آخر كل صلاة؛ فعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر؛ فليتعوذ بالله من أربع من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال)). رواه الإمام أحمد ومسلم.

وقد تواترت الأحاديث من وجوه متعددة في إثبات خروج الدجال وبيان فتنته والاستعاذة منه، وأجمع أهل السنة والجماعة على خروج الدجال في آخر الزمان، وذكروا ذلك ضمن مباحث العقيدة؛ فمن أنكر خروجه؛ فقد خالف ما دلت عليه الأحاديث المتواترة، وخالف ما عليه أهل السنة والجماعة، ولم ينكر خروجه إلا بعضُ المبتدعة كالخوارج والجهمية وبعض المعتزلة، وبعض الكتاب العصريين والمنتسبين إلى العلم، ولم يعتمدوا على حجة يدفعون بها النصوص المتواترة سوى عقولهم وأهوائهم، ومثل هؤلاء لا عبرة بهم ولا بقولهم.

والواجب على المؤمن الإيمان بما صحَّ عن الله ورسوله، واعتقاد ما يدل عليه، ولا يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]؛ لأن مقتضى الإيمان بالله ورسوله هو التسليم لما جاء عنهما والإيمان به، ومن لم يفعل؛ فإنه متبع لهواه بغير هدى من الله.

ثالثًا: نزول عيسى ابن مريم # :

إن نزول عيسى ابن مريم ﷺ كما دلَّ عليه القرآن فقد أخبر به الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى نبينا محمد ﷺ، وتواتر النقل عنه بذلك، وأجمع عليه علماء الأمة سلفا وخلفا، واعتبروه مما يجب اعتقاده والإيمان به.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] أي: ليؤمننَّ بعيسى قبل موته، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان.

ورد عن رسول الله ﷺ : ((لينزلنَّ عيسى ابن مريم حكَمًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويأمر بترك القلاص، فلا يسعى عليها، وتترك الشحناء والتحاسد، والتباغض، ويدعوا إلى المال فلا يقبلهُ أحد)) رواه مسلم.

وعن مسلم أيضًا قال: ((إنه ﷺ ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطا رأسه كبر وإذا رفع رأسه تحدر منه جمان كاللؤلؤ)).

ومعنى كونه بين مهرودتين أنه لابس ثوبين مصبوغين بورس وزعفران، والجمان بضم الجيم: هي حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ. وانعقد الإجماع على أن عيسى ﷺ متبع لهذه الشريعة المحمدية ليس بصاحب شريعة مستقلة عند نزوله.

وثبت في الصحيح عنه: ((أنه يُنزل على المنارة البيضاء شرق دمشق ويقتل الدجال)). ومن فارقت روحه جسده؛ لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي؛ فإنه يقوم من قبره. وأما قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت؛ إذ لو أراد بذلك الموت؛ لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء، فَعُلِم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء.

وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧] فقوله هنا: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾؛ يبين أنه رفع بدنه

وروحه؛ كما ثبت في الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات.

ولهذا قال من قال من العلماء: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾؛ أي: قابضك، أي: قابض روحك وبدنك، يقال: توفيت الحساب واستوفيته، ولفظ التوفي لا يقتضي توفي الروح دون البدن، ولا توفيهما جميعًا إلا بقرينةٍ منفصلة، وقد يراد به توفي النوم؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]" انتهى.

وقال القاضي عياض: نزول عيسى # وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة؛ للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، فوجب إثباته. وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن وافقهم، وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وبقوله ﷺ: ((لا نبي بعدي)) وبإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا ﷺ وأن شريعته مؤبدة إلى يوم القيامة ولا تنسخ! وهذا استدلال فاسد؛ لأنه ليس المراد بنزول عيسى # أنه ينزل نبيا بشرع ينسخ شرعنا، ولا في هذه الأحاديث، ولا في غيرها شيء من هذا، بل صحت هذه الأحاديث هنا، وما سبق في كتاب الإيمان، وغيرها أنه ينزل حكمًا مقسطًا يحكم بشرعنا ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس..." انتهى.

أقول: وفي عصرنا هذا ينكر بعض الكتاب الجهال وأنصاف العلماء نزول عيسى # اعتمادا على عقولهم وأفكارهم، ويطعنون في الأحاديث الصحيحة، أو يؤوّلونها بتأويلات باطلة، والواجب على المسلم التصديق بما

أخبرَ به النبي ﷺ وصح عنه واعتقاده؛ لأن ذلك من الإيمان بالغيب الذي أطلع الله رسوله عليه.

قال العلامة السفاريني -رحمه الله-: "ويكون مقررًا لشريعةِ نبينا محمد ﷺ لأنه رسولٌ لهذه الأمة كما مر، ويكون قد علم أحكام هذه الشريعة بأمر الله تعالى، وهو في السماء قبل أن ينزل...". قال: " وأما مدته ووفاته؛ فقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الطبراني وابن عساكر: أنه ﷺ قال: ((ينزل عيسى ابن مريم، فيمكث في الناس أربعين سنة)). وعند الإمام أحمد وابن أبي شيبة، وأبي داود، وابن جرير وابن حبان عنه: "أنه يمكث أربعين سنة ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنوه عند نبينا محمد ﷺ". انتهى كلامه.

رابعًا: خروج يأجوج ومأجوج:

نتكلم عن خروج يأجوج ومأجوج على ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من ذكر هذا الحدث العظيم؛ لأن الإيمان بذلك واعتقاده واجب على المسلم.

وخروج يأجوج ومأجوج ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ ذكر ذلك السفاريني -رحمه الله-: أما الكتاب؛ ففي قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّىۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ٩٢، ١٠٠].

وهذا سدٌّ من حديد بين جبلين بناه ذو القرنين فصار ردمًا واحدًا يحجز هؤلاء القوم المفسدين في الأرض عن أذيةِ الناسِ، والإفسادِ في الأرض؛ فإذا جاء الوقت الذي قدّر انهدام السد فيه؛ جعله الله مساويًا للأرض وعدًا لا بد منه؛ فإذا انهدم؛ يخرجون على الناس ويموجون، وينسلون -أي: يسرعون المشي- من كل حدب، ثم يكون النفخ في الصور قريبًا من ذلك.

وأما الدليل من السنة: ففي (صحيح مسلم) من حديث النواس بن سمعان > عن النبي ﷺ: أنه قال: ((إن الله تعالى يوحي إلى عيسى ابن مريم # بعد قتله الدجال أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد في قتالهم؛ فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوجَ ومأجوجَ، وهم من كُلِّ حدبٍ ينسلُونَ، فيمُرُّ أولهُم على بحيرةِ طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذا ماء، ويحصرون عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار)) الحديث.

وفي حديث حذيفة عند الطبراني: ((ويمنعهم الله من مكةَ، والمدينة، وبيت المقدس)). قال الإمام النووي: هم من ولد آدم عند أكثر العلماء. وقال ابن عبد البر: "الإجماع على أنهم من ولدِ يافث بن نوح #. وقد أخبر النبي ﷺ عن قرب خروجهم وحذر منهم، فقال ﷺ كما في (الصحيحين) عن أبي هريرة >: أن رسول الله ﷺ قال: ((فُتِحَ اليومَ من ردم يأجوج، ومأجوج مثل هذا)). وفي

(الصحيحين) من حديث زينب بنت جحش: ((أن رسول الله ﷺ نام عندها، ثم استيقظ محمرًا وجهه، وهو يقول: لا إله إلا الله! ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من ردمِ يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحَلَّقَ بين إصبعَيْهِ)).

وأما صفاتهم وأجسامهم؛ فقد قال الإمام ابن كثير -رحمه الله-: "وهم يشبهون الناس كأبناء جنسهم من الترك الغتم المغول؛ المجرزمة عيونهم، الدلف أنوفهم، الصهب شعورهم، على أشكالِهِم وألوانهم، ومن زعم أن منهم الطويل الذي كالنخلة السحوق أو أطول، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير، ومنهم من له أذنان يتغطى بإحداهما ويتوطأ بالأخرى؛ فقد تكلف ما لا علم له به، وقال: ما لا دليل عليه".

وأما ما يحصل منهم من الأذى والفساد في الأرض ونهايتهم؛ فقد دلَّ على ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيغشون الناس، وينحاز الناسُ عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، فيشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسًا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر، فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبقَ من الناس أحدٌ إلا أحد في حصن أو مدينة؛ قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجعُ إليه مختضبة دمًا للبلاء والفتنة؛ فبينما هم على ذلك؛ بعث الله دودًا في أعناقهم، كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتَى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه؛ فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرد رجل منهم محتسبًا، قد وطنها على أنه مقتول، فينزل،

فيجدهم مَوتَى بعضهم على بعض، فينادي يا معشر المسلمين ! ألا أبشروا، إن الله تعالى قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم، وحصونهم، ويسرحون مواشيهم؛ فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه، كأحسن ما تشكر عن شيء أصابته من النبات قط)). قال الإمام ابن كثير: وهكذا أخرجه ابن ماجه من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق به، وهو إسناد جيد".

خامسًا: خروج الدابة:

ذكر الله خروج الدابة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]. قال الإمام ابن كثير -رحمه الله- في (النهاية): قال ابن عباس والحسن وقتادة: ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ أي: تخاطبهم مخاطبة، ورجَّح ابن جرير تخاطبهم؛ تقول لهم: ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ وحكاه عن علي وعطاء". قال ابن كثير: " في هذا نظر".

ثم قال: " وعن ابن عباس: ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ تجرحهم؛ بمعنى: تكتب على جبين الكافر كافر، وعلى جبين المؤمن مؤمن، وعنه: تخاطبهم وتجرحهم، وهذا القول ينتظم المذهبين، وهو قوي حسن جامع لهما -والله أعلم. وقال أيضًا في " تفسيره ": " هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق؛ يخرج الله لهم دابةً من الأرض؛ قيل: من مكة، وقيل: من غيرها، فتكلم الناس".

وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثٌ إذا خرجن؛ لا ينفع نفسًا إيمانُهَا لم تكن آمنت من قَبْلُ، أو كسبت في إيمانها خيرًا طلوع الشمس من مغرِبِهَا، والدجال، ودابة الأرض)). واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافًا كثيرًا قد ذكرناه في كتاب (التذكرة) هذا كلام القرطبي.

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري > قال: ((طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة قال: إنها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات، وذكر منها الدابة)). رواه الإمام أحمد، وأبو داود الطيالسي، ومسلم، وأهل السنن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ولمسلم من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ((بادروا بالأعمال ستًّا طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدابة)) الحديث. ولمسلم أيضًا من حديث أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((بادروا بالعمل ستًّا الدجال، والدخانُ، ودابة الأرض)) الحديث. وعن عبد الله بن عمرو؛ قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى؛ فأيُّهما كانت قبل صاحبتها؛ فالأخرى على أثرها قريبًا)). رواه مسلم.

قال ابن كثير: "أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال، ونزول عيسى ﷺ من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج؛ فكل ذلك أمورٌ مألوفة؛ لأنهم بشر، مشاهدتهم وأمثالهم مألوفة، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إيَّاهم بالإيمان والكفر؛ فأمر خارجٌ عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية؛ كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عاداتها المألوفة أول الآيات السماوية".

وعمل هذه الدابة كما جاءت به الأحاديث أنها تسم الناس المؤمن والكافر، فأما المؤمن؛ فيرى وجهه كأنه كوكب دري، ويكتب بين عينيه: مؤمن. وأما الكافر؛ فتنكت بين عينيه نكتة سوداء، ويكتب بين عينيه: كافر. وفي رواية: فتلقى المؤمن فتسمه في وجهه نكتة فيبيض لها وجهه، وتسم الكافر نكتة سوداء يسود لها

وجهه، ويشترك الناس في الأموال، ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن الكافر وبالعكس، حتى إن المؤمن يقول للكافر: يا كافر! اقضني حقي.

وأما صفتها؛ فقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي في (تفسيره): "وهذه الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يذكر الله ولا رسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها المقصود منها، وأنها من آيات الله، تكلم الناس كلامًا خارقًا للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله، فتكون حجةً وبرهانًا للمؤمنين، وحجة على المعاندين..." انتهى.

سادسًا: طلوع الشمس من مغربها:

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. قال الحافظ ابن كثير في (النهاية): قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عمارة، حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا رآها الناس؛ آمن من عليها؛ فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل)). وقد أخرجه بقيةُ الجماعة إلا الترمذي..." انتهى.

وقد أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقومُ الساعةُ حتى تطلع الشمسُ من مغربِها؛ فإذا طلعت ورآها النَّاسُ؛ آمنوا أجمعون؛ فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها)). وقال الإمام ابن كثير -رحمه

الله- : وفي الحديثِ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي، وصححه النسائي وابن ماجه من طريق عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن صفوان بن عسال، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: ((إن الله فتح بابًا قِبَلَ المغرب، عرضه سبعون -أو قال أربعون عامًّا- للتوبة، ثم لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغرِبِها)).

فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أحدث إيمانا وتوبة بعد طلوع الشمس من مغرِبِها لا تقبل منه، وإنما كان كذلك -والله أعلم- لأن ذلك من أشراط الساعة، وعلاماتها الدالة على اقترابها ودنوها، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ٢٠]. وقال أيضًا في (تفسيره): ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ؛ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك؛ فإن كان مصلحًا في عمله؛ فهو بخير عظيم، وإن لم يكن مصلحًا، فأحدث توبة حينئذ؛ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث الكثيرة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي: لا يقبل منه كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك". انتهى.

وقال البغوي: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ أي: لا ينفعهم الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يريد: لا يقبل إيمان كافر، ولا توبة فاسق" انتهى.

سابعًا: حشر الناس إلى أرض الشام. قال الإمام ابن كثير في (النهاية):

ثبت في (الصحيحين) من حديث وهيب، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يحشر الناس على ثلاثِ طرائقِ راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرةٌ على بعير، وتحشر بقيتهم النار؛ تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معَهُم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا)).

ثم ساق الأحاديث في هذا المعنى، ثم قال: "فهذه السياقات تدل على أن هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدنيا من أقطار الأرض إلى محلة، وهي أرض الشام، وأنهم يكونون على أصناف ثلاثة؛ فصنف طاعمين كاسين وراكبين، وقسمٌ يمشون تارةً ويركبون تارةً أخرى، وهم يعتقبون على البعير الواحد -كما تقدم في (الصحيحين)- ((اثنان على بعير، وثلاثة على بعير...)). إلى أن قال: " وعشرة على بعير يعتقبونه من قلة الظهر؛ كما تقدم في الحديث، وكما جاء مفسرًا في الآخر: ((وتحشر بقيتهم النار)) وهي التي تخرج من قعر عدن، فتحيط بالناسِ من ورائهم؛ تسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر، ومن تخلف منهم؛ أكلته النار.

وهذا كله مما يدل على أن هذا في آخر الزمان؛ حيث الأكل والشرب والركوب على الظهر المشترى وغيره، وحيث تهلك المتخلفين منهم النار، ولو كان هذا بعد نفخة البعث؛ لم يبق موت ولا ظهر يشترى ولا أكل ولا شرب". انتهى.

وقد جاءت أحاديث تدلّ على أنه في آخر الزمان تخرج نارٌ من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر. منها الحديث الذي رواه أحمد ومسلم وأهل السنن: ((تخرج نار من قعر عدن، تسوق -أو تحشر- الناس؛ تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا)). ومنها

حديث عبد الله بن عمر } قال: قال رسول الله ﷺ: ((ستخرج نار من حضرموت -أو من نحو بحر حضرموت- قبل يوم القيامة، تحشر الناس، قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام)). رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان في (صحيحه) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح غريب".

بيان أن علم الساعة عند الله تعالى، وذكر أحاديث أشراط الساعة

قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقال سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٤٢ : ٤٤].

وهذه الآيات كلها تدل دلالةً صريحةً واضحةً على أن الله تعالى أخفى علم الساعة عن جميع الناس، ولم يطلع عليها أحدًا من خلقه، وجاء حديث جبريل ﷺ ليقطع الجدل في ذلك، كما روى ذلك البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة، ومن حديث عمر بن الخطاب } عند مسلم: أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال له: ((مَتى السَّاعَةُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل!)). وجاء في حديث ابن عمر } عن النبي ﷺ أنه قال: ((مفاتحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلا الله، ثم تَلَا هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾)) [لقمان: ٣٤] الآية.

قال ابن كثير: "فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم ﷺ على نبيّ الرحمة، ونبي التوبة، العاقب، والمقفي، والحاشر الذي تُحشر الناس على قدميه، مع

قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد } : ((بُعِثْتُ وأَنَا الساعةُ كَهَاتَيْنِ)) وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها، ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن يردَّ عِلْمَ وقت الساعةِ إليه، فإذا سُئل عنها قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ومع وضوح هذه الدلالات وصراحتها؛ فقد تجرَّأ على القول بتحديد وقتها أناس عديدون، وأكثر هؤلاء جهلة أو مفترون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن تكلم في وقتها المعين مثل الذي صنَّف كتابًا سماه (الدر المنظم في معرفة الأعظم)، وذكر فيه عشر دلالات بَيَّنَ فيها وقتها، والذين تكلموا على ذلك من حروف المعجم، والذي تكلم في عنقاء مغرب، وأمثال هؤلاء، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم، فغالبهم كاذبون مفترون، وقد تبيَّن لَهُم من وجوهٍ كثيرةٍ أنهم يتكلمون بغير عِلْم، وإن ادَّعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ومن هؤلاء الجهلة من ادَّعى أن رسول الله ﷺ كان يعلم متى وقت قيامها، فإنه مخالف لصريح القرآن والسنة، وقد أجاب عن ذلك ابن القيم في (المنار المنيف) بنحو ما سبق وأشار إلى هناك من جاهر به في عصره. ولما قوبل بحديث جبريل قال: "معناها أنا وأنت نعلمها".

وهذا من أعظم الجهل وأقبح التحريف، وهو من الصوفية أمر مشهور.

يقول ابن القيم عند إجابته عن هذه الشبهة معقبًا: "ولكن هؤلاء الغلاة عندهم أن علم رسول الله ﷺ منطبق على علم الله، سواء بسواء، فكل ما يعلمه الله يعلمه رسول الله ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾. [التوبة: ١٠١] فالله المستعان.

فإذا تحقق أن الله استأثر بعلم الساعة، وأنه لا سبيل إلى معرفة وقتها بأي وسيلة، وتحت أيِّ غطاء؛ تقرر في ذهن العاقل أن لا فائدَةَ ترجى من وراء بحث ذلك، فهو خارجُ حدود العلم البشري، وعليه أن يستعدَّ لها، وأن يتهيأ بالعمل الصالح للنجاة من هولها، وقد نبَّهَ إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال لمن سألها عنها: ((ويحك، إن الساعة آتية، وماذا أعددت لها)).

مباحث متعلقة باليوم الآخر (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول : ذكر الأدلة الشرعية والعقلية على تقرير البعث ٢١٥

العنصر الثاني : ذكر بعض مسالك القرآن في تقرير البعث ٢٢٠

ذكر الأدلة الشرعية والعقلية على تقرير البعث

إن الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان، وعليه يتطلب الأمر دراسة متعلقاته، ولوازمه، ومن ذلك الإيمان بالبعث.

اعلم: أن وقوع البعث من القبور قد دلَّ عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة؛ أخبر الله عنه في كتابه العزيز، وأَقَامَ عليه الدليلَ، ورد على منكريه في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن العظيم، وقد أخبرت عنه جميع الأنبياء أممها، وطالبت المنكرين بالإيمان به، ولما كان نبينا محمد ﷺ خاتمَ الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين؛ بين تفصيل الآخرة تفصيلًا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء قبله.

فوجب الإيمان به، والتصديق بموجبه، وهو أن يبعث الله تعالى الموتى من القبور بأن يجمع أجزاءهم الأصلية، ويعيد الأرواح إليها، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

والقيامة الكبرى معروفة عند جميع الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم - عليهم الصلاة والسلام. وقد أخبر الله من حين أهبط آدم بالقيامة: فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقال: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، ولما قال إبليس اللعين: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦- ٣٧].

وقال نوح # لقومه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧- ١٨]، وقال إبراهيم #: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وموسى # قال الله له: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وقال موسى في دعائه: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد أخبر الله أن الكفار إذا أدخلوا النار يقرون أن رسلهم أنذرتهم هذا اليوم؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم -عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

وقد أخبر الله تعالى أن الموتى يقومون من قبورهم إذا نفخ في الصور النفخة الثالثة قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة > : ((ينزل من السماء الدنيا ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى؛ إلا عظم واحد -أو عُظَيم واحد- وهو عجب الذنب، منه يركب الخلق يوم القيامة)). وفي رواية مسلم: ((إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، منه يُركب الخلق يوم القيامة. قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: عجب الذنب)).

قال العلماء: وعجب الذنب هو العظم الحديد الذي يكون في أسفل الصلب. وقد جاء في الحديث أنه مثل حبة الخردل؛ منه ينبت جسم الإنسان، وقد استبعد المشركون إعادة الناس في حياة أخرى بعد الموت، فأنكروا البعث والنشور.

فأمر الله نبيَّه أن يقسم به على وقوعه، وأنه كائنٌ لا محالة: فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ [سبأ: ٣] وقال تعالى: ﴿ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [التغابن: ٧]. وأخبر عن اقتراب ذلك، فقال: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١].

وذم المكذبين بالبعث، فقال: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥] ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٩٩، ٩٧]، وقال: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴾، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٥٢، ٤٩].

قال شارح (الطحاوية) على هذه الآيات الكريمة: "فتأمَّل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل؛ فإنهم قالوا أولًا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴾؟ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم؛ فهلَّا كنتم خلقًا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد، وما هو أكبر في صدوركم من ذلك! فإن قلتم: كنا خُلِقْنا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادِتِكُم خلقًا جديدًا؟! وللحجة

تقديرٌ آخر هو: لو كنتم حجارة أو حديدًا أو خلقًا أكبر منهما؛ فإنه قادر على أن يفنيكم، ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة؛ فما الذي يعجزه فيما دونها؟! ثم أخبر أنهم يسألون سؤالًا آخر بقوله: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ إذا فنيت جسومنا واستحالت! فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] فلما أخذتهم الحجة؛ انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به تعلل المنقطع، وهو قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾! فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

وقال الله -تبارك وتعالى- في معرض الرد على مكذبي البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨: ٨٣].

والذي ضرب المثل أحد ملاحدة العرب، وكتب السنة تذكر أن هذا الكافر الملحد جاء بعظم بالي، ثم فتته، ثم نفخه، ثم قال للرسول ﷺ: "يا محمد! أتزعم أن الله يبعث هذا؟". فأنزل الله الحق -تبارك وتعالى- هذه الآيات معيِّرًا هذا الكافر بجهله وضلاله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ فإنه لو كان لبيبًا عاقلًا لم يسأل هذا السؤال، لأن وجوده وخلقه في هذه الحياة يجيب على السؤال، وقد وضح النص هذا المعنى الذي أجمله في البداية فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

١- فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضروريًّا أن من قدر على هذه قدر على هذه. وأنه لو كان عاجزًا عن

الثانية؛ لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرةَ الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده وصورته، فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحي العظم وهي رميم؟.

٢. ثمَّ أكد الأمر بحجةٍ قاهرةٍ وبرهانٍ ظاهر، يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردةً يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتُهَا وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معًا، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضدّه، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا يستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم.

٣. ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيءالأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدرُ وأقدرُ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل وقية أشدُّ اقتدارًا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامها، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدرُ عليه أن يحيي عظامًا قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى.

٤. ثم أكد -تبارك وتعالى- ذلك وبيَّنه ببيان آخر، وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره،

الذي يفعل بالآلات والكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بدَّ معه من آلة ومُعِين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوِّنه نفس إرادته، وقوله للمكوَّن: "كُنْ" فإذا هو كائن كما شاءه وأراده: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

ذكر بعض مسالك القرآن في تقرير البعث

وسنذكر الأدلة المثبتة للبعث والنشور التي استخلصناها من الكتاب الكريم.

أولًا: إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة: أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد إخبار الحق -تبارك وتعالى- بذلك، فمن آمن بالله، وصدَّق برسوله الذي أرسل، وكتابه الذي أُنزل فلا مناص له من الإيمان بما أخبرنا به من البعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار. وقد نَوَّعَ الحق -تبارك وتعالى- أساليب الإخبار؛ ليكون أوقع في النفوس، وآكد في القلوب.

١. ففي بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخبارًا مؤكدًا بـ (إنَّ)، أو بـ (إنَّ واللام) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

٢. وفي مواضع أخرى يقسم الله تعالى على وقوعِهِ ومجيئِهِ، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء: ٨٧]. ويقسم على تحقق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الذاريات: ١-٦]. وقوله: ﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ١-٨].

٣. وفي بعض المواضع يأمر رسوله بالإقسام على وقوع البعث وتحققه، وذلك في معرض الردِّ على المكذبين به المنكرين له، كقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣].

٤. وفي مواضع أخرى يذم المكذبين بالمعاد، كقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥].

٥. وأحيانًا يمدح المؤمنين بالمعاد ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٧-٩]. وقوله: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١-٥].

٦. وأحيانًا يخبر أنه وعدٌ صادقٌ، وخبرٌ لازمٌ، وأجل لا شك فيه: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ

﴿ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هـود: ١٠٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩،٣٠]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [الذاريات: ٥].

٧. وفي بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه كقوله: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٦-٧]. وقوله: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

٨. وفي مواضع أخرى يمدح نفسه -تبارك وتعالى- بإعادة الخلق بعد موتهم، ويذم الآلهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣]، وقوله: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤].

٩. وبيَّنَ في مواضعَ أخرى أن هذا الخلق، وذاك البعث الذي يُعجز العباد ويذهلهم سهل يسير عليه: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٣، ٤].

ثانيًا: الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى: استدلَّ القرآن على الخلق الثاني بالخلق الأول، فنحن نشاهد في كلِّ يوم حياةً جديدة تخلق: أطفال يولدون، وطيور تخرج من بيضها، وحيوانات تلدها أمهاتها، وأسماك تملأ البحر

والنهر، يرى الإنسان ذلك كله بأمِّ عينيه، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرةً أخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة.

إن الذين يطلبون دليلًا على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليلًا، فالقادر على خلقهم، قادر على إعادة خلقهم، وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

ويذكرنا القرآن في موضع آخر بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فالقادر على جعل التراب بشرًا سويًّا، لا يُعجزه أن يعيده بشرًا سويًّا مرة أخرى بعد موته، ويُذكِّر أيضًا بخلقنا نحن -ذرية آدم- فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تحوَّل هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضغة.. إلى أن نُفخ فيها الروح، وجعلها إنسانًا سويًّا.

فالقادر على هذا الخلق المشاهد المعلوم، قادر على إعادة الخلق، وإحياء الموتى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥، ٧].

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق ليستدلوا بذلك

على قدرته على الإعادة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠]. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ثالثًا: القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه: قبيح في نظر البشر أن يُرمى بالعجز عن حمل الشيء الحقير من يستطيع حمل العظيم، ومثله إذا غلب إنسان رجلًا شديد البأس قويًّا لا يقال له: إنك لا تستطيع أن تصرع هذا الهزيل الضعيف، ومن استطاع أن يبني قصرًا لا يعجزه بناء بيت صغير. ولله المثل الأعلى، فإن من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، فكيف يقال للذي خلق السماوات والأرض أنت لا تستطيع أن تخلق ما دونها قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٨،٩٩].

وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

قال ابن تيمية بعد أن ساق هذه النصوص: "فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، والقدرة عليه أبلغ. وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك". وقال شارح (الطحاوية): "أخبر

تعالى أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما، يحي عظامًا قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى".

رابعًا: قدرته -تبارك وتعالى- على تحويل الخلق من حالٍ إلى حال: الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد، ثم فناءهم في التراب، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ [السجدة: ١٠]. والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم، ثم اختلاطها بتراب الأرض، تقول: ضل السمن في الطعام إذا ذاب وانماع فيه.

وقد بين الحق -تبارك وتعالى- في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يميت ويُحيي، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٥- ٩٦]. من الحبة الجامدة الصماء يُخرج الله نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر، ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوبًا جامدة ميتة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواء الفضاء.

إن تقلب العباد: موت فحياة، ثم حياة فموت، دليل عظيم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

مباحث متعلقة باليوم الآخر (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	ذكر الأدلة على إمكان البعث ووقوعه	٢٢٩
العنصر الثاني :	ذكر بعض أقوال المخالفين في البعث والرد عليها	٢٣٠
العنصر الثالث :	النفخ في الصور	٢٣٣
العنصر الرابع :	بيان ما ينال الخلق في المحشر من الأهوال	٢٣٧

ذكر الأدلة على إمكان البعث ووقوعه

قد تقدم الكلام على إثبات البعث، والأدلة النقلية والعقلية على ذلك، وذكرنا مسالك القرآن الكريم في إثبات البعث، وإتمامًا لذلك، وزيادة في التفصيل لبعض المسائل المتعلقة بالبعث:

ذكر الأدلة على إمكان البعث ووقوعه:

يجب الجزم شرعًا أن الله تعالى يبعثُ جميع العباد، ويعيدهم بعد إيجادهم بجميع أجزائهم الأصلية، وهي التي من شأنِهَا البقاء من أول العمر إلى آخره، ويسوقهم إلى محشرهِم لفصل القضاء؛ فإن هذا حقٌّ ثابتٌ بالكتاب والسنة وإجماع السلف، مع كونِهِ من الممكنات، التي أخبر بها الشارع، وكل ما هو كذلك فهو ثابت، والإخبار عنه مطابق، والأصل فيما لا دليل على وجوبه، ولا على امتناعه الإمكان، كما يقوله الحكماء والمتكلمون، من أن كل ما قرع سمعك من الغرائب قدره في حيز الإمكانما لم يردك عنه قائم البرهان. فمن زعم عدم إعادة المعدوم ألزم بالمبدأ؛ فإن المعاد مثل المبدأ، بل هو عينه أو أيسر كما لا يخفى.

ومما هو معلوم؛ فإن الأنبياء تأتي بما تدركه العقول أو تتحير فيه، ولا تأتي بما تحيله العقول أبدًا، فتأتي بما حارت العقول، لا بمحالات العقول.

وإمكان المعاد إما لأنه إيجاد ما انعدم، أو جمع ما تفرق، أو إحياء ما أميت، وهذه كلها ممكنة لا إحالة في شيء من ذلك أصلًا، مع ما تواتر من أخبار الأنبياء، والكتب السماوية؛ ولاسيما في القرآن العظيم، والذكر الحكيم ما لا مزيد عليه مثل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦]، ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ

﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤،٣]، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًّا أيضًا، ففي البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس } قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: ((إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلًا)) زاد في رواية: "مشاة" وفي رواية فيهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: ((يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غرلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ..)). والغُرْل: بضم الغين المعجمة، وإسكان الراء، جمع أغرل، وهو الأقلف.

ومثله في (الصحيحين) من حديث عائشة > قالت: فقلت: الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: ((الأمر أشد من أن يهمهم ذلك)).

ذكر بعض أقوال المخالفين في البعث، والرد عليها

الناس في البعث على أربع طوائف:

الأول: إثبات المعاد للبدن والروح جميعًا، وهو قول سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، بل على ذلك أيضًا اتفق المسلمون، وغيرهم من أهل الملل كاليهود والنصارى.

الثاني: إنكار المعاد للأبدان والأرواح، كما هو اعتقاد مشركي العرب، واليونان والهند.

الثالث: قول من يثبت المعاد للأبدان فقط، ونسب شيخ الإسلام -رحمه الله- هذا القول إلى كثير من المتكلمين من الجهمية والقدرية.

الرابع: المعادُ للأرواح فقط دون الأبدان، وهو قول الفلاسفة أتباع أرسطو من أمثال ابن سينا، وغيره من المنافقين، والصابئين، والمجوس، والباطنية.

والذي عليه سلفُ الأمة، وجمهور العقلاء: أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال، فتستحيل ترابًا كما كانت، عدا عجب الذنب كما في الحديث عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجبُ الذنب، منه خُلِقَ وفيه يركب)). رواه مسلم، وهذه الاستحالة ليست أمرًا مستحيلًا فإن النطفة تستحيل علقة، ثم مضغة، ثم تكتمل بشرًا سويًّا، وكذلك في أثناء حياته فهو يبدأ طفلًا ثم شابًّا، ثم كهلًا، وهكذا الإعادة، يُعاد الخلق بعد أن استحالوا ترابًا.

وظاهر الأدلة التي أثبتت البعث صريحة في أن البعث يشمل الأجسام والأرواح، وعلى هذا اتفق سلف الأمة، وأئمتها.

قال القرطبي: "وعند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها بلا خلاف بينهم" بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ومعاد الأبدان متفقٌ عليه عند المسلمين واليهود والنصارى".

ومدار ما تشبث به المخالفون للمعاد على ثلاث شبهات:

الأولى: أن الميت إذا مات تفتتت أجزاؤه، واختلطت بالتراب على وجه لا يمكن تمييزه وقالوا: أنت إذا تأملت وتدبرت، ظهر لك أن الغالب على ظاهر التربة المعمورة جثث الموتى المتربة، وقد حرق فيها وزرع، وتكون منها الأغذية،

وتغذّى بالأغذية جثث أخرى، فأنى يمكن بعث مادة كانت حاملة لصورتي إنسانين في وقتين لهما جميعًا في وقت واحد، بلا قسمة.

الثاني: إن البعث لا علاقة له بالقدرة.

الثالث: إن البعث والحشر أمر لا فائدة منه، ولا تقتضيه الحكمة والحكمة بقاء النوع الإنساني وتجدده. وهذا الضلال منشؤه القياس الفاسد، فقد قاسوا بعقولهم قدرة الرب -تبارك وتعالى- بقدرة البشر، فاعتقدوا استحالة ذلك، ولهذا نجد أن القرآن الكريم في تقريره لقضية البعث، يركز على ثلاثة أصول:

الأول: تقرير كمال العلم، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١] وهذه الآية جاءت بعد الآيات التي فيها إثبات البعث.

الثاني: تقرير كمال القدرة كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١، ٨٢].

الثالث: تقرير كمال الحكمة قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصابئة والفلاسفة، ومنافقي هذه الأمة، فقال: "الذين كفروا من اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب" والنكاح في الجنة، ويزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة" والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح، وهم يقرُّون مع ذلك بحشرِ الأجسادِ مع الأرواح ونعيمها وعذابها.

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرُّون بحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط، وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح، ولا الأجساد، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، وردّ على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك، بيانًا تامًّا غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرّون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة؛ فإنهم يحرّفون الكلام عن مواضعه، هذه أمثالٌ ضربت لنفيهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبّب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب (رسائل إخوان الصفا) وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان.

وذكر -رحمه الله تعالى- في موضع آخر: "أن باطنية الفلاسفة يفسرون ما وعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها، ويتألم بها".

النفخ في الصور

والنفخ في الصور جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: ((لا تخيروا بين الأنبياء))، ثبت في الحديث في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((لا تخيروني بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟)).

وجاء في الحديث الآخر: ((فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله؟))، ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكونُ أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بقائمة

العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله؟)) فنشأ الإشكال في هذا الحديث، وسبب هذا الإشكال ناشئ من أنه دخل على الراوي حديثٌ في حديث، فركب بين اللفظين، بيان ذلك أن قوله في الحديث: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكونُ أول من يفيق، فإذا موسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟)).

جاء بعض الرواة، فروى الحديث هكذا: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟))، وفي لفظ آخر: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفَاقَ قبلي أم كان ممن استثنى الله؟)).

ووجه الإشكال: أنه في أول الحديث قال: ((يصعقون يوم القيامة)) وهذا يدل على أن الناس قاموا من القبور، ووقفوا للحساب، وفي آخر الحديث قال: ((فأكون أول من تنشق عنه الأرض)) يدل على بدء الخروج من القبور، حيث تنشق عنه ﷺ الأرض، ولم يقف الناس بعد للحساب، فيفسد المعنى بذلك؛ لأن انشقاق الأرض قبل الموقف والصعق في الموقف، ومنشأ الإشكال الوهم من بعض الرواة بإدخال حديث في حديث.

وحل الإشكال رد الحديث إلى أصله، وهو أن صواب الحديث هكذا: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق))، وليس: فأكون أول من تنشق عنه الأرض. وإنما وهم بعض الرواة، فأبدل قول فأكون أول من يفيق بقوله، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، وحلّ الإشكال رد الحديث إلى أصله. والصواب أن هذا وهم من الرواة، وأن هذه اللفظة صوابها: فأكون أول من

يفيق. لا، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، وكذلك أشكل في الحديث رواية بعض الرواة، فإنه روى في آخر الحديث: ((لا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ؟)).

ووجه الإشكال: أنه في آخر الحديث، استثني من صعقة يوم القيامة؛ لأن أول الحديث: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة)) أو هذا في موقف القيامة، ثم قال في آخره، ((فلا أدري أفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله؟))، فاستثني من صعقه يوم القيامة.

والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقةِ النفخة، لا من صعقة يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة، فالصعق الذي استثنى الله فيه في سورة الزمر والنمل، ذلك الصعق صعق تخريب العالم، وسببه النفخ في الصور والفزع، والمستثنى قيل ملك الموت، وثلاثة ملائكة معه.

ومنشأ الإشكال الوهم من بعض الرواة، حيث اشتبه عليه أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة، وأن موسى داخل في من استثنى الله، فأبدل قوله: ((فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور))، بقوله: ((فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ)).

وحلّ الإشكال ردّ الحديث إلى أصله -كما تقدم- فالمحفوظ الذي تواترت عليه الروايات الصحيحة هو: ((فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور)) وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده، إذا جاء لفصل القضاء، وموسى ﷺ إن كان لم يصعق معهم، فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلى ربه للجبل، فجعله دكًّا، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضًا عن صعقة

الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم، وأما قوله: ((فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ))، فلا يلتئم على مساق الحديث قطعًا، فإن الإفاقة حينئذٍ هي إفاقة البعث، وكيف يقول: ((لا أدري أبعث قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟)).

فتأمل، وممن نبه على هذا الحافظ أبو الحجاج المزي، والحافظ العلامة ابن القيم، والحافظ عماد الدين ابن كثير، نبهوا على هذا الوهم من الرواة، وأنه دخل على الرواة حديث في حديث. والصعق نوعان: صعق البعث، وسببه هو النفخ في الصور، ووقته يوم القيامة، والثاني: صعق التجلي، وسببه تجلي الله للخلائق، ووقته في موقف يوم القيامة.

والنفخ في الصور، نفختان على الصحيح، وقال بعضهم: ثلاث نفخات نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة الموت، والصواب: أن نفخة الفزع، ونفخة الصعق نفخة واحدة نفخة طويلة، يطولها إسرافيل أولها: فزع وآخرها موت، وأما الحديث الذي فيه إثبات ثلاث نفخات، فهو حديث ضعيف، فأولها النفخة الأولى، نفخة الفزع أولًا، ويتغير بها هذا العالم، ويفسد نظامه، ويسير الله الجبال، وترتج الأرض بأهلها رجا، وتكون كالسفينة الموقرة في البحر تضربها الأمواج، وتميد الأرض بالناس على ظهرها، تذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتثور الشياطين هاربين من الفزع، حتى تأتي الأقطار فتتلقاها الملائكة، وتضربها في وجوهها فترجع، ويولي الناس مدبرين، فينادي بعضهم بعضًا وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ [غافر: ٣٢- ٣٣] وتتصدع الأرض، وتكون السماء كالمهل، فيرى الناس أمرًا عظيمًا، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [ص: ١٥] أي: من رجوع ومردّ، وقوله ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٨٧].

قيل: المستثنى ملك الموت، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: غير ذلك، وإنما يحصل الفزع لشدة ما يقع من هول تلك النفخة، ثم يكون آخرها صعق وموت، وفيها هلاك كل شيء، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقد فُسِّر الصعق بالموت.

النفخة الثانية: نفخة البعث والنشور، وقد جاء في الكتاب العزيز آيات تدل عليها كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٥١] قال المفسرون: المنادي إسرافيل ﷺ ينفخ في الصور، وينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، والمكان القريب صخرة بيت المقدس، وبين النفختين أربعون.

بيان ما ينال الخلق في المحشر من الأهوال

يوم القيامة يوم عظيم أمره، شديد هوله، لا يلاقي العباد مثله، ويدل على عظم هوله أمور:

الأول: وصفُ الله لذلك اليوم بالعظم، وحسبنا أن ربنا وصفه بذلك، ليكون أعظم مما نتصور، وأكبر مما نتخيل: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤: ٦]، ووصفه في موضع آخر بالثقل، وفي موضع ثالث بالعسر: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الدهر: ٢٧]، ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩ - ١٠].

الثاني: الرعب والفزع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم، فالمرضع التي تفدي وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم، والحامل تسقط حملها، والناس يكون

حالهم كحال السكارى الذين فقدوا عقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

ولشدة الهول تشخص أبصار الظلمة في ذلك اليوم، فلا تطرف لشدة الرعب، ولا يلتفتون يمينًا ولا شمالًا، ولشدة الخوف تصبح أفئدتهم خالية لا تعي شيئًا ولا تعقل شيئًا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢- ٤٣].

وترتفع قلوب الظالمين لشدة الهول إلى حناجرهم، فلا تخرج، ولا تستقر في مكانها ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]. ومعنى كاظمين أي: ساكتين لا يتكلمون. ووصف في موضع آخر ما يصيب القلوب والأبصار في ذلك اليوم فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨- ٩].

وحسبك أن تعلم أن الوليد الذي لم يرتكب جرمًا يشيب شعر رأسه لشدة ما يرى من أهوال ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

الثالث: انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فكل إنسان في ذلك اليوم يهتم بنفسه، ولا يلتفت إلى غيره، بل إن الإنسان يفر من أحب الناس إليه، يفر من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣- ٣٧].

وقال في موضع آخر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان: ٣٣] وقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨].

الرابع: استعداد الكفار في يوم الدين لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب، فلو كانوا يملكون ما في الأرض لافتدوا به ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [يونس: ٥٤]. بل لو كان للكافر ضعف ما في الأرض لافتدى به ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ١٨]، بل هو على استعداد أن يبذل ما عنده ولو كان ملء الأرض ذهبًا، وعلى احتمال أن كان الأمر كذلك، فإن الله لا يقبل منه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١].

وفي (صحيح البخاري) عن أنس بن مالك > أن نبي الله ﷺ كان يقول: ((يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سألتك ما هو أيسر من ذلك)).

ويصل الحال بالكافر في ذلك اليوم أن يتمنَّى لو دفع بأعز الناس عنده في النار لينجو هو من العذاب: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ [المعارج: ١١، ١٥].

الخامس: ويدلك على هول ذلك اليوم وشدته: طوله، قال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٤، ٧].

وسياق الآيات دلالة واضحة على أن المراد به يوم القيامة، وقد ثبت بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه يوم القيامة، وبذلك قال الحسن، والضحاك، وابن زيد. ولطول ذلك اليوم يظن الناس في يوم المعاد أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة من نهار، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يونس: ٤٥].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: يقول تعالى مذكرًا للناس قيام الساعة ويحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ. كقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]، وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٤].

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب الذي يصيب الأرض وجبالها، والسماء ونجومها وشمسها وقمرها.

يحدثنا ربنا أن الأرض تزلزل وتدكّ، وأن الجبال تُسيَّر وتنسف، والبحار تُفجّر وتُسجَّر، والسماء تتشقق وتمور، والشمس تُكوَّر وتذهب، والقمر يخسف، والنجوم تنكدر ويذهب ضوءها، وينفرط عقدها.

مباحث متعلقة باليوم الآخر (٣)

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول	:	ذكر الأرض التي يقف عليها الناس ومدة وقوفهم	٢٤٣
العنـــصر الثـــاني	:	الجمع بين قوله: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ وبين حديث: ((ليس أحد يحاسب إلا هلك))	٢٤٥
العنــــصر الثـــالث	:	ذكر الحوض وما يتعلق به من مسائل	٢٤٦
العنــــصر الرابـــع	:	مجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله	٢٥٢

ذكر الأرض التي يقف عليها النـاس ومدة وقـوفهم

هذه بعض المباحث المكملة للكلام على مسائل اليوم الآخر كأرض الموقف، والحساب، والحوض، ومجيء الله تبارك وتعالى لفصل القضاء:

الأرض التي يُحشر العباد عليها يوم القيامة أرضٌ أخرى غير هذه الأرض، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر، ففي (صحيحي البخاري ومسلم) عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي))، قال سهل و غيره: "ليس فيها معلم لأحد".

قال الخطابي: العفر: بياض ليس بناصع. وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلًا. وقال ابن فارس: معنى عفراء خالصةُ البياض. والنَّقِيّ: بفتح النون وكسر القاف، أي: الدقيق النقي من الغش والنخال. والمعْلم: العلامة التي يُهتدى بها إلى الطريق، كالجبل والصخرة، أو ما يضعه الناس دالًّا على الطرقات، أو على قسمة الأراضي.

وقد جاءت نصوصٌ كثيرةٌ عن عدد من الصحابة تفيد معنى الحديث الذي سقناه هنا، ورواه صاحبا الصحيحين، فقد أخرج عبد بن حميد والطبري في تفسيريهما والبيهقي في (شعب الإيمان) من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. قال: تبدل الأرض أرضًا كأنها الفضة لم يسفك عليها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة، ورجاله

رجال الصحيح، وهو موقوف، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوع. وقال: الموقوف أصح.

وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ: ((أرضٌ بيضاء، كأنها سبيكة فضة))، ورجاله موثقون أيضًا.وعند عبد بن حميد من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال: بلغنا أن هذه الأرض -يعني أرض الدنيا- تطوى، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها. وفي حديث الصور الطويل: ((تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، فيبسطها ويسطحها، ويمدّها مدَّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ثم يزجر الله الخلق زجرةً واحدة، فإذا هم في هذه الأرض المبدَّلة، في مثل مواضعِهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرِها كان على ظهرِهَا)).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يبدل من الأرض إنما هو صفاتها فحسب، فمن ذلك حديث عبد الله بن عمرو الموقوف عليه، قال: ((إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مد الأديم، وحشر الخلائق)). ومن ذلك حديث جابر رفعه: ((تمدُّ الأرض مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه)). ورجاله ثقات، إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه.

ومنها حديث ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قال: ((يزاد فيها، وينقص منها، ويذهب آكامها وجبالها، وأوديتها، وشجرها، وتمدّ مدّ الأديم العكاظي)).

الوقت الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض والسماوات: أفادنا الرسول ﷺ أن الوقت الذي يتم فيه هذا التبديل هو وقت مرور الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل، ففي (صحيح مسلم) عن عائشة قالت: ((سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فأين يكون الناس يا رسول الله؟ فقال: على الصراط)).

وفي (صحيح مسلم) أيضًا عن ثوبان أن حبرًا من أحبار اليهود سأل الرسول ﷺ فقال: أين يكون الناس ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: ((هم في الظلمة دون الجسر))، والمراد بالجسر الصراط.

الجمع بين قوله: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ وبين حديث: ((ليس أحد يحاسب إلا هلك))

يتفاوت حساب العباد، فبعض العباد يكون حسابهم عسيرًا، وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وتمردوا على شرع الله، وكذبوا بالرسل، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر؛ بسبب كثرة الذنوب وعظمها.

وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب، وهم فئةٌ قليلة لا يجاوزون السبعين ألفًا، وهم الصفوة من هذه الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح والجهاد، وبعض العباد يحاسبون حسابًا يسيرًا، وهؤلاء لا يناقشون الحساب، أي لا يدقق، ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها. وهذا معنى قوله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

ففي (صحيح البخاري ومسلم) عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: ((ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك)).

قال النووي في شرحه للحديث: معنى نوقش الحساب: استقصي عليه. قال القاضي: وقوله: ((عُذِّب)) له معنيان: أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض

الذنوب، والتوقيف عليها هو التعذيب لِمَا فيه من التوبيخ. والثاني: أنه مفضٍ إلى العذاب بالنار، ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: ((هلك)) مكان ((عذب)) هذا كلام القاضي.

قال النووي: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصي عليه، ولم يُسَامَح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء.

ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله: ((إنما ذلك العرض)) قال: إن الحساب المذكور في الآية، إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منَّةَ الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوهِ عنها في الآخرة. والمراد بالعرض - كما هو ظاهر من هذه الأحاديث - عرض ذنوب المؤمنين عليهم، كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانِهَا لهم.

ذكر الحوض وما يتعلق به من مسائل

ذكر الحوض وصفته، وأدلة ثبوته، والعلاقة بينه وبين الكوثر، وموضع كلّ منهما:

تعريف الحوض لغةً: مجمع الماء، وجمعه حياض وأحواض. والمراد به في الشرع: هو ما جاء في الخبر به من أن لنبينا محمد ﷺ حوضا ترد عليه أمته يوم القيامه، جعله الله غياثًا لهم، وإكرامًا لنبينا محمد ﷺ.

وقد ثبت الحوض بالنصوص الصحيحة الصريحة المتواترة، واعتقد بثبوته جميع سلف هذه الأمة، ولم ينكر إثباته إلا الخوارج وبعض المعتزلة. قال السفاريني:

"والحوض والكوثر ثابت بالنص، وإجماع أهل السنة والجماعة حتى عده أهل السنة في العقائدِ الدينية لأجل الرد على أهل البدع والضلال". والكوثر في لغة العرب وصف يدل على المبالغة في الكثرة.

أما في الشرع فله معنيان:

المعنى الأول: أنه نهر في الجنة أعطاه الله لنبيه ﷺ، وهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١] كما فسره النبي ﷺ بذلك كما روى مسلم في صحيحه عن أنس > قال: ((بينما نحن عند النبي ﷺ إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت علي سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ إلى آخرها، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربِّي عليه خيرٌ كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة)) الحديث.

وعند الترمذي عن ابن عمر } عن النبي ﷺ قال: ((الكوثرُ نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت)) الحديث. وقال الترمذي: إنه حسن صحيح. وصححه الألباني كما في (صحيح سنن الترمذي).

المعنى الثاني: أنه حوض عظيم، والحوض هو: مجمع الماء يوضع في أرض المحشر يوم القيامة، ترد عليه أمة محمد ﷺ وهذا الحوض يأتيه ماؤه من نهر الكوثر الذي في الجنة، ولذا يسمى حوض الكوثر والدليل على ذلك ما رواه مسلم في (صحيحه) من حديث أبي ذر: ((أن الحوض يشخب -يصب- فيه ميزابان من الجنة)).

وظاهر الحديث: أن الحوض بجانب الجنة؛ لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها، كما قال ذلك ابن حجر -رحمه الله- في (فتح الباري) والله أعلم.

وأما هل هو خاص بالنبي ﷺ دون غيره من الأنبياء أم لا؟

فأما نهر الكوثر الذي يُصب من مائه في الحوض، فإنه لم يُنقل نظيره لغير النبي ﷺ وامتنَّ الله عليه به في السورة، فلا يبعد أنه خاص بنبينا ﷺ دون غيره من الأنبياء.

وأما حوض الكوثر: فقد اشتهر عند العلماء اختصاصُ نبينا ﷺ به، وممن صرح بذلك القرطبي في (المفهم) لكن أخرج الترمذي (٢٣٦٧) من حديث سمرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ لكل نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم)). وهذا الحديث جميع أسانيده ضعيفة، لكن بعض العلماء حكم له بالقبول لكثرة أسانيده كما فعل الألباني في (الصحيحة) ومنهم من حكم عليه بالضعف، فإذا ثبت الحديث كان المختص بنبينا ﷺ النهر دون الحوض، وإن لم يثبت فلا يبعد أن يكون الحوض أيضًا خاصًّا به دون غيره -والله أعلم.

وقد ورد في السنة الصحيحة ذكر صفات النهر الذي في الجنة والحوض الذي في أرض المحشر فمن صفات نهر الكوثر الذي في الجنة: ما رواه البخاري في (صحيحه) عن أنس > عن النبي ﷺ قال: ((بينا أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، قال: فضرب الملك بيده، فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر)).

وروى الإمام أحمد عن أنس > عن النبي ﷺ أنه قال: ((أعطيت الكوثر، فإذا هو نهر يجري على ظهر الأرض، حافتاه قباب اللؤلؤ، ليس مسقوفًا، فضربت بيدي إلى تربته، فإذا تربته مسك أذفر، وحصباؤه اللؤلؤ)). وصححه الألباني في (الصحيحة).

وفي رواية عند أحمد أيضًا في (المسند) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ الْكَوْثَرِ فقَالَ: ((ذاك نهر أعطانيه الله -يعني: في الجنة- أشدّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر "الإبل" قال عمر: إِنَّ تِلْكَ لَطَيْرٌ نَاعِمَةٌ فقال رسول الله ﷺ: أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَر)). وصححه الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب).

وأما صفات الحوض الذي في أرض المحشر فمنها: ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو } أنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبدًا)).

وفي (صحيح مسلم) عن أَنَسٌ > قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: ((تُرَى فِيهِ أَبَارِيقُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ كَعَدَدِ نُجُومِ السماء))، و في رواية: ((أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ))، وفيه أيضًا عَنْ ثَوْبَانَ > : ((أن النبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ؛ فَقَالَ: أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ يَغُتُّ -أي: يصب- فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنْ الْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالآخَرُ مِنْ وَرِقٍ)) أي: فضة.

وأحاديث الحوض لا شك في تواترها عند أهل العلم بأحاديث الرسول ﷺ فقد رواها عن النبي ﷺ أكثر من خمسين صحابيًّا، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أسماء رواة أحاديثه من الصحابة في الفتح حتى قال القرطبي في (المفهم شرح صحيح مسلم): مما يجب على كل مكلَّف أن يُعلمه ويُصدّق به أن الله ﷻ قد خص نبيه محمدًا ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته، وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي.

وأما عن موقع الحوض في أرض المحشر: فقد اختلف العلماء في هذا، فمنهم من قال: إنه يكون بعد الصراط. ومنهم من قال: إنه يكون قبل الصراط، وهو قول

الأكثر، وهو الأرجح -والله أعلم- لأنه يُؤخذ بعض من يرد عليه إلى النار، فلو كان موقعه بعد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه لأنهم يكونون قد سقطوا في النار والعياذ بالله.

وفي ختام هذا المبحث لابد من التنبيه على أمر في غاية الأهمية والخطورة وهو: أنه ليس كل من انتمى للأمة المحمدية سينال نعمة وشرف الشرب من حوض النبي ﷺ ويده الشريفة، بل قد صرَّحت الأحاديث أن هناك من رجال هذه الأمة من يُذاد، ويدفع عن الحوض دفعًا شديدًا، نسأل الله العافية.

فَمَن هؤلاء الذين سيشربون، ومن أولئك الذين سيدفعون؟ لقد أجاب الرسول ﷺ على هذا السؤال إجابة واضحة شافية حتى لا يبقى لمعتذر عذر، ولا لمتقاعس حجة فقد روى مسلم في (صحيحه) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ: ((السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا، قَالُوا: أَوَ لَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا)). والغرّة: بياض في وجه الفرس. والتحجيل: بياض في قوائمه. و دُهْمٌ بُهْمٌ أي: أسود شديد خالص لا يخالطه لون آخر.

وفي البخاري ومسلم عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((أَنَا فَرَطُكُمْ -أي: سابقكم- عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ)). قَالَ

أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا يَقُولُ: قَالَ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ، فَيَقُولُ: -أي: النبي ﷺ: ((إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي)).

وعند البخاري في (صحيحه) ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ > عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَذُودَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوْضِي كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنْ الإِبِلِ عَنْ الْحَوْضِ)).

قال القرطبي -رحمه الله-: قال علماؤنا -رحمهم الله أجمعين-: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، ومن نحا نحوهم، أو سلك طريقهم، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم، وتطميس الحق، وقتل أهله، وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع. انتهى من (التذكرة).

فعلى العبد أن يجتهد في متابعة النبي ﷺ وعدم مخالفته في أي شيء من هديه؛ رجاء أن يمنّ الله عليه بالشرب من هذا الحوض المبارك، وإلا فأيُّ خزي وندامة أشدّ من خزي وندامة من يدفع من بين يدي النبي ﷺ، وقد بلغ به العطش مبلغًا لا يُطاق، ولا يحتمل؛ فيمنع من الشرب من ذاك الماء البارد الطيب، ثم يزاد عليه العذاب والخزي، والحسرة بدعاء النبي ﷺ بالسحق والبعد -والعياذ بالله- فتصَوّر هذا عذاب، فكيف بمعاينته والتعرض له؟!.

مجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢١- ٢٢]، وقال: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥] وهذه أربع آيات أيضًا هي من نصوص الصفات، وتدل على إثبات صفة فعلية وهي المجيء والإتيان.

والمجيء والإتيان معناهما متقارب: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ أي: هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وذلك يوم القيامة، وهذا اليوم يأتيهم الله فيه يوم عصيب عليهم ماذا تكون حالهم إذا لقوا الله، وقد كفروا به وبرسله، وأشركوا به، وأعرضوا عن هداه عنه لموقف موقف ذلٍّ وهوان، وحسرة إذا جاء ﷻ وهذه حاله. ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ والملائكة يأتون كما في آيات الفجر: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾، تأتي الملائكة وهكذا قوله ﷻ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ كل هذا سيأتي.

وستأتي الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢] إلى أن قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾، والقرآن متشابه يُصدِّق بعضه بعضًا، ففي الآية الأولى قال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ هناك ظلل من الغمام، السحاب الذي الله أعلم بمداه وبمقدار وبصفته، أمور غيبية لا تحيط بها

عقول العباد، ويوم تشقَّق السماء بالغمام، وتأتي منها الظلل -ظلل الغمام- وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا.

الملائكة تنزل بأمر الله وتفعل ما تُؤمَر به مما يشاء ﷻ فالملائكة في الدنيا وفي الآخرة هم رسل الله، يوكَّلُون بما يشاء سبحانه ملائكة موكلون بالوحي، بالقَطْر، بقبض الأرواح، بالجبالِ بما يشاء ﷻ يوم القيامة أيضًا يأتون ويفعلون ما يؤمرون: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وجاء في تفسير هذا البعض في هذه الآية: أنه طلوع الشمس مِن مغربها، كما جاء في الصحيح أنه: ((إذا طلعت الشمس من مغربهَا آمن مَنْ على وجه الأرض، ولكن لا ينفع نَفْسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا)).

فيجب إثبات صفات ما دلَّت عليه هذه الآيات من مجيئه ﷻ فيجب الإيمان بأنه يجيء كيف شاء لا يصلح أن يتخيَّل العباد كيفيةَ مجيء الرب ونزوله ﷻ ولا نفكر في هذا أبدًا؛ لأنه لا سبيل لعقول العباد إلى أن يتصوروا كيفية نزوله وكيفية مجيئه ﷻ لأنه ينزل كيف شاء ويجيء كيف شاء ﷻ فالعقول قاصرة عن تكييف ذاته وصفاته، بل هي قاصرة عن تكييف بعض المخلوقات، فهي عن تكييف الرب تعالى وصفاته أعجز.

وأهل السنة والجماعة يثبتون ذلك ويؤمنون به، ويعلمون أنه تعالى سيأتي يأتي للفصل بين عباده والحكم بينهم ليجزي العاملين بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر في ذلك اليوم الذي هو يوم الدين.

مباحث متعلقة باليوم الآخر (٤)

عناصر الدرس

العنصر الأول : الميزان وما يتعلق به، وما جاء في جزاء الأعمال من الثواب والعقاب ٢٥٧

العنصر الثاني : الصراط وصفته، ومعنى الورود في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ٢٦٢

الميزان وما يتعلق به، وما جاء في جزاء الأعمال من الثواب والعقاب

إتمامًا للمباحث المتعلقة باليوم الآخر، نتكلم عن أمرين مهمين تتعلق بهما أيضًا شبهات بعض المخالفين، وأنكروا وجوده، ألا وهما الميزان والصراط:

أما الميزان، فإنه يجب الإيمان به كأخذ الصحف، وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، والأدلة على إثبات الميزان، وبيان أوصافه كثيرة كقول الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص } قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل مدّ البصر، ثم يقول له أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: أحضروه، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلَم، قال: فتوضع السجلات في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء باسم الله الرحمن الرحيم)). أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه وأبو القاسم ابن حمزة في جزء

البطاقة، والحاكم في (المستدرك) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والألباني في (الصحيحة).

قال ابن أبي العز في (شرح الطحاوية): "فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات، فعلينا الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، فيا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع؛ لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال، وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنًا..".

واختلف العلماء هل في يوم القيامة ميزان واحد، أو موازين متعددة؟

والأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم، ولجميع الأعمال، كِفتاه كأطباق السماوات والأرض، وقيل: إنه لكلِّ أمةٍ ميزان، وقال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان، ومن قال: إنه ميزانٌ واحد أجاب عن الآيات بأن المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة.

وأهل السنة يؤمنون بأن الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات حق، قالوا: وله لسان وكفتان توزن بهما صحائف الأعمال، وهو ميزان حسي، وذهب بعض المبتدعة كالمعتزلةوبعض الملحدين إلى أن الميزان أمر معنوي، قالوا: والمراد به العدل.

شبهتهم: قال المعتزلة: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، ومثلها يوزن بميزان معنوي، هو العدل، وإنما يقبل الوزن الأجسام، قالوا: والله لا يحتاج إلى الميزان، ولا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال، أما الله فلا يحتاج إلى الميزان، هكذا المعتزلة حرفوا النصوص بأهوائهم.

وردّ عليهم أهل السنة بأن الله يقلب الأعراض أجسامًا، كما في حديث البراء بن عازب، أن العمل يمثل في القبر لصاحبه إنسانًا حسنًا، أو قبيحًا، مع أن العمل معنوي، كما في صحيحه، وكما في حديث أبي هريرة: ((يؤتى بالموت كبشًا أغر، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة فيشرئبون، وينظرون، ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون، وينظرون، ويرون أن قد جاء الفرج، فيذبح الموت كالكبش)) وهو معنوي، فكذلك الميزان، كذلك الله -تبارك وتعالى- يقلب الأعمال أجسامًا، فتوزن، ويوزن الشخص، توزن الأعمال، ويوزن الشخص، يعني ((يؤتى بالرجل العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة)) وقال النبي ﷺ: ((في دقتي ساقي ابن مسعود، إنهما، لهما في الميزان أثقل يوم القيامة من جبل أحد))، ويوزن الشخص، وتوزن الأعمال، ومنشأ ضلال هؤلاء المعتزلة وغيرهم قياس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، والذي دلّت عليه السنة أن ميزان الأعمال حسي له كفتان حسيتان مشاهدتان.

ومن ذلك حديث البطاقة: أنه يؤتى برجل، ويخرج له تسعة وتسعون سجلًّا، كل سجل مد البصر سيئات، ثم يؤخذ له بطاقة فيها الشهادتان، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فتوضع السجلات في كفة، وتوضع البطاقة في كِفة، فطاشت السجلات من كثرة البطاقة، فنجي وسلم، وغفر الله له.

والترتيب في الميزان، والحوض، والصراط، والحساب، الصواب أن مراتب البعث والمعاد والصراط، أنها أولًا المعاد، والبعث، والنشور، ثم القيام لرب العالمين، ثم الحوض، ثم العرض، ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال، ثم الميزان، ثم الورود على الصراط، ثم الجنة.

الميزان عند أهل الحق ميزان حسي له كفتان عظيمتان، والأدلة على إثبات الميزان منها قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩]، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ [القارعة: ٦: ٨].

واختلف العلماء هل في موقف القيامة ميزان واحد أم موازين متعددة؟ فالأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم، ولجميع الأعمال كفَّتاه كأطباق السماوات والأرض، وقيل: إنه لكل أمة ميزان. كم سبق ذكر ذلك فيما تقدم.

ومن الأدلة أيضًا على أن الميزان حسّيّ ما رواه الترمذي في سياق آخر: ((توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة)) الحديث، وفي هذا السياق فائدة جليلة، وهي أن العامل يوزن مع عمله، وهو دليل على أن الميزان له كفتان حسيتان.

ومن الأدلة أيضًا: ما روى البخاري عن أبي هريرة < عن النبي ﷺ قال: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناحَ بعوضة، قال: اقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾)) وقال ﷺ في ساقي ابن مسعود: ((والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد)) كما تقدم.

وقد وردت الأحاديث -أيضًا- بوزن الأعمال أنفسها، منها حديث أبي مالك الأشعري في (صحيح مسلم): ((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان))، ومنها في (الصحيح)، وهو خاتمة كتاب البخاري: ((كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمدِهِ، سبحان الله العظيم)).

فهذه الأدلة السابقة تدل على وزن الأشخاص والأعمال وصحائف الأعمال بميزان حسي، له كفتان حسيتان، فثبت وزن الأعمال والعامل وصحف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان.

الحكمة في وزن الأعمال بالميزان الحسّي: قال الثعلبي: الحكمة في ذلك تعريف الله عباده ما لهم عنده من الجزاء، من خير، أو شر، وقيل: بل الحكمة في وزن الأعمال ظهور عدل الله سبحانه في جميع عبادِهِ، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسلَ مبشرين، ومنذرين. ومن الحكمة أيضًا بيان فضل الله، وأنه يزن مثاقيلَ الذر من خير، أو شر، قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وفيه إدخال البشر والسرور على المؤمنين، وراء ذلك أيضًا من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه.

حصول الثواب والعقاب في الآخرة، سواء أكان الثواب والعقاب حسيًّا أم معنويًّا، من الأمور التي قررتها الشريعة، بل أمر قررته شرائع السماء، وأقرته شرائع الأرض، وقامت عليه حياة الناس في الأولى والآخرة، وهو من الأمور المعلومة بالضرورة، ولا ينكره إلا جاحد معاند؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقد تنوعت دلالات الكتاب والسنة على هذا الأمر العظيم، وما الميزان والعرض والحشر وغيره إلا هو لازم من لوازمه.

الترتيب في الحساب والميزان أيهما يكون قبل الآخر مع التوجيه:

قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ وذلك لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها.

والترتيب في الميزان والحوض والصراط: اعلم: أن مراتب المعاد والبعث والصراط والحساب، والحوض والميزان ما يلي معاد وبعث ونشور، ثم القيام لرب العالمين، ثم الحوض، ثم العرض، ثم تطايرُ الصحف، وأخذها باليمين والشمال، ثم الميزَان، ثم المرورُ على الصراط، ثم الوقوف على القنطرة بين الجنة والنار، وجعل القرطبي في (التذكرة) هذه القنطرة صراطًا.

ثانيًا: للمؤمنين خاصة، وليس يسقط فيه أحد في النار، فيكون الترتيب هكذا: بعث، فقيام، فحوض، فحساب، فصحف، فميزان، فصراط، فقنطرة، فالجنة.

الصراط وصفته، ومعنى الورود في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾

وأما الصراط فهو لغة: الطريق الواضح. وشرعًا: جسر ممدود على متن جهنم، يرده الأولون والآخرون، والأدلة على إثباته كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ٧١]، وفي الحديث الذي رواه البيهقي، عن مسروق، عن عبد الله بن عباس قال: ((يجمع الله الناس يوم القيامة إلى أن قال: ويمرون على الصراط، والصراط كحدّ السيف دحض، ومزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم)). وجاء في الحديث عن عائشة ((في جهنم جسر أدقّ من الشعر، وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك)).

قال العلماء في وصف الصراط: إنه أدق من الشعر، وأحد من السيف، وأحرّ من الجمر جاء هذا في أحاديث، وقد أنكر بعض الطوائف الصراط، وهم المعتزلة، وقالوا: ليس هناك صراط حسي، وقالوا: إن الصراط إنما هو المراد الصراط المعنوي، فأهل الحق يثبتون الصراط على ظاهره، من كونه جسرًا ممدودًا على

متن جهنم، أحدّ من السيف وأنكر بعض المعتزلة كالقاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أصحابه، ومن أتباعه. قالوا: ليس هناك صراط حسي، قال: والمراد بالصراط طريق الجنة، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٥]، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٣].

شبهتهم: قالوا: إنهم أنكروا الصراط الحسي، زعما منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن ففيه تعذيب، ولا عذاب على المؤمنين يوم القيامة، والرد: أن هذا تأويل باطل بوجوب حمل النصوص على حقائقها، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء، والطيران في الهواء، والوقوف فيه، وقد أجاب النبي ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه، بأن القدرة صالحة لذلك.

والمراد بالورود في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ في أصح قولي العلماء: المرور على الصراط، وقال بعضهم: دخول جهنم، والصواب: أن المراد به المرور على الصراط؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢]، وفي الصحيح: أنه ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحدٌ بايع تحت الشجرة، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾؟ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾)).

أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشرّ لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ [هود: ٥٩] ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ﴾ [هود: ٦٦] و﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٩٤]. ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيًّا. فقد بَيَّنَ ﷺ في حديث جابر المذكور: أن المراد هو الورود على الصراط.

والأدلة على إثبات الصراط كثيرة:

منها: ما رواه البيهقي بسنده، عن مسروق، عن عبد الله بن عباس { قال: "يجمع الله الناس يوم القيامة إلى أن قال: ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض، ومزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم".

ثانيًا: ما أخرجه الإمام أحمد عن عائشة < قالت: قال رسول الله ﷺ: ((في جهنم جسر أدقّ من الشعر، وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك..)) الحديث.

ثالثًا: أخرج البيهقي عن أنس < قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((الصراط كحد السيف..)) الحديث. وفي بعض الآثار: أن طول الصراط مسيرة ثلاث آلاف سنة، والله أعلم، قال: ألف منها صعود، وألف منها هبوط، وألفٌ منها استواء -والله أعلم بالصواب.

وصف الصراط: قال العلماء: الصراط أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف، وأحَرُّ من الجمر، فقد أخرج الطبراني بإسناد حسن، عن عبد الله بن مسعود < قال: ((يوضع الصراط على سواء جهنم، مثل حد السيف المرهف مدحضة، أي: مزلة، أي: لا تثبت عليه قدم، بل تزل عنه إلا من يثبته الله، عليه كلاليب من نار تخطف أهلها، فتمسك بهواديها، ويستبقون عليه بأعمالهم، فمنهم من شدّه كالبرق، وذلك الذي لا ينشب أن ينجو، ومنهم من شده كالريح، ومنهم من شده كالفرس)).

ومن الأحاديث الواردة في ذلك: ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال: "يجمعُ اللهُ النـاسَ يـوم القيامـة... إلى أن قـال: فيعطـون نـورهم علـى قـدر أعمـالهم، قـال: فمنهم من يُعْطَى نوره على قدر الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرةً ويطفئ أخرى، حتى إذا أضاء قدَّمَ قدمَه، وإذا طفئ قام، قال: فيمرون على الصراط كحد السيف دحض مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر ذُنُوبِكُم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرحل، ويرمل رملًا، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمرّ الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد وتعلق يد، وتخر رِجْل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار. قال: فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد الذي أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحدًا.

قال مسروق: فما بلغ عبد الله إلى هذا المكان من هذا الحديث إلا ضحك، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لقد حدثت هذا الحديث مرارًا، كلما بلغت هذا المكان من هذا الحديث ضحكت، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يحدّثه مرارًا فما بلغ هذا المكان من هذا الحديث إلا ضحك حتى تبدو لهواته، ويبدو آخر ضرس من أضراسه؛ لقول الإنسان: ((أتهزأ بي وأنت رب العالمين؟ فيقول: لا، ولكني على ذلك قادر)).

أخرجه الحاكم في (المستدرك) موقوفًا، وأخرجه أيضًا مرفوعًا والطبراني في (الكبير)، والدارقطني في الرؤية، وابن نصر في تعظيم قدر الصلاة، وصححه الألباني في (التعليق على شرح الطحاوية) لوروده من طرق أخرى عند الطبراني في (الكبير) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وابن نصر في تعظيم قدر الصلاة، والذهبي في العلو. وصححه من هذا الوجه المنذري في (الترغيب).

الطائفة المنكرة للصراط، وشبهتها وتأويلهم للصراط والرد عليهم: أهل الحق يثبتون الصراط على ظاهره، بكونه جسرًا حسيًّا ممدودًا على متن جهنم، أحدّ من السيف، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه، وأولوا الصراط فقالوا: المراد بالصراط طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ وطريق النار المشار إليها بقوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

شبهتهم: أنكروا الصراط الحسّي، زعمًا منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن، ففيه تعذيب، ولا عذاب على المؤمنين يوم القيامة -كما تقدم.

الرد عليهم: تأويلهم هذا باطل بوجوب حمل النصوص على حقائقها، وليس العبور على الصراطِ بأعجب من المشي على الماء، والطيران في الهواء والوقوف فيه، وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه، بأن القدرة صالحة لذلك -كما تقدم.

قال القرطبي: هل هناك صراط آخر؟ اعلم رحمك الله تعالى أن في الآخرة صراطين:

أحدهما: مجاز لأهل الحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم، يجيزون عليه إلا من دخل الجنة بغير حساب، وإلا من يلتقطه عنق من النار، فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر المذكور، ولا يخلص منه إلا المؤمنون، الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم، حبسوا على صراط آخر، خاص لهم، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد، إن شاء الله تعالى لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم، التي يسقط منها من أوبقته ذنوبه، وزاد على الحسنات جرمه وعيوبه.

ويدل على هذا الصراط الثاني ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري > عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] قال: ((يخلص المؤمنون من النار، فيجلسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا، ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا)).

قال القرطبي: هذا في حق من لم يدخل النار من عصاة الموحدين، أما من دخلها، ثم أخرج، فإنهم لا يحبسون، بل إذا أخرجوا بقوا على أنهار الجنة.

والمراد بالورود في قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ اختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في هذه الآية على قولين: فقيل: المراد به الدخول في النار، وهذا قال به ابن عباس وجماعة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ بعد قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فالتعبير بالإنجاء بعد الورود دليل على أنهم دخلوا، لكنهم نجوا، وأجيب بأن التعبير بالإنجاء، لا يستلزم إحاطة العذاب بالشخص، بل يكفي في ذلك انعقادُ أسبابه، ولو لم يهلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ ولم يكن العذاب أصابه، ولكن أصاب غيره، كما تقدم ذكره.

الدليل الثاني: استدلوا باللغة قالوا: الورود في اللغة يستلزم الدخول، والجواب يرد بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم، عن النبي ﷺ أنه قال: ((والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة، قالت حفصة: فقلت: يا

رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، قال: ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾)) أشار ﷺ إلى أن ورودَ النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من النار لا تستلزم حصوله، بل تستلزم العقاب الشديد.

الدليل الثالث: استدلوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقوله تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [هود: ٩٨] وقوله: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦] فسمى دخول النار ورودًا، وأجيب بأن هذه الآيات في الكفار، ويستلزم الورود إحاطة العذاب بهم، ودخولهم من أدلة أخرى لا من نفس الورود.

مباحث متعلقة باليوم الآخر (٥)

عناصر الدرس

العنصر الأول : مسائل متعلقة بالشفاعة ٢٧١

العنصر الثاني : الأدلة على وجود الجنة والنار، ودوامهما، والرد على المخالفين ٢٧٤

مسائل متعلقة بالشفاعة

إتمامًا لمباحث اليوم الآخر، نختم ذلك بالكلام على الشفاعة، وبيان أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما أبديتان لا تفنيان، وذلك من خلال ما يلي:

أولا: الشفاعة وأدلة ثبوتها، وأقسامها، وشروطها، ولمن تكون، ومن الشفعاء:

الشفاعة لغة: الوسيلة والطلب، وعرفا: سؤال الخير للغير، وقيل: هي من الشفع الذي هو ضد الوتر، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له.

والشفاعة حق إذا تحققت شروطها، وهي: أن تكون بإذن الله تعالى، ورضاه عن المشفوع له، قال الله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦] ففي هذه الآية الكريمة أن الشفاعة لا تنفع إلا بشرطين:

الأول: إذن اللهِ للشافعِ أن يشفع؛ لأن الشفاعةَ ملكه سبحانه ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٣].

الثاني: رضاهُ عن المشفوع فيه بأن يكون من أهلِ التوحيد؛ لأن المشرك لا تنفعه الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان من (الفتاوى) عند هذه الآية: "فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من مُلْكٍ، أو يكون عونًا لله، ولم يبقَ إلا الشفاعة؛ فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى عن الملائكة: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فتبين بهذا بطلان ما عليه القبوريون اليوم الذين يطلبون الشفاعة من الأموات ويتقربون إليهم بأنواع القربات، كما قال الله في سلفهم: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾. [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٤٣]

وقد أعطي نبينا محمد ﷺ الشفاعة، فيشفع لمن أذن الله له فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وله ﷺ ثلاث شفاعات: أما الشفاعة الأولى؛ فيشفع في أهل الموقف حتى يُقْضَى بينهم بعد أن تتراجع الأنبياء آدم ونوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى ابن مريم ا حتى تنتهي إليه.

وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة. وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحقّ النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها".

وقال -رحمه الله: "وأما شفاعته ﷺ لأهل الذنوب من أمته؛ فمتفقٌ عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار؛ لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها! وعند هؤلاء ما ثَمَّ إلا من يدخل الجنة، فلا يدخل النار، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب..".

إلى أن قال: واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾، وبقوله: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾، وبقوله: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾، وبقوله: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾.

وجواب أهل السنة: أن هذا يراد به شيئين:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين؛ كما قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٨] فهؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنهم كانوا كفَّارًا.

والثاني: أنه يراد بذلك الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك، ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنِهِ، كما يشفعُ الناسُ في بعضهم عند بعض".

وإتمامًا للفائدة لا بد من سرد أنواع الشفاعة جملةً كاملة، وذلك كما أحصاها ابن أبي العز في (شرح الطحاوية):

الأولى: الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، وهي التي يتأخَّر عنها أولوا العزم حتى تنتهي إلى رسول الله محمد ﷺ.

الثانية: شفاعة رسول الله ﷺ لأهل الجنة في دخولها بعد الفراغ من الحساب.

الثالثة: الشفاعة لرفع درجات بعض من يدخل الجنة. وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث بها.

الرابعة: الشفاعة فيمن استحق النارَ من بعض الموحدين أن لا يدخلها.

الخامسة: الشفاعة لمن دخل النار من بعض الموحدين أن يخرج منها.

السادسة: الشفاعة في أقوام قد تساوت حسناتهم، وسيئاتهم فيشفعون فيهم ليدخلوا الجنة.

السابعة: الشفاعة في أقوامٍ أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

الثامنة: الشفاعة في تخفيفِ العذابِ عمن يستحقه، وهي شفاعة رسول الله ﷺ في عمِّه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه.

الأدلة على وجود الجنة والنـار، ودوامهما، والرد على المخالفين

الذي تضافرت عليه نصوص الكتاب والسنة، واتفق عليه أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وما زالوا على هذا حتى نبغت نابغة من الخوارج والمعتزلة والقدرية فأنكروا ذلك، وخالفوا إجماع الأمة.

والجنة والنار هما داران للجزاءِ على الأعمال، والإيمان بهما داخلٌ في الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالجنة والنار لا بد منه لكل مسلم من الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار.

والإيمان بأن الجنة والنار موجودتان مخلوقتان الآن، وفيه مذهبان للناس:

المذهب الأول: الإيمان بأن الجنة والنار مخلوقتان الآن دائمتان لا تفنيان أبدًا، وأنهما مخلوقتان الآن، وموجودتان، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، مذهب الصحابة والتابعين.

المذهب الثاني: أنهما معدومتان الآن، وإنما تخلقان يوم القيامة، وهذا مذهب أهل البدع من المعتزلة والقدرية وغيرهم، كما سبقت الإشارة إليه، يقولون:

إنهما الآن معدومتان، وإنما تخلقان يوم القيامة، والصواب ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي عليه الصحابة والتابعون، اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أصحاب رسول الله ﷺ } والتابعون، وتابعوهم، وأهل السنة، والحديث قاطبة، وفقهاء الإسلام، وأهل التصوف والزهد على اعتقاد ذلك وإثباته، وأنهما مخلوقتان الآن موجودتان؛ خلافًا لأهل البدع القائلين بأنهما معدومتان الآن، وإنما تخلقان يوم القيامة.

استدل أهل الحق على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن بأنواعٍ من الأدلة، وإذا قلنا بأنواعٍ من الأدلة، فالمعنى أن كل نوع تحته أفراد من الأدلة، ليس المرادُ حصر الأفراد، وإنما المراد حصر النوع، كل نوع تحته أفراد.

من الأدلة التي كل نوع تحته أدلة كثيرة، وذلك أنهم استندوا إلى خصوص الكتاب والسنة، وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم، من أولهم إلى آخرهم، فإنهم دعوا الأممَ إليها، وأخبروا بها.

النوع الأول: التعبير بصيغة الماضي في الجنة والنار، والتعبير بالماضي يدل على حصول الشي ووجوده، ومن أمثلة ذلك قوله -تعالى- عن الجنة: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ وقوله عن النار: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤].

قال ابن عادل في (اللباب في علوم الكتاب) -عند تفسير بداية البقرة-: هذه الآيات صريحة في أن الجنة والنار مخلوقتان؛ لأنه تعالى قال في صفة النار: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ وقال في وصف الجنة في آية أخرى: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ ﴾ [البقرة: ٢٥]. وهذا إخبارٌ عن وقوع هَذَا الملك وحصوله، وحصول الملك في الحال يقتضي حصول المملوكِ في الحَالِ.

ومن الأدلة أيضًا قوله عن النار: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [الفجر: ٢١]، وقوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١] فقوله: "أعدت" بصيغة الماضي، تدل على أنها موجودةٌ، ومخلوقةٌ الآن.

النوع الثاني من الأدلة: رؤية النبي ﷺ للجنة والنار في السماء يوم المعراج، والرؤية لا تكون إلا لشيء موجود قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٥] ففي (الصحيحين) من حديث أنس > في قصة الإسراء وفي آخره: ((ثم انطلق بي جبريل، حتى أتي سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي قال: ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)) والجنابذ، يعني: قباب اللؤلؤ، جمع قُبة فقوله: ((ثم دخلت الجنة)) هذا دليل على أن الجنة مخلوقة الآن؛ خلافًا لأهل البدع القائلين بأنها لا تخلق إلا يوم القيامة.

النوع الثالث من الأدلة: أدلة عذاب القبر ونعيمه، وأن الروح تدخل الجنة قبل يوم القيامة، وكذلك روح الكافر تدخل النار قبل يوم القيامة، من أمثلة ذلك ما في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عمر } أن رسول ﷺ قال: ((إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعدُهُ بالغداةِ والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة))، ومن أمثلة ذلك أيضًا: حديث البراء بن عازب > الطويل المشهور، وفيه: ((ينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها)).

ومن أمثلة ذلك أيضًا حديث أنس، وفيه فيقول له: ((انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، قال: فيراهما جميعًا))، ومن أمثلة ذلك، الحديث

الصحيح المشهور: ((إنما نسمةُ المؤمنِ طائرٌ يعلق في شجرِ الجنةِ، حتى يرجعه الله إلى جسدِهِ يومَ يبعثه)) هذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

النوع الرابع من الأدلة: رؤية النبي ﷺ للجنة والنار يوم الكسوف، وهو على المنبر، كما في حديث عائشة < قالت: خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ فذكرت الحديث وفيه: ((وقال رسول الله ﷺ رأيت في مقامي هذا كل شيء وُعِدْتُم به، حتى لقد رأيتني آخذُ قطفًا من الجنة، حين رأيتموني تقدَّمت)).

النوع الخامس من الأدلة: إرسال جبريل ﷺ بعد خلق الجنة والنار للنظر إليهما، فشاهدهما، وما حفَّ بكل منهما، كما في حديث أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب، فانظر إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها وقال في النار مثل ذلك)).. الحديث.

هذه خمسة أنواع من الأدلة، كلها تدل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، وتحت كل نوع أفراد من الأدلة، أما المنكرون لخلقهما الآن، وهم المعتزلة والقدرية، فإنهم يقولون: إن الله ينشئهما، ويخلقهما يوم القيامة، وأنكروا وجودهما الآن.

حجتهم في ذلك: هذا المذهب مبنيٌّ على أصلهم الفاسد، الذي حملهم على الإنكار، وأصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعةً للرب فيما يفعله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعلَ كذا، وهو الحسن والقبح العقليان، وقياس الله على خلقه في أفعاله، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات، فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة، التي وضعوها لله، وهي مسألة الحسن والقبح العقليين، وصرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا، وبدَّلوا من خالف شريعتهم، فقالوا: -هذه

شبهتكم العقلية- قالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة، والعبث محال على الله.

هذه حجتهم: العقل، قالوا: خلق الجنة والنار الآن قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مددًا طويلة، ما فيها أحد، والعبث محال على الله. بتعبير آخر قالوا: وجودهما اليوم، ولا جزاء نوع من العبث، والعبث محال على الله.

الرد عليهم:

أولًا: بإبطال أصلهم الفاسد: الذي وضعوا به شريعةً للرب، وهو تحكيم عقولهم قبحًا وحسنًا، وقياس اللهِ على خلقه.

ويقال ثانيًا: ليستا معطلتين من قال: إنهما معطلتان ليستا معطلتين، بل هما مشغولتان؛ فإن الروح تنعم في الجنة، أو تعذب في النار، قبل يوم القيامة، كحديث: ((إنما مثل روح المؤمن كطائر يعلق في شجر الجنة، حتى يُرجعه الله إلى جسده يوم القيامة)) فهذا صريح في دخول الروح الجنة، قبل يوم القيامة، وحديث البراء بن عازب في قصة العبد المؤمن والكافر، وأنه يفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، أو يفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها.

ويقال ثالثًا في الرد عليهم: أن الاتِّعَاظ، والتذكر فيهما إذا كانتا موجودتين الآن أشد، وأبلغ منه فيما إذا قيل: إن الله ينشئهما يوم القيامة، فإن الإنسان إذا علم بوجود الجنة اجتهد في تحصيلها، وإذا علم بوجود النار اجتهد في الهرب والبعد منها، أكثر مما لو كانت غير موجودة.

ومن شبههم الشرعية: استدلوا بقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] وجه

الاستلال من الآيتين: أن كلًّا من هاتين الآيتين، تدل على أن المخلوقات صائرة إلى الفناء، ولو كانت الجنة والنار مخلوقتان الآن، لوجب اضطرارًا أن تفنيا يوم القيامة، وأن يهلك كل من فيهما، ويموت فيموت الحور العين التي في الجنة والولدان، وقد أخبر الله سبحانه أن الدار دارُ خلود، ومن فيها مخلدون لا يموتون فيها، وخبر الله سبحانه لا يجوز عليه خلف، فدل على أنهما تخلقان يوم القيامة، هذا دليلهم.

أجيب عن الآيتين بأجوبةٍ منها: أن المراد بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ ما كتب الله عليه الفناء، والهلاك هالك، وأما الجنة والنار، فخلقتا للبقاء لا للفناء، فلا يلزم من وجودهِمَا الآن الفناءُ يوم القيامة، وكذلك العرش لا يفنَى، فإنه سقف الجنة، وقيل: المراد كل شيء هالك إلا ملكه، وقيل: المراد إلا ما أريد به وجهه، وقيل: إن الآية وردت للرّد على الملائكة، وذلك أن الله تعالى أنزل كل من عليها، فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السماء والأرض، أنهم يموتون فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ لأنه حيٌّ لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، والذي حمل أهل السنة على تأويل هاتين الآيتين، إنما فعلوا ذلك توفيقًا بينهما وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار، أيضًا.

الشبهة الثانية للمعتزلة: في أن الجنة والنار ليستا موجودتين الآن، استدلوا بحديث ابن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لقيت إبراهيم ﷺ ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، وعذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر))، ومثله حديث جابر > عنه مرفوعًا: ((من قال سبحان الله وبحمده غُرست له نخلة في الجنة)).

ووجه الاستدلال: أن القيعان لشيء غير موجود، ولو كانت مخلوقة مفروغًا منها لم تكن قيعانًا، ولم يكن لهذا الغراس معنى، ولقال: طيبة الثمرة، ولم يقل: طيبة التربة.

هذا دليلهم، وأجيب بأن قوله: طيبة التربة وعذبة الماء وقيعان دليل على وجودها، فتربتها موجودة، والحادث إنما هو غرسها فقط، فالحديث صحيح صريح في أن أرض الجنة مخلوقة، وأن الذكر ينشئ الله سبحانه لقائله منه غراسًا في تلك الأرض.

ومن شبههم: قول الله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] ووجه الدلالة: أنها قالت "ابن لي بيتًا" ولم تقل: بيتًا مبنيًّا، فدل على أنها لم تخلق؛ إذ من المحال أن يقول قائل لمن نسج له ثوبٌ، انسج لي ثوبًا.

وأجيب: بأن غاية ما تدل عليه الآية، أنه لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنه لا يزال الله يحدث فيها شيئًا بعد شيء، ولا تدل على أنها الآن معدومة، بل إن أرضها مخلوقة وبناء الغروس فيها بالأعمال المذكورة، والعبد كلما وسع في أعمال البر، وسَّعَ الله له في الجنة، وكلما عمل خيرًا غرس له به هناك غراسًا، وبنا له بناءً، وأنشأ له من عمله أنواعًا مما يتمتع به.

ويُجاب عن شبهتهم بجواب إجمال، وهو أن يقال: إن أردتم بقولكم: إنها الآن معدومة، بمنزلة النفخ في الصور، وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرده المعلوم بالضرورة من الأحاديث الصحيحة الصريحة، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا تزال الله يحدث فيها شيئًا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون، أحدثَ الله فيها عند دخولهم أمورًا أخرى، فهذا حق لا يمكن ردّه، وهو ما تشهد له الأدلة، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القول.

مكان الجنة: معروف أن مكان الجنة في السماء، وأنه فوق السماء السابعة، وأن السقف عرش الرحمن، والنار في الأرض في أسفل سافلين، وتبرز يوم القيامة، فهذا في وجود الجنة والنار.

أما أبدية الجنة والنار: فقد أجمع أهل السنة والجماعة على بقاء الجنة والنار أبدًا، وخلود أهلهما فيهما إلا من شاء الله له الخروج من النار من عصاةِ الموحدينَ.

قال أبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف: "ويشهد أهلُ السنة أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتَان، لا يفنيان أبدًا، وأن أهلَ الجنةِ لا يخرجون منها أبدًا، وكذلك أهل النار، الذين هم أهلها خُلِقُوا لها، لا يخرجون منها أبدًا، وأن المنادي ينادي يومئذ: ((يا أهل الجنة خلودٌ ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت)). على ما ورد به الخبر الصحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى): "وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم، ولا يفنى بالكلية، كالجنة والنار، والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كالجهم بن صفوان، ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع سلف الأمة وأئمتها".

وبالجملة فللعلماء في هذه المسألة أقوال، يعني: هل الجنة والنار تبقيان، أو لا تبقيان، مستمرتان؟

القول الأول: أن الجنة والنار لا تفنيان أبدًا، ولا تبيدان مدى الدهور باقيتان بإبقاء الله لهما، وهذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

الثاني: أن الجنةَ باقية لا تفنى، أما النار فتفنَى ولو بعد حين، وهذا قول يروى عن جماعة من الناس، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرهما.

القول الثالث: أنهما تفنيان جميعًا. الجنة والنار تفنيان جميعًا، وهذا قول الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطارِ الأرض، هذا قول منكر، قول الجهم، يقول: إن الجنة والنار تفنيان أبدًا.

شبهة الجهم: يقول: الجنة والنار حادثتان، وما ثبت حدوثه ثبت فناؤه هذه قاعدة عنده، يعتمد على العقل، الجنة والنار حادثتان، وما ثبت حدوثه ثبت فناؤه، واستحال بقاؤه؛ إذ لو بقيتا شاركتا الله في بقائه، وما لم تك تفنيان، لو قلنا: إنهما مستمرتان باقيتان شاركتا الله في بقائه، والذي يبقى هو الله، ويُردّ عليه بأن بقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل لإبقاء الله لهما، وأما بقاء الله سبحانه فهو واجب لذاته.

وشبهة الجهم مبنية على أصله الفاسد، الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهذا الأصل هو عُمدة أهل الكلام المذموم، الذي استدلوا به على حدوث الأجسام، وحدوث ما لا يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم. وفي أبدية النار ودوامها خاصة مداخل: وهي ترجع إلى قول السابقين.

القول الأول: إن النار دائمة مؤبدة، لا تفنى، ولا تبيد، وهذا قول الجماهير.

القول الثاني: إن الله يخرج من النار من يشاء كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيهما، فإنه جعل لهما أمدًا تنتهي إليه، أما القول الأول: فإن الله يخرج منها من يشاء، وهم عصاة الموحدين، ويبقي فيها الكفار بقاءً سرمديًّا لا انقضاء له، وهذا قول جمهور السلف والخلف، وأما الذين قالوا: إنها لا تبقى

استدلوا بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]، وقالوا أيضًا: وكل نص يقتضي الخلود في النار، فهو قابل؛ لأن يسلط عليه الاستثناء.

ومن أدلتهم: قالوا: التعذيب والخلود مراد به طول المكث، ومن أدلتهم قالوا: غلبة الرحمة للغضب. ومن أدلتهم: التعبير عن مدة العذاب بما يفيد التحديد.

والدليل الخامس: من أدلتهم دوامُ الجنة، قالوا: دوام الجنة مقتضى الحكمة بخلاف النار. وقالوا من أدلتهم الدليل السادس: الإحسان مقصود لذاته، والعذاب مقصودٌ لغيره، وما كان مقصودًا لغيره، فإنه ينتهي، أما أولئك، فهناك أقوال أخرى: في النار من الناس من قال: إنها يدخلها قوم، ثم يخرجون منها ويخلفهم آخرون، وهذا قول اليهود، ومنهم من قال: إنها تفنى وهذا قول الجهم، ومنهم من قال: تفنى الحركات، وهذا قول أبي الهذيل العلاف.

وهذه كلها أقوال باطلة، والصواب القول الأول، وهو أن النار مؤبدة باقية لا تفنى أبدَ الآباد؛ لأن الله أخبر بذلك قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقال سبحانه: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] والأحقاب: المدد الطويلة، التي لا تنتهي، كلما انتهى حقب، يعقبها حقب، وهكذا إلى ما لا نهاية، وهذا هو الصواب الذي عليه المحققون من السلف من أهل السنة، وهو الذي عليه الصحابة والتابعون.

الأصول والقواعد التي تبيِّن منهج السلف

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : من الأصول التي بنى عليها السلف منهجهم ٢٨٧

العنـــصر الثـــاني : تتمة الحديث عن الأصول التي بنى عليها السلف منهجهم ٣٠١

من الأصول التي بنى عليها السلف منهجهم

من القضايا المهمة معرفة الأصول والقواعد التي تبيِّن منهج السلف، وتميزه عن سائر المناهج الأخرى:

واعلم بأن أهل السنة والجماعة: هم من كان على مثل ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه. وسموا أهل السنة: لاستمساكهم واتباعهم سنةَ النبي ﷺ.

وسموا الجماعة: لأنهم الذين اجتمعوا على الحق، ولم يتفرقوا في الدين، واجتمعوا على أئمة الحق، ولم يخرجوا عليهم، واتبعوا ما أجمع عليه سلف الأمة.

والسلف: هم صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وأئمة الهدى في القرون الثلاثة المفضَّلة، ويطلق على كل من اقتدى بهؤلاء، وسار على نهجهم في سائر العصور، سلفي نسبة إليهم. ولما كانوا هم المتبعين لسنة رسول الله ﷺ المقتفين للأثر، سموا "أهل الحديث"، و"أهل الأثر"، و"أهل الاتباع"، ويسمون: "الطائفة المنصورة"، و"الفرقة الناجية".

وقد تميزت هذه الأمة بالوسطية، والاعتدال بين سائر الطوائف والملل، كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ومدار معنى وسطًا في هذه الآية على العدالة والخيرية، كما قال ابن قتيبة في (تفسير غريب القرآن): ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي: عدلًا خيارًا، ومنه قوله: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم: ٢٨] أي:

خيرهم وأعدلهم، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها، وأن الغلوّ والتقصير مذمومان. انتهى كلامه.

فجعلهم سبحانه عدولًا في أنفسهم مزكون، كما أنه جعلهم أهل حق وصدق، قائمين بالعدل، كما قال جلّ شأنه: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١]. وجعل شريعتهم شريعة حق وصدق، تأمر بالعدل والإحسان، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا، خصّها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب.

ومحض الوسطية تتجلى في اتباع الشرع والانقياد المطلق للرسول ﷺ، وهدي أصحابه وما كانوا عليه، وموافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة. وكما أن هذه الأمة بين الأمم هي خيرها وأعدلها، كذلك السلف الأول من هذه الأمة هم خيرها وأعدلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية من (مجموع الفتاوى): فإن الفرقة الناجية، أهلَ السنة والجماعة، يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه العزيز، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم. فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة. وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية. وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم. وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية. وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض والخوارج".

وسنجمل في هذه النقاط الآتية ما عليه يبنى منهج السلف، والقواعد والأصول التي تدلنا على حقيقته مع بيان ما يقابله من المناهج الأخرى المخالفة.

أولًا: مصدر العقيدة: هو كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة، وإجماع السلف الصالح.

المصدر الذي منه تتلقى هذه الشريعة هو الوحي الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ، والذي جعله الله حجة على خلقه، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]. وذلك خلافًا لأهل الأهواء الذين حكَّموا عقولهم في الدين، وقدموها على نصوص الوحي، وجعلوها مصدر التشريع، دون نصوص الكتاب والسنة، فضلُّوا وأضلوا.

فأما الأمر باتّباع الكتاب والسنة فالنصوص الدالة عليه كثيرة جدًّا لا تكاد تُحصى، كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾، وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] وقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] وقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما جاء عن ابن عباس } أن النبي ﷺ قال:

((إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ)). رواه الحاكم في (المستدرك)، وقال الألباني: إسناده حسن.

قال ابن عبد البر في (الاستذكار) عقب هذا الحديث: الهدى كل الهدى فى اتباع كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فهي المبينة لمراد كتاب الله، إذا أشكل ظاهره أبانت السنة عن باطنه، وعن مراد الله منه.

مما استقر في الأصول عند أهل السنة والجماعة أن هذه الأمةَ لا تجتمع على ضلالة أبدًا كما جاء النص بذلك عن النبي ﷺ حيث قال: ((إن الله تعالى قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة)) رواه ابن أبي عاصم في السنة. وحسنه الألباني في تعليقه عليه.

ثانيًا: كل ما صحَّ من سنة رسول الله ﷺ؛ وجب قبوله والعمل به، وإن كان آحادًا في العقائد وغيرها:

والسنة الصحيحة حُجّة قائمة بنفسها مع كتاب الله تعالى، لقول الله سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾، وقوله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾، وقوله: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٣١]

وقال رسول الله ﷺ: ((ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)). رواه أبو داود، وصححه العجلوني في (كشف الخفاء).

وفي رواية: ((وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله)). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

قال ابن عبد البر في (الجامع): "وقد أمر الله ﷻ بطاعته واتباعه أمرًا مطلقًا مجملًا لم يقيد بشيء، ولم يقل: ما وافق كتاب الله، كما قال بعض أهل الزيغ". انتهى كلامه.

واعتبار الكتاب والسنة في الجملة ليس محل إشكال عند جميع الطوائف، حيث لا يوجد من يجاهر علنا برد كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، وهذا لا يقوله مسلم يؤمن بالله ورسوله ﷺ، ولكنهم عند التفصيل لبّس عليهم الشيطان، وزين لهم مخالفة نصوص الكتاب والسنة، بدعوى أنها ظنية اللفظ، أو ظنية الدلالة، على اصطلاحهم، وأنها لا تقوم حينئذ بمعارضة دلالة العقل، أو الوجد، أو أحد متبوعيهم، ونحو ذلك.

والحجة التي بنوا عليها في ردّ خبر الواحد، وعدم الاحتجاجِ بِهِ في العقائد، أنّ الآحاد لا تفيد اليقين، والعقائد لابدَّ فيها من اليقين هكذا قالوا.ومما يبين فساد هذا القول وبطلانه، تناقض أهله فيه، واضطرابهم تأصيلًا وتفصيلًا.

فهم فرقوا في الاحتجاج بخبر الواحد بين الأحكام العملية والعقائد، وليس لهم على ذلك التفريق دليل صحيح إلَّا اتباع الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا؛ فإن النصوص الدالة على وجوب طاعة الرسول ﷺ عامة مطردة، لا يجوز تخصيص بعضها من بعض في العلم والعمل إلَّا بدليل، ولا دليل.

وقد انعقد الإجماع على أن قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾، المراد بالرد فيه إلى رسول الله ﷺ الرجوع إليه في حياته، والرجوع إليه بعد مماته، واتفقوا على أن الرد إلى سنته لم يسق عنا فرضه بعد مماته.

قال ابن جرير في (تفسيره): هو أمر من الله بطاعة رسوله في حياته، فيما أمر ونهى، وبعد وفاته في اتباع سنته، وذلك أن الله عمّ بالأمر بطاعته، ولم يخصص ذلك في حالٍ دون حال، فهو على العموم حتى يخصّ ذلك ما يجب التسليم له، انتهى كلامه. ولا زالت هذه الأمة تحتج بخبر الواحد في الخبريات العلميات، كما

تحتج بها الأحكام العملية، لا جرم أن الأحكام العملية متضمنة الإخبارَ عن الله تعالى في دينه وشرعه، وهو راجع إلى أسمائه وصفاته، ولهذا لم يزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقضاء والقدر واليوم الآخر، ومسائل الأسماء والأحكام وغيرها، ولم يُنقل عن أحد منهم ألبتة أنه جوَّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته.

بل هذا إنما نقل عن متأخري المتكلمين الذين لا عناية لهم بما جاء عن الله -تبارك وتعالى- ورسوله، والصحابة الكرام.

ويؤكد الاحتجاج بخبر الواحد الأدلة التفصيلية أيضًا منها قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [الأنفال: ١٢٢]. احتج البخاري بهذه الآية على حجية خبر الواحد، وقال: ويسمى الرجل طائفة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾، فلو اقتتل رجلان دخلا في معنى الآية.

واحتج أيضًا بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ ووجه الدلالة منها يؤخذ من مفهومي الشرط والصفة؛ فإنهما يقتضيان قبول خبر الواحد؛ لأنه لا يحتاج إلى التثبّت.

وكان النبي ﷺ إذا أرسل الدعاء والأمراء إلى الأمم والقبائل اكتفى بالواحد منهم في الإرسال، كما فعل مع معاذ بن جبل وغيره. والأخبار مشهورة متظافرة على أن كل أهل بلد كانوا يتلقون ما أخبروا به عن هؤلاء الرسل بالقبول والتسليم، ولو لم يكن خبر الواحد كافيًا، ما كان في إرساله معنى.

هذا بعض ما شهد على هذا الأصل من الأدلة التفصيلية وإلّا فهي كثيرة جدًّا، اكتفيت منها بما ذكرت. وأيضًا فإن هذه الأخبار التي جاءت روايتها عن طريق الآحاد موافقة للقرآن في معناها دلت على مثل ما دلّ عليه من المعاني، فليس فيها ما يخالف القرآن، بل هي مبينة ومفسرة له، ومفصلة لما أجمله.

وليس فيها ما يخالف العقل الصريح الصحيح، وإن خالفت فإنما تخالف العقول المنكوسة، والآراء الفاسدة، وما يضرها ذلك إذا هي وافقت كتاب الله تعالى، والعقل الصحيح، والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها؟!

ثالثًا: المرجع في فهم الكتاب والسنة هو النصوص المبينة لها، وفهم السلف الصالح، ومن سار على منهجهم من الأئمة:

ولا يعارض ما ثبت من ذلك بمجرد احتمالات لغوية.

لقد تقرر فيما سبق أن الهدى والإستقامة موقوفان على اتباع كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ وهما الأصلان من ابتغى الهدى في غيرها ضل وانحرف عن الصراط المستقيم.

لا جرم أن الميزان الدقيق لفهم الكتاب والسنة، وضبط معانيهما، والتفقه في أحكامهما مبني على اتباع سبيل السلف الصالح، والاهتداء بهديهم جملةً وتفصيلًا.

وفي المقابل فإن مخالفة السلف شعار أهل البدع، كما قال شيخ الإسلام: والمقصود أن المشهورين من الطوائف -بين أهل السنة- العامة بالبدعة ليسوا منتحلين للسلف.. فلما كانوا أبعد عن متابعة السلف، كانوا أشهر بالبدعة. فعلم أن شعار أهل البدع: هو ترك انتحال اتباع السلف؛ ولهذا قال الإمام أحمد في

رسالة عبدوس بن مالك: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي - ﷺ (مجموع الفتاوى).

وقد أثنى الله عليهم في كتابه، وحث على اتباعهم، وحذر من مخالفتهم واتباع غير سبيلهم فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، أي: يتبع طريقًا غير طريقهم، ويسلك منهاجًا غير منهاجهم، ويسير على غير ما هم مستمرون عليه من عقيدة، وقولٍ وعملٍ. وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وأولى الناس دخولًا في عموم قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ من العلماء السلف الصالح من هذه الأمة، وأخص الناس بهذا الوصف القرون الثلاثة الأولى المفضلة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ بقوله: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)). رواه البخاري، ومسلم.

وهم الجماعة الذين ورد ذكرهم في قوله ﷺ: ((إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة -يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة)). رواه أحمد، وأبو داود. وصححه غير واحد من الأئمة.

وخير الناس في هذه القرون، وأرفعهم درجة، وأفضلهم قدرا الصحابة { الذين امتازوا بصحبة رسول الله ﷺ وشهدوا التنزيل، وتلقوا معانيَه من رسول الله ﷺ وجاهدوا معه على حمايته، ونشره، والدعوة إليه.

قال الشاطبي في (الاعتصام): وحاصل الأمر أن أصحابه كانوا مقتدين به مهتدين بهديه، وقد جاء مدحهم في القرآن الكريم، وأثنى على متبوعهم محمد ﷺ وإنما

خلقه ﷺ القرآن، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. فالقرآن إنما هو المتبوع على الحقيقة، وجاءت السنة مبينة له، فالمتبع للسنة متبع للقرآن، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك، فكل من اقتدى بهم فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله، وهو معنى قوله ﷺ: ((ما أنا عليه وأصحابي)) فالكتاب والسنة هو الطريق المستقيم، وما سواهما من الإجماع وغيره فناشئ عنهما، هذا الوصف الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهو معنى ما جاء في الرواية الأخرى من قوله: ((وهي الجماعة)) لأن الجماعة في وقت الإخبار كانوا على ذلك الوصف إلا أن في وصف الجماعة معنى تراه بعد إن شاء الله. انتهى كلامه.

وهذا يعتبر من أعظم أصول الاتباع، وسبل الاستقامة، بعد كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ فمن تركه أو قصر في الأخذ به ناله من الضلال، والبعد عن سواء السبيل بقدر تفريطه.

ولهذه الأهمية تتابع أئمة الهدى على الحثّ عليه، والتأصيل له، وربط الناس به، وقد تواترت السنة بذلك لمن تأملها، وسلم كل أمره لها كما في حديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: ((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة، وإن عبدًا حبشيًّا عضُّوا عليها بالنواجذ، فإنما المؤمن كالجمل الأنِف حيثما قِيدَ انقاد)). رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وقال: "حديث حسن صحيح".

وعن حذيفة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: ((إني لا أرى بقائي فيكم إلا قليلًا، فاقتدوا باللذين من بعدي -وأشار إلى أبي بكر وعمر- واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود فاقبلوه)). رواه ابن حبان، وغيره. وحسنه الألباني في (الصحيحة) وفي رواية: ((تمسكوا بعهد ابن مسعود)).

رابعًا: أصول الدين كله:

قد بينها النبي ﷺ وليس لأحد أن يحدث شيئًا زاعمًا أنه من الدين. ومن الأصول العظيمة في هذه الشريعة العلم بأن النبي ﷺ بين كل شيء، وفصل جميع ما يصلح العباد في الدنيا والآخرة، فأكمل اللهُ -تبارك وتعالى- الدين، وأتم النعمة، ولم يحوجهم إلى سواها، وجعل هذه الأمة مستغنيةً عن الأخذ من غيرها، وأخرج العباد من الظلمات إلى النور.

ومن وُجد من هذه الأمة من هو محتاج إلى شيءٍ غير هذه الشريعة، أو من لا يقيم لها وزنًا فلجهله بها، واتّباع هواه؛ فأهل الكلام يقولون: إن الكتاب والسنة لا يدلان على أصول الدين بحال، وأن أصول الدين تستفاد بقياس العقل المعلوم من غيرهما.

ومن الناس من يقول: إن القياس يحتاج إليه في معظم الشريعة لقلة النصوص الدالة على الأحكام الشرعية. ومنهم من يجعل مصدر التشريع عنده الذوق والمكاشفات، والإلهام والمنامات.

وكذلك الحكام وأهل السياسات الذين استبدلوا شريعة الله تعالى بقوانين وضعية جاهلية مخالفة لأحكام الله تعالى، وعميت قلوبهم عما تضمنته الشريعة من تحقيق أسمى المصالح في الدنيا والآخرة، وغاية العدل والإحسان الذي عمّ الخلائق

كلهم، فلا عدل أفضل من عدلها، ولا مصلحة أكمل مما جاءت به من المصالح، فمن عرف الشريعة ومقاصدها، وحسن فهمه للوسائل الموصلة إليها؛ أيقن أنها بلغت الكمال في السياسة والتدبير من حراسة الدين، وسياسة الدنيا، وحماية العباد والبلاد، وقطع دابر كل من قصد العناد، ولم يحتج أحدٌ بعدها إلى سياسة غيرها البتة.

وكذلك الأمر بالنسبة لقصص الأولين، وأخبار الآخرين، فإن الكتاب والسنة قد أتيا فيهما بأكمل الهدى، وأحسن الأسوة، وأسمى مراتب التذكر والاعتبار. وهذا كله مما علم بالضرورة من دين الإسلام، وقد تواترت معاني النصوص الدالة عليه مما لا يدع مجالًا للشك فيه قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فما من شيء تتوقفُ عليه مصالحُ العباد في الدين والدنيا إلَّا وقد بيّن في الشريعة أحسن بيان كما نصت عليه الآية، وقد قال النبي ﷺ: ((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلَّا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبدًا حبشيًّا، فإنما المؤمن كالجمل الأنف، حيثما قيد انقاد)) رواه ابن ماجه.

وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما طائر في السماء يقلب جناحيه إلَّا وقد أوجدنا فيه علمًا. رواه البزار في (مسنده) وإسناده صحيح.

قال ابن كثير في (تفسيره): "فإن القرآن قد اشتمل على كل علم نافع من خبرٍ ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهُم ودينهم، ومعاشهم ومعادِهم.

ومن الآيات الدالة على المعنى السابق قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]. والآية شاملة في تفصيلها لجميع المطالب والمقاصد المتعلقة بالدين والدنيا. قال ابن عطية في (تفسيره): "يعني من العقائد والأحكام والحلال والحرام".

خامسًا: التسليم لله ولرسوله ﷺ: ظاهرًا، وباطنًا:

فلا يعارض شيء من الكتاب أو السنة الصحيحة بقياس، ولا ذوق، ولا كشف ولا قول شيخ، ولا إمام، ونحو ذلك.

اتباع كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفق منهج السلف الصالح، أئمة الهدى، المقتدى بهم، يقتضي لزومَ الطاعةِ والانقياد لله تعالى، ولرسوله ﷺ وعدمُ مخالفتهما إلى ما سواهما، وكمالُ الطاعةِ والانقياد منوط بكمال الاتباع والتسليم.

والطاعة: هي الانقياد لدين الله تعالى، والتزام شريعته، وامتثالُ أوامره، ولا يجوز أن تصرف لغير الله، وطاعة الرسول من طاعة الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

والأدلة الآمرة بطاعة الله ورسوله في الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر، بل القرآن كله آمر بذلك بطريق التضمن أو الالتزام أو الاقتضاء، أوجب الله تعالى فيها طاعته، وطاعة رسوله ﷺ وحرم معصيته ومعصية رسوله ﷺ، وهي مناطُ إنعام الله تعالى على عباده، ووعد سبحانه بمغفرته ورضوانه، ورحمته، وجنته على طاعته، وطاعة رسوله ﷺ وأوعد بضد ذلك على معصيته، ومعصية رسوله ﷺ فعلى كل أحد أن ينقاد لطاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ فيما هو قائم به من كل شئونه.

والطاعة هي الاستجابة لله تعالى، وهي سبيل الرشاد كما قال سبحانه: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. والاتباع لا يستقيم الدين إلَّا به، غير أنه في أمور التوحيد والغيب آكد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والرضا بمحمد ﷺ رسولًا يتضمن قبول جميع ما جاء به من عند الله، ومقابلة ذلك بالرضا والتسليم والانشراح كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن كثير في (تفسيره): يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة. انتهى كلامه.

سادسًا: العقل الصريح:

موافق للنقل الصحيح، ولا يتعارض قطعيان منهما أبدًا، وعند توهم التعارض يقدم النقل. جاءت نصوص كثيرة في القرآن تحثّ على العقل والتفكر والتدبر ونحو ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، على أن لا يكون ذلك على حساب النصوص الشرعية، والله تعالى قد جمع في كتابه بين دلالة السمع، ودلالة العقل، فالأدلة

الشرعية ليست متوقفةً على مجرد دلالة الخبر كما يظنه من يظنه من الناس، بل جمعت بين الأدلة الخبرية والأدلة العقلية، كما دلّ على ذلك كتاب الله تعالى إجمالًا وتفصيلًا، فممّا دلّ على ذلك من جهة الإجمال قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾، (المؤمنون: ٧٨) وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

فجمعت هذه النصوص بين اعتبار الأدلة السمعية والأدلة العقلية، والأدلة الشرعية النقلية متضمنة للأدلة العقلية ومستلزمة لها، والأدلة العقلية مستلزمةٌ للأدلة الشرعية النقلية.

والسمع والعقل متفقان لا يمكن أن يتعارَضا، فالعقل مستلزم للسمع، والسمع متضمنٌ للعقل، وما حصل من المعارضاتِ فليست من العقليات الصحيحة، بل هي من الخيالاتِ الفاسدة، والظنون الباطلة، فلا يقال حينئذ يتعارض العقل والسمع؛ إذ هذا مستحيل، وبالتالي لا يُتصور تقديم العقل على النقل.

والعقل وحدَهُ دون اقترانه بالسمع لا يبلغ به العبد مقاصد الشرع، وغايات الهدى، وبسبب الاغترارِ بالعقل، وتجريدهِ عن السمع ضَلَّ كثيرٌ من الخلق، قال الله تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

إذا علم هذا تبين أن الواجب على كلّ مسلم اتباع ما جاء به الرسول ﷺ والاكتفاء في ذلك بما اكتفى به السلف الصالح من هذه الأمة، وأما المسالك العقلية، والطرق القياسية التي صارت بمثابة أصل الأصول، وأولى الأولويات

عند المخالفين لمنهج السلف فما هي إلَّا أوهام وخيالات، مشتملة على مقدمات باطلة لا يحصل بها المقصود، بل تناقضه في وسائِلِهِ ومقاصده، وفي مسائله ودلائله، وهي في ذاتها مناقضةٌ للطريقة الصحيحة التي دعا إليها القرآن حيث استعمل في الدلالة على التوحيد قياسَ الأولى، بخلاف من خالف وأعرض عن هداه فإنه استعمل قياس التمثيل، وقياس الشمول الذي مآله تمثيل الخالق بالمخلوق، وهي أيضًا مشتملة على مقدمات باطلة، مستلزمة لقضايا باطلة.

تتمة الحديث عن الأصول التي بنى عليها السلف منهجهم

سابعًا: الفطرة السليمة ملائمة لما شرعه الله تعالى ظاهرًا وباطنًا:

ومن الأصول التي بنا عليها السلف منهجهم: إقرارهم بالضروريات الفطرية التي ركزها التي تعالى في نفوسِ عبادِهِ، وأنه سبحانه جعل شريعته الظاهرة والباطنة ملائمةً لفطرتهم، وركز في نفوسهم معرفته، ومحبته والتوجه إليه، وجبلهم على عبادته وحده لا شريك له، فالنفس إذا تركت وخليت مما يفسدها من الوساوس، وتزيين شياطين الجن والإنس تجرَّدت لهذا الذي فطرت عليه. والله تعالى إنما بعث رسله لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها.

هذا الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وقرره سلف هذه الأمة. قال النبي ﷺ: ((كل مولودٍ يولدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانِه، أو يمجّسانِه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟)) رواه البخاري ومسلم. ثم قال أبو هريرة: "واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] الآية".

وهذا كله مع جلائه ووضوحه وقوة أدلته ظهر في هذه الأمة من ألغى مطلقًا دلالة الفطرة على الحق، وقصروا الاعتبار في دلالة النظر العقلي فقط، بل قدموه حتى على السمع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية: والله سبحانه فطر عباده على شيئين: إقرار قلوبهم به علمًا، وعلى محبته، والخضوع له عملًا وعبادةً واستعانةً، فهم مفطورون على العلم به، والعمل له، وهو الإسلام الذي قال فيه النبي ﷺ: ((كل مولود يولد على الفطرة))، وفي رواية ((على هذه الفطرة)).

ثم قال: واعلم أن المتكلمين يحكون هذا القول عمن يذكرونه من أهل الحديث وأهل الكلام، لكن يزعمون: أن الأكثرين على قولهم: بأن الإقرار بالصانع نظري، ونقلهم ذلك بحسب ما يحكونه، كما نقل هذا الرازي عن أكثر أهل التوحيد إنكار أن يكون الله فوق العرش، ونقل عن أكثر المسلمين إنكارَ النفس، وأنه لا يعاد إلى البدن، بل ذكرَ من نقل إجماع الصحابة على أن الله تعالى يفني جميع الأجسام، ولم يجزم بنفي ذلك، وأمثال هذه النقول التي ينقلونها بحسب ما عندهم. وأعجب من ذلك أن كثيرًا منهم يظن أن هذا مما لا خلاف فيه، بل القول بأن معرفة الله التي هي الإقرار بالصانع لا تحصل إلا بالنظر متفق عليه بين النّظار، فإذا ذكر له أن في ذلك خلافًا بين أهل الكلام بعضهم مع بعض تعجب من ذلك؛ وذلك لأن من سلك طريقة من هذه الطرائق لا يكاد يعرف غيرها.

وبهذا يتبين مدى بعد منهج المخالفين في الاستدلال على تقرير التوحيد، حيث جعلوا أصل ذلك وأساسه الاستدلالات النظرية العقلية المبنية على المقدمات الفلسفية التي يلتبس عليهم فيها الحق بالباطل.

ثامنًا: يجب التزام الألفاظ الشرعية في العقيدة وفي غيرها، وتجنب الألفاظ البدعية التي أحدثها الناس:

والألفاظ المجملة المحتملة للخطأ والصواب يستفسر عن معناها، فما كان حقًّا أثبت بلفظه الشرعي، وما كان باطلًا رُدَّ.

فلا ينبغي تأويل ظاهر النصوص، أو تخصيص عمومها، أو تقييد مطلقها إلَّا بدليل ظاهر من الكتاب والسنة، كما أنه لا ينبغي الأخذ بالمطلقات والعمومات قبل النظر والتقصي، والتأمل في مقيداتها ومخصصاتها.

وينبغي مراعاة ظواهر النصوص والأخذ بها، ولا يجوز أن يعتقد أحد أن لفظ الظاهر في نصوص الصفات يُراد به تمثيل صفات الله تعالى بصفات خلقه؛ فهذا باطل يشهد ببطلانه السمع والعقل؛ ونصوص الصفات نفهم معناها كما جاءت، ولا ندرك حقيقتها وكنهها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الرسالة التدمرية): إذا قال قائل: ظاهر النصوص مراد، أو ظاهرها ليس بمراد، فإنه يقال: لفظ الظاهر فيه إجمال واشتراك، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين، أو ما هو من خصائصهم؛ فلا ريب أن هذا غير مراد. ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها، ولا يرضون أن يكون ظاهرَ القرآن والحديث كفرًا وباطلًا - والله أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلَّا ما هو كفر وضلال. انتهى كلامه.

ومن ردّ من المخالفين ظاهر ما دلت عليه النصوص، فليس لأنه ينكر أن هذا المعنى المتبادر هو الظاهر، بل يقر بذلك، غير أنه يزعم أن هذا الظاهر المفهوم من اللفظ يجب تأويله عن مقتضاه لمخالفته دلالة العقل عنده.

وهذا عين المجادلة في الحق بغير علم ولا سلطان مبين، وإلا فكيف يرد ظاهرُ بل نصُّ أدلة الكتاب والسنة لمجرد تخيلات، وتوهمات عقلية لا يقوم عليها برهان، بل البراهين الساطعة من الكتاب والسنة، ودلالة العقل الصحيح كلها تدلُّ على أن هذه الألفاظ على أصلها قائمة، وفي بابها مطردة، ولنظائرها موافقة، تشهد ببطلان مسلك المتكلمين وغيرهم في تحريف النصوص وإخراجها عما دلت عليه من المعاني الصحيحة.

تاسعًا: تيسير الشريعة للفهم والعمل ظاهرًا وباطنًا:

اعلم أن مبنى هذا الدين على التيسير في العلم والعمل معًا، فالله تعالى أمر عباده بتوحيده، معرفةً وإثباتًا، وقصدًا وطلبًا، وبعبادته وحده لا شريك له، وضمن لهم سبحانه فيما أمرهم به أن لا يكلفهم إلا على قدر وسعهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (الاستقامة): ينبغي أن يُعْلَم أن للقلوب قدرةً في باب العلم، والاعتقاد العلمي، وفي باب الإرادة والقصد، وفي الحركة البدنية أيضًا، فالخطأ والنسيان هو من باب العلم يكون: إما مع تعذر العلم عليه، أو تعسره عليه، والله قد قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه لمعاذ وأبي موسى لما أرسلهما إلى اليمن: ((يسرا ولا تعسِّرَا، وبشرا ولا تنفرا، وطاوعَا ولا تختلفا)) وإذا كان ذلك كذلك فما عجز الإنسان عن عمله واعتقاده حتى يعتقد ويقول ضده خطأ أو نسيانًا فذلك مغفور له..نتهى كلامه.

عاشرًا: اطرادها وخلوها من التناقض: ومما تميّزت به الشريعة الإسلامية، اطّرادها واستمرار أحكامها، ومقتضى ذلك ثبات أصلها المبنيّ على كتاب اللهِ تعالى، وسنةِ رسوله ﷺ والإجماع المندرج عنهما.

فديننا ثابت مستمر، أكمله الله تعالى، وأحكم آياته لئلَّا يكون للناس على الله حجةٌ بعد رسوله ﷺ ولم يجعل الله تعالى لأحد من خلقِهِ بعده الحق في تبديله ونسخ أحكامه، بل أثنى سبحانه على هذه الأمة حيث ثبتوا على قواعده وأحكامه، واستمروا على تفصيله وإحكامه فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ونصوص الكتاب والسنةِ منتظمةٌ على نسق واحد، لا يعتريها خلل، ولا اضطراب، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: يشبه بعضه بعضًا، ويصدق بعضه بعضًا، ويفسر بعضه بعضًا، فهو مطرد في معانيه، لا تناقض فيه ولا اضطراب.

وقد اطَّردَ أسلوب الكتاب والسنة في بيان المعاني على رفع جميع التوهماتِ المخالفةِ لمقاصدِ البيانِ لتضمنها قرائنَ متصلةً أو منفصلةً عن اللفظ تدل على المعنى المراد، وهذا منهج عام تسلكه نصوص الكتاب والسنة في الدلالة على أمور الشريعة عمومًا. وكما أن الحق يتميز بثباته واطّراده، كذلك يتميز الباطل باختلافه وتناقضه، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾.

وكلّ ما خالف الشرع، وحاد عن نصوص الكتاب والسنة، من كفر أو ابتداع فلا بد أن يتناقض ويختلف كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨- ٩] هذا عن الكفار، وقال النبي ﷺ عن أهل البدع: ((ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كلّ بدعة ضلالة)). رواه أبو داود، والترمذي. وإذا تأملت مقالات أهل الباطل وجدتها أعظم شيء تناقضًا، وذلك يدل على فسادها وبطلانها.

حادي عشر: العصمة ثابتة للرسول ﷺ والأمة في مجموعها معصومة من الاجتماع على ضلالة:

وأما آحادها؛ فلا عصمة لأحد منهم، وما اختلف فيه الأئمة وغيرهم، فمرجعه إلى الكتاب والسنة فما قام عليه الدليل قُبِلَ، مع الاعتذار للمخطئ من مجتهدي الأمة.

ثاني عشر: في الأمة محدثون ملهمون:

كعمر بن الخطاب، والرؤيا الصالحة حق، وهي جزء من النبوة، والفراسة الصادقة حق، وفيها كرامات ومبشرات، بشرط موافقتها للشرع، وليست مصدرًا للعقيدة ولا للتشريع، وذلك خلافًا لمن زعم: أنه يتلقى العلم مباشرة من عند الله تعالى عن طريق الإلهام، أو الكشف، أو الوجد، أو من خلال الرؤى، أو نحو ذلك مما يدعيه بعض الصوفية.

ثالث عشر: المراء في الدين مذموم، والمجادلة بالحسنى مشروعة:

وما صح النهي عن الخوض فيه وجب امتثال ذلك، ويجب الإمساك عن الخوض فيما لا علم للمسلم به، وتفويض علم ذلك إلى عالمه سبحانه. لقد نهى الله تعالى عن المراء في القرآن، والجدال في آياته، ورتَّب عليه أشد العقوبة فقال: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ [غافر: ٤]. وقال النبي ﷺ ((المِرَاءُ في القرآن كفر)). حديث صحيح. أخرجه أحمد، وأبو داود.

رابع عشر: يجب الالتزام بمنهج الوحي في الرّدّ، كما يجب في الاعتقاد والتقرير:

فلا ترد البدعة ببدعة، ولا يقابل التفريط بالغلو ولا العكس. إن التصدِّيَ لأهل الأهواء والبدع، والردَّ عليهم يعد من أعظم الجهاد الذي أوجبه الله على هذه

الأمة، وهو في سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأدلة ذلك في الكتاب والسنة كثيرة جدًّا. ومتى يظهر الحق ويعلو على الباطل إذا سكت أهله، ولم يتولوا الدفاع عنه، وبيانه للناس؟! والله يقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] فزهوق الباطل لا يتحقق إلا بمجيء الحق وظهوره، وهذا بنص الآية.

وما نالت هذه الأمة الخيريةً المطلقة إلا بما حظيت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقبلها قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وليحرص كلُّ آمرٍ وناهٍ أن يكون عمله لله خالصًا، ليس لأحد سوى الله فيه شريك، وأن يكون أمره ونهيه موافقًا للكتاب والسنة، متحليًا في ذلك بالآداب الشرعية، وملتزمًا المجادلة بالتي هي أحسن كما أمر الله تعالى.

ولا بد من مراعاة ثلاثة أمور في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجادلة أهل الباطل، وهي: العلم، والرفق، والصبر.

خامس عشر: كل محدثة في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار:

واعلم أن حقيقة البدعة ترجع إلى اتخاذ ما ليس بدين دينًا، يعلم أنها مما يذم لا مما يمدح، إن الدين قد كمل كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] والدين هو ما شرعه الله تعالى، وما شرعه رسوله ﷺ لا دين لنا سواه، لا يجوز مخالفته إلى غيره، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد كثرت الأدلة في الكتاب والسنة، ونقل عن السلف الصالح من هذه الأمة ذمّ البدع والتحذير منها، فإنها تهدم أمر الشريعة التي جاءت لتحقيق مصالح العباد، وتضاد الأصل الذي عليه ينبني هذا الدين القيم. ولا شك أن البدع مذمومة، وهذا معلوم بالشرع والعقل؛ لأن اتباعها خروج عن الصراط المستقيم.

وقد جاءت نصوص كثيرة في ذم البدع والتحذير منها، منها قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وعن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب يقول: ((أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ ضلالة)) رواه مسلم. وفي حديث العرباض بن سارية: ((وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة)).

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ((لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك)) رواه أحمد، وابن أبي عاصم في السنة، وصححه الألباني.

وفي رواية: ((فإن لكل عابد شرة، ولكل شرة فترة، فإما إلى سنة، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سنة، فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك)) رواه أحمد وحسن إسناده الألباني.

ومما ورد عن السلف في التحذير من البدع ما جاء عن عبد الله بن المسعود > قال: "يا أيها الناس عليكم بالعلم قبل أن يرفع؛ فإن من رفعه أن يقبض أصحابه، وإياكم والتبدع والتنطع، وعليكم بالعتيق؛ فإنه سيكون في آخر هذه الأمة أقوامٌ يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم. رواه الدارمي، وإسناده صحيح.

وكل ما جاء في التحذير من أهل البدع وذمهم ينزل على البدع لزومًا.

مقارنة تفصيلية بين منهج أهل السنة والمناهج الأخرى

عناصر الدرس

العنصر الأول : الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان ٣١١

العنصر الثاني : الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويتفاوت بين المؤمنين ٣١٣

العنصر الثالث : ذكر مناهج المرجئة ومن وافقهم في حقيقة الإيمان ٣١٧

الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان

هذه مقارنةٌ تفصيلية بين منهج أهل السنة والجماعة، والمناهج الأخرى المخالفة، وذلك فيما يتعلق بمسائل الإيمان وبيان حقيقته، وذكر زيادته ونقصانه، وتفصيل ذلك من خلال العناصر الآتية:

أن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان:

لقد تضافرت أدلة الكتاب والسنة، وتواردت نصوصهما على أن الإيمان: اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، سواء منها أعمال القلب أم أعمال الجوارح، وعلى هذا سلف الأمة وأئمتها.

وهي متضمنة أيضًا الرد على من خالف قول الجماعة، واتبع غير سبيلهم. ومما دلَّ على ذلك من الكتاب والسنة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١] وقال سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤] فدلَّت الآيتان على أن على القلب الإيمان، وأن من لم يؤمن بقلبه فليس بمؤمن. وأما كون قول اللسان من الإيمان ففي قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية (آل عمران: ٨٤). وقوله ﷻ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية (البقرة: ١٣٦).

وقال رسول الله ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)) الحديث رواه مسلم. وأما الأدلة على أن عمل الجوارح من الإيمان فكثيرة جدًّا لا تكاد تحصى من الكتاب والسنة بل كافة ما فيهما إنما جاء لتقرير أصول الإيمان و فروعه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢، ٤]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ١٠]، وقال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. قال ابن بطة في (الإبانة): يعني: صلواتكم إلى بيت المقدس، فسمى الله الصلاة إيمانًا.

وقال رسول الله ﷺ: ((الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان)). رواه البخاري. وبناء على هذا لم يخرج قول عامة السلف عن هذا الذي قررته هذه النصوص من الكتاب والسنة، وهي صريحة بينة فيما دلت عليه، وغيرها كثير جدًّا قد استوفى كثيرًا منه ابن بطة في (الإبانة)، والآجري في (الشريعة).

ولا مانع من أن نسوق أقوال بعض الأئمة الذين حكوا الاتفاق على أن الإيمان قول وعمل وأن الأعمال داخلة في مسماه. قال وكيع: أهل السنة يقولون قول وعمل، والمرجئة يقولون: قول، والجهمية يقولون: الإيمان المعرفة. رواه ابن بطة. وقال سفيان: كان الفقهاءُ يقولون لا يستقيم قولٌ إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة. رواه ابن بطة.

وقال أبو عبيد في كتاب الإيمان: وعلى مثل هذا القول كان سفيان والأوزاعي ومالك بن أنس، ومن بعدهم من أرباب العلم وأهل السنة الذين كانوا مصابيح الأرض وأئمة العلم في دهرهم، من أهل الحجاز والشام وغيرها، زاريّن على أهل البدع كلها، ويرون الإيمان: قولًا و عملًا.

وقال الحافظ في (الفتح) وأطنب ابن أبي حاتم واللالكائي في نقل ذلك بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين، وكل من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين، وحكاه فضيل بن عياض، ووكيع عن أهل السنة والجماعة.

وقال ابن عبد البر في (التمهيد): أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قولٌ وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة و ينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان، إلا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات تسمى إيمانًا. وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر، منهم: مالك بن أنس، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهوية، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي، وأبو جعفر الطبري، ومن سلك سبيلهم، فقالوا: الإيمان قول وعمل، قول باللسان وهو الإقرار، اعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح مع الإخلاص بالنية الصادقة، قالوا: وكل ما يطاع الله ﷻ به من فريضةٍ ونافلة، فهو من الإيمان.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى): وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ذكر أبو عبيد أمة من السلف بأسمائهم في مختلف الأمصار ممن كان يقول: الإيمانُ قول وعمل، نقله عنه ابن بطة في (الإبانة). وقد توسعت في ذكر هذه الأقوال لأهمية الموضوع، وكثرة من خالف من الخلف، مع وضوح الأدلة، واتفاق السلف على ذلك. والله الهادي إلى صراط مستقيم.

الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ومُتفاوت بين المؤمنين

لقد تواترت الآثار عن السلف، وجاءت تترى، يتبع بعضها بعضًا باختلاف ألفاظها، وتنوع دلالتها على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن أهله يتفاضلون فيه بعضهم على بعض.

وبهذا صرَّح كتاب الله ﷻ وعليه نصت سنة رسول الله ﷺ وإليه ذهب الصحابة الكرام، ولم يظهر لهم فيه مخالف منهم، وقد حكى جماعة من العلماء إجماعَ

السلف على ذلك. قال البغوي في شرح السنة: "اتفق الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان. وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، على ما نطق به القرآن في الزيادة، وجاء في الحديث بالنقصان في وصف النساء".

وقال ابن عبد البر في (التمهيد): "أجمع أهل الفقه، والحديث على أن الإيمان قولٌ وعملٌ، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان إلا ما ذُكِرَ عن أبي حنيفة وأصحابه، فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيمانًا، قالوا: إنما الإيمان التصديق والإقرار، ومنهم من زاد المعرفة إلى أن قال: وعلى أن الإيمان يزيد وينقص - يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية - جماعة أهل الآثار، والفقهاء أهل الفتوى بالأمصار". انتهى كلامه.

وقال أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر، وأجمعوا على أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. وانظر: (الإبانة) له. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب، ثم قول اللسان، وعمل الجوارح".

ومما دلّ على هذا من كتاب الله ﷻ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [الفتح: ٤].

ومما يدل على تفاضل الناس في الإيمان، وارتفاع بعضهم على بعض درجات قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن بطة في (الإبانة): فقد علم أهل العلم والعقل، أن السابق أفضل من المسبوق، والتابع دون المتبوع، وإلى قال: إن العلو في الدرجات، والتفاضل في المنازل إنما هو بفضل الإيمان، وقوة اليقين، والمسابقة إليه بالأعمال الزاكية، والنيات الصادقة من القلوب الطاهرة.

فهذه نصوص صريحة في كتاب الله تعالى ومثلها كثير جدًّا تدل على زيادة الإيمان ونقصانه، وتفاضل المؤمنين بعضهم على بعض فيه. وعلى مثل ذلك جاءت السنة عن النبي ﷺ فعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)) أخرجه أحمد، أبو داود في كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والترمذي، وقال: "حديث حسن صحيح". وأخرجه من وجه آخر عن عائشة > في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في استكمال الإيمان، وزيادته ونقصانه.

قال الحليمي في (المنهاج): "فدل هذا القول على أن حسن الخلق إيمان، وأن عدمه نقصان إيمان، وأن المؤمنين متفاوتون في إيمانهم، فبعضهم أكمل إيمانًا من بعض".

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ((يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزنُ شعيرةٍ من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه

وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير)). قال أبو عبد الله -أي البخاري- قال أبان: حدثنا قتادة، حدثنا أنس عن النبي ﷺ: ((من إيمان)) مكان ((من خير)). أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: زيادة الإيمان ونقصانه، ومسلم.

قال النووي في (شرح مسلم): "وفي هذا الحديث دلالة لمذهب السلف، وأهل السنة، ومن وافقهم من المتكلمين في أن الإيمان يزيد وينقص". وقال ابن رجب في (فتح الباري): "والحديث نص في تفاوت الإيمان الذي في القلوب".

ومن الأحاديث في هذا الباب أيضًا حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال للنساء: ((ما رأيت من ناقصات عقل ودينٍ أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)). أخرجه البخاري، ومسلم. قال القاضي عياض في (إكمال المعلم): "وإدخال مسلم لهذا الحديث في كتاب الإيمان لفائدتين: إحداها: بيان أن الكفر قد ينطلق على كفر النعمة، وجحد الحق وتغطيته، وهو أصل الكفر في اللغة، لكفران العشير المذكور في الحديث، وكفر الإحسان المذكور في الحديث في غير الأم؛ إذ لا إشكال أنه لم يرد به هنا الكفر بالله، وفسّر به كل ما أطلق عليه اسم الكفر على أهل المعاصي فيما تقدم من الأحاديث...والثانية: إظهار نقص الإيمان وزيادته بقوله: ((ناقصات عقل ودين)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (الفتاوى): لكن لم يعرف اللفظ -أي النقصان- إلا في قوله في النساء: ((ناقصات عقل ودين)). وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصلي، وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص، وفي مسألة زيادة الإيمان ونقصانه بحث مفرد للدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد.

ذكر مناهج المرجئة ومن وافقهم في حقيقة الإيمان

أصل مناهج المرجئة: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، والأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان. الإرجاء معناه التأخير كما في قول الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ [الأعراف: ١١١]، وقوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٠٦]. والغالب في استعمال هذا الاسم وإطلاقه على المرجئة؛ لكونهم يؤخرون العمل والطاعة عن الإيمان، ويجعلون الإيمان قولا بلا عمل، فالشرائع عندهم ليست من الإيمان.

والأصل الذي يجمع المرجئة على اختلاف مسالكهم وطوائفهم، هو إخراج الأعمال عن مسمى الإيمان، فهم يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة، كما سيأتي تفصيل ذلك.

والأشاعرة من المرجئة في الإيمان، وقالوا: هو مجرد التصديق بالقلب، وأن الأعمال ليست داخلة في مسماه، فالأعمال عندهم هي من شرائع الإيمان، لا من نفس الإيمان. وذهب بعض الأشاعرة إلى إدخال القول في مسمى الإيمان، ووافقوا بذلك مرجئة الفقهاء.

وجماهير الأشاعرة يدخلون في التصديق أعمال القلوب، خلافًا للجهمية. ولكونهم رأوا أن الإيمان شيء واحد في القلب، قالوا: إنه لا يزيد ولا ينقص. وبعضهم ذهب إلى أنه يزيد وينقص باعتبار كثرة النظر، وهذا ليس مذهب السلف، ألَّا أنهم قالوه نظرًا لكثرة الأدلة وإجماع السلف، فجاروهم في ذلك لفظًا لا معنًى. والذي بنى عليه المرجئة قولهم في إنكار الزيادة والنقصان في الإيمان، زعمهم: أنه إذا ذهب بعضه ذهب كله.

ونصوص الرسول ﷺ، وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه، كقوله ﷺ: ((يخرج من النار من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان)). واستدل المرجئة على مذهبهم الفاسد أنه مجرد ما في القلب، وأن الأعمال ليست داخلةً في مسماه بأن ذكر الصلاة والزكاة، والأمر بالمعروف من شرائع الإيمان، يعني من أحكامه الواجب فعلها فيه، لا أنها من نفس الإيمان، أو حملوا على أنها من الإيمان، أي: دالة عليه؛ لأنه يستدل بها على تصديقه.

والجواب: أن قولهم: إنها من شرائعه، فإن أرادوا به أنها من واجباته، فهو معنى قولنا: إنها من الإيمان، وأنه بوجودها يكمل الإيمان، وبعدمهما ينقص فيحصل الخلاف في مجردِ العبارة. يؤكد هذا أن شرائع الشيء منه، ولهذا يقال: شريعة محمد ﷺ وذلك عبارة عن جميع أوامره ونواهيه.

وأما قولهم: إنا نحمله على أنه دال على الإيمان، فلا يصح؛ لأن هذه الأفعال توجد من الكافر والمنافق، ولا تدل على إيمانه. كما أنه سبق ذكر جملة من الأدلة التي تنافي زعمهم هذا.

ومن حججهم الداحضة أيضًا: قولهم: إن الله فَرَّقَ بين الإيمان والأعمال الصالحات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٨] ونحوها، قالوا: ففرق الله سبحانه بين الإيمان والعمل الصالح بالجوارح بالواو، ولو كانت هذه الطاعات من الإيمان لما جاز أن يفرق بينهما.

والجواب: أن هذا لم يخرج مخرج الفرق والعطف، وإنما خرج مخرج التأكيد، وهو من باب عطف الخاص على العام، وهذا كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة: ٩٨] فعطف جبريل وميكال على الملائكة وإن كانا منهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ونحو ذلك.

منهج مرجئة الفقهاء: الإيمان بالقلب واللسان دون الجوارح. الإيمان هو تصديقُ القلب، وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة من المرجئة.

فهم ينكرون أن يكون العمل داخلًا في مسمى الإيمان، فقالوا: العلم غير الإيمان، والإيمانُ غير العمل، بدليل أن كثيرًا من الأوقات يرتفع العمل عن المؤمن، ولا يجوز أن يقال: يرتفع عنه الإيمان؛ فإن الحائض ترتفع عنها الصلاة، ولا يجوز أن يقال يرتفع عنها الإيمان، أو أمرها بترك الإيمان، وقد قال لها الشارع: دعي الصوم ثم اقضيه، ولا يصح أن يقال: دعي الإيمان ثم اقضيه، ويجوز أن يقال: ليس على الفقير زكاة، ولا يجوز أن يقال: ليس على الفقير إيمان.

وهذا تلبيس بعيد عن الحقيقة؛ لأنه إذا ترك جزء من العمل، وهو جزء من الإيمان لا يقال: بإزاء ذلك ترك الإيمان كله، فتنبه. وبالجملة فإن مذهب مرجئة الفقهاء، هو أبعد هذه المذاهب عن قول جهم، وهو وإن كان خطأ ظاهرًا، وبعيدًا عن ما تضمنته نصوص الكتاب والسنة -كما تقدم- ألَّا أن أكثره لفظي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (كتاب الإيمان): "والمرجئة الذين قالوا: الإيمان تصديق بالقلب، وقول باللسان، والأعمال ليست منه، كان منهم طائفة فقهاء الكوفة وعُبَّادها، ولم يكن قولهم مثل قول جهم، فعرفوا أن الإنسان لا يكون مؤمنًا إن لم يتكلم بالإيمان مع قدرته عليه، وعرفوا أن إبليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم، لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضًا؛ فإنها لازمة لها، ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم.

وقال في موضع آخر من (كتاب الإيمان): "لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب، فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله؛ لاسيما وقد صار ذلك

ذريعةً إلى بدع أهلِ الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم إلى ظهور الفسق، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ، سببًا لخطأ عظيمٍ في العقائد والأعمال، فلهذا أعظم القول في ذم الإرجاء، حتى قال إبراهيم النخعي: لفتنتهم -يعني المرجئة- أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة، وقال الزهري: ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء، وقال الأوزاعي: كان يحيى بن أبي كثير وقتادة يقولان: ليس شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء".

منهج مرجئة الماتريدية: الإيمان هو التصديق بالقلب، دون الإقرار باللسان والعمل بالجوارح. وهم موافقون في ذلك لمذهب الأشاعرة، ألَّا أنهم قالوا: إن الإقرار باللسان ركنٌ زائد ليس بأصلي، فقول اللسان له اعتبار ما عندهم بالنسبة للإيمان، وأرادوا بذلك المقاربة بين مذهب الأشاعرة ومرجئة الفقهاء.

منهج الجهمية: الإيمان هو المعرفة بالقلب، دون التصديق بالقلب، والإقرارِ باللسان، والعملِ بالأركان. والجهمية يرون أن من عرف ربه بقلبه، ثم جحد بلسانه لم يكن كافرًا بجحده هذا؛ لأن المعرفة لا تزول وتذهب بالجحد. وعلى مذهبهم الفاسد: أن العبد إذا عرف ربه، وعرف أنه الخالق لهذا الكون فهو في غاية من الإيمان، وهذا مبني على قاعدتهم المعروفة: الإيمان هو المعرفة بالله، والكفر هو الجهل بالله.

ويلزمهم على معتقدهم هذا أن إبليس مؤمن، بل هو على زعمهم من أقوى الناس إيمانًا؛ لأنه خاطبه الله تعالى، وأمره مباشرة أن يجد لآدم، وكفى بمذهب هذا لازمه ضلالًا وإلحادًا. منهج المرجئة الخالصة: الإيمان بالقلب، ولا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

منهج الكرامية: الإيمان هو الإقرار باللسان وحده. الكرامية: طائفة تنسب إلى محمد بن كرام أبي عبد الله السجستاني، الشيخ الضال المبتدع. قال عنه ابن

حبان: كان قد خذل حتى التقط من المذاهب أردأها، ومن المذاهب أوهاها، ثم جالس الجويباري، ومحمد بن تميم السعدي، ولعلهما قد وضعا على النبي ﷺ والصحابة والتابعين مائة ألف حديث. قال: جعل الإيمان قولًا بلا معرفةِ قلب، فلزمه أن المنافقين لعنهم الله مؤمنون. ذكره الصفدي في (الوافي بالوفيات).

وقال الشهرستاني في (الملل والنحل): وقالوا: الإيمان هو الإقرارُ باللسان فقط دون التصديق بالقلب، ودون سائر الأعمال، وفرَّقُوا بين تسمية المؤمن مؤمنًا فيما يرجع إلى أحكام الظاهر والتكليف، وفيما يرجع إلى أحكام الآخرة والجزاء، فالمنافق عندهم: مؤمن في الدنيا على الحقيقة، مستحق للعقاب الأبدي في الآخرة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (كتاب الإيمان من الفتاوى) والكرامية توافق المرجئة والجهمية: فيأن إيمان الناس كلهم سواء، ولا يستثنون في الإيمان، بل يقولون: هو مؤمن حقًّا لمن أظهر الإيمان، وإذا كان منافقًا فهو مخلد في النار عندهم؛ فإنه إنما يدخل الجنة من آمن ظاهرًا وباطنًا، ومن حكى عنهم أنهم يقولون: الإيمان يدخل الجنة؛ فقد كذب عليهم، بل يقولون: المنافق مؤمن؛ لأن الإيمان هو القول الظاهر.

وختامًا نقول: إن كلًّا من مذاهب المرجئة على اختلاف أقوالهم مردودة بنصوص الكتاب والسنة الصريحة والواضحة، وبإجماع السلف على ذلك، كما تقدم نقله سابقًا، وقد سقت بعضا من شبهاتهم ورددت عليها، وذلك لبيان ضعفها، وعدم مقاومتها لما نصت عليه أدلة الكتاب والسنة.

قائمة المراجع العامة

١. (**التَّدمرية**)

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، دار الفكر اللبناني ، ١٩٩٣م.

٢. (**شرح العقيدة الطحاوية**)

علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩١هـ.

٣. (**معتقد أهل السنة في توحيد الأسماء والصفات**)

محمد بن خليفة التميمي ، الرياض ، أضواء السلف ، ١٩٩٩م.

٤. (**الإبانة عن أصول الديانة**)

أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، دار النفائس ، ١٩٩٤م.

٥. (**الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة**)

عمر بن سليمان الأشقر ، عمان ، الأردن ، دار النفائس ، ١٩٩٣م.

٦. (**رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها**)

أحمد بن ناصر آل حمد ، جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية و إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٩١م.

٧. (**شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**)

هبة الله الحسن بن منصور الحافظ اللالكائي ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٢م.

٨. (**الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه**)

محمد أمان الجامي ، الجامعة الإسلامية ، ١٤٠٨هـ.

٩. (عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى)

محمد بن خليفة التميمي ، أضواء السلف ، ١٩٩٩م.

١٠. (الفتوى الحموية)

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٨م.

١١. (القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف)

إبراهيم بن محمد بن عبد الله البريكان ، الرياض ، دار الهجرة ، ١٩٩٤م.

١٢. (القواعد المثلى في أسماء الله وصفاته الحسنى)

محمد بن صالح العثيمين ، المدينة المنورة ، الجامعة الإسلامية ، ٢٠٠١م.

١٣. (مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد" و"إياك نستعين")

محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، دار إحياء التراث العربي ، ٢٠٠١م.

١٤. (مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين)

أبو الحسن الأشعري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٣٨٩هـ.

١٥. (الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات)

عبد القادر محمد عطا صوفي ، دار الغرباء الأثرية ، ١٤١٨هـ.

١٦. (مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها)

جابر إدريس علي أمير ، أضواء السلف ، ٢٠٠٢م.

١٧. (**المنهج الإسمي في شرح أسماء الله الحسنى**)

محمد بن حمد الحمود، مكتبة الإمام الذهبي، ١٩٩٢م.

١٨. (**مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات**)

أحمد بن عبد الرحمن القاضي، دار العاصمة، ١٩٩٦م.

١٩. (**شرح أسماء الله تعالى الحسن وصفاته الواردة في الكتاب والسنة**)

حصة بنت عبد العزيز الصغير، دار القاسم، ١٤٢٠هـ.

٢٠. (**النفي في صفات الله عز وجل بين أهل السنة والجماعة والمعطلة**)

محمد أرزقي سعيداني، دار المنهاج، ١٤٢٦هـ.

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2009